عصام راسم فهمي

هُدنة مؤقتة

الحكوب

obeikan.com

الكتـــــــاب: هدنة مؤقتة - الحكروب

المــؤلـــــف: عصام راسم فهمي

تصميم الغـــلاف: محمد حواس

المراجعة اللغوية: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

رقـــم الإيـــداع: 2016 / 3766

الترقيــم الدولــي: 4 - 101 - 779 - 977 - 978

الإخــراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 97 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0223952354 - موبايل: 01142050403

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

obeikan.com

عصام راسم فهمي

هُدنة مؤقتة

الحكروب

إبداع
Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة

obeikan.com

obeikan.com

(حين أكتب لكم عن أشياء محزنة، لا أريدكم أن تبكوا، بل أريدكم أن تعملوا على تغيير أقدار تلك الأشياء)..

أنطون تشيكوف

obeikan.com

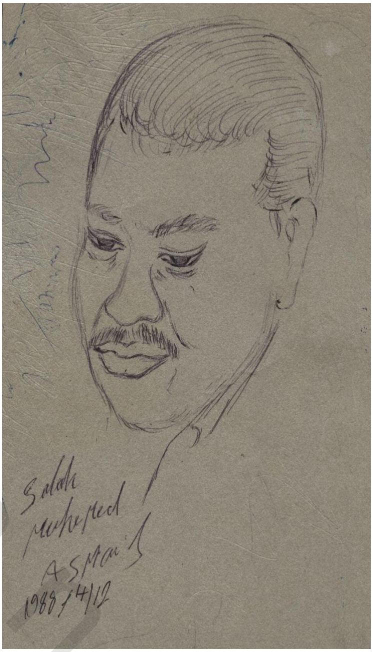

جمال يوسف فهمي

(1)

لديك رسالة:

(أرجوك كلمني، جرجس ..(13/6/1999

..وهذه الصورة رسمها لي "صلاح" منذ سنين فائتة، تقريبا في سنة 1990 ميلادية.

..رسمها على "جلدة" كراسة قديمة.. هي كانت كراستي المدون بها

obeikan.com

بعض التذكارات، وبعض الكلام الذي يخصني، كانت الكراسة ممتلئة عن آخرها، فلم يجد صفحة بيضاء واحدة ليرسمني وأنا في تلك الحالة.. وكنت سارحا في الأسفلت، فرسمني.

..هذه صورتي، وإن كنت أعتقد في نفسي، أن شكلي أوسم من ذلك بقليل، لكن البارز في قسماتي، هو ذلك المثول الجميل، واتساق نظراتي مع الأرض، وذلك التهذيب الذي اعتلاني، يبدو أن الفنان حين رسم لي هذا "الإسكتش" لم يعرف أنني تغيرت وصرت امتلك سلاحا حقيقيا، هو سلاح سري أجوس به في حواري "الحكروب"، وفي قلب مدينتنا الصغيرة.. صارت مطواتي "القرن غزال" جزءاً لا يتجزأ من جيب بنطالي الخلفي، هنا وعند بدايات الأزقة "الحكروبية" الثعبانية المقبضة، ينتظرني ذلك التربص الذي يتلصص عليّ متحينا الفرصة ليصيدني، وهناك في قلب المدينة، ذلك الخطر المتخفي وراء الحيطان الشاهقة، وعند نواصي الشوارع.. إنه قلق الاسترابة والحيطة، الذي يؤذيني هذه الأيام ويخفض مقدار الاطمئنان في عروقي، ويخيفني، لدرجة أنني أتوقع هذا الهجوم المباغت، في أي لحظة.. أنا مريض في هذه الأيام بـ"فوبيا" القادم الخفي.. لذلك أصبحت أفضل واحد في العالم يجيد النظر إلى الخلف وهو سائر إلى مقصده، بل صرت أرجح التطلع إلى الخلف، عن النظر إلى الأمام.. غصب عني والله.. أكثر من مرة سمعت زعيق عجلات السيارات قبل أن تدوسني بلحظة، لتنفجر شتائم السائقين، وتعلق بأذني لمدة طويلة وهي ترفض أن تخضع لعميلة الإذابة والتنظيف التي أجريها لجهازي النفسي كل ليلة، وياما أشياء استعصت على الإذابة والتحلل، وظلت

obeikan.com

قائمة معي أياما وليالي كثيرة، إلى أن تليفت وتكلست وأصبحت كالورم الخبيث في ذاكرتي..

..وأنا أعدو هاربا من الخطر الجديد المداهم كنت أتلفت حولي، فما أدراني، أن الذي حدث سوف يكون آخر الفواجع، ولماذا لا أتوقع أن المختبئ في جوف الغيب ووراء الحيطان الشاهقة الخشنة، لسوف يكون أشد فظاعة وإلاما، كنت أعتقد أن هناك تربصا يحاك لي في الطريق العام، وفي الأزقة الضيقة المظلمة التي اضطر لأن أسير فيها مكرها لغرض ما يجب أن آتيه.. ولو اصطدم بي أحدهم وأنا أزاول مهنة النظر إلى الوراء لأسرعت وتحسست جيب بنطالي الخلفي، ولا أعود من عند هذا الحصن الورائي إلا حينما أسمع آسف هذا الغريب واعتذاره الصادق، ومن يضمن لي أن هذا الشخص ليس برسول حاذق سوف يحط في أحشائي ذلك الخطر الذي أخافه وانتظره.. إذن إن لم أتعامل معه بحسمية، ولؤم، فقد أصير طريدته التي جاءها..

ومال بوذي ممدودا في الصورة هكذا ككلب يبحث في القمامة عما يسد رمقه..!! ومرتخي الملامح وماثل للأمر بغير خجل، ومجهد من فرط البحث والتقصي عن أخبار حلوة قد تأتيه من كلب آخر صديق، ولماذا ذلك الشخص الممتثل المطيع الذي يشبهني في الصورة، لا يحط في جيب بنطاله الخلفي مطواة "قرن غزال" تحسبا للظروف!!؟

ـ الله يسامحك ياللي في بالي..

obeikan.com

(2)

(لديك رسالة..)

(جـمـال.. مـبـتـردش لـيـه.. طـيـب لازم أقـابـلـك لـو سـمـحـت.. جرجس..23/6/1999)

..يا شخص، أنت صرت ناقص الجسد، لكنك لا تزال بروح فارهة ممتدة في آفاقك البعيدة كعطاء لا ينقطع، مهما صار اللحم منقوصا تستمر الروح كاملة، العلاقات سمكها ينقص أو يزيد، أو تضمحل، المعاني تسمووتنحط، أو تتبدل، الرغبات تحتد وتتلألأ، أو تذبل، وتنكس في القلب كعلامة علي الخسارة، العمر ينفرد إلى البعيد، ثم ينكمش منتظرا لمحطة الوصول الأخيرة، لكن ستظل الروح باسقة مثل فردوس واسع، يا جماعة الجسد قابل للإذابة، ومحتم عليه الخفاء، أما الروح فهي ساطعة، هي جزء من الأزل الساكن فينا، تمرض لكنها لا تموت، تتعذب ولا تئن، ودائما تامة وخالصة من شوائب العالم، برغم كل ذلك الألم الذي هناك ستستمر كاملة، وكل الذي من صنفها، سيستمر هو أيضا في شقوقك الجوانية، ليمسّد عليك، ويعالج فيك الجرح العنيد، شوف البنت التي لمت كراكيبها من داخلك وسافرت، هي جمعت كل حاجاتها من نفسك، لكن ظل منديلها الصغير المطرز ماكثا معك كنسمة من روحها البعيدة، فني وانتهى كل شيء كان يجمعكما، لكن

obeikan.com

ظل ماكثا في عتمتك الخصوصية، منديلا قماشيا صغيرا لا يستقر دائما في جيبك بل أحيانا ما يتسلل منك، ويذهب إلى روحك الواسعة، الروح في أوقات كثيرة ما ترحب، بالمطر، والغبار، والطين، والدخان، والروائح، والماء، والتراب، وهي كذلك ترحب بالقماش الصغير المطرز، تلك الأشياء وغيرها كثير من الممكن أن تسعد الروح، لا تخشى إذن من نقصان روحك، وتعاطف فقط مع لحمك الهزيل، أنت نحفت كثيرا، هذه الأيام، وأنت الذي كنت بطول وعرض وصحة وافرة، ها أنت تنقص بالتدريج، وبالراحة، وكل حين تثقب ثقبا جديدا، في حزامك الجلدي، تجنبا لسقوط بنطلونك "الجينز" من فوق لحمك وأنت تسير في الطريق العام، وكم أنت تخشى أن تتعرى أمام وجه العالم، وكم تعالج نحافتك المبتدئة في امتصاصك، بطرق شتى!!

منذ سنين قليلة، تعاملت معك ماكينة "التشفية"، بافتراس وقناعة، ذاقت من لحمك وشربت من دمك الشيء القليل، فأي قناعة تلك التي يمتلكها الحديد!! ومن منا يشبه الجماد في صمته وثباته ووفائه الأليم وقناعته بمصيره الحتمي في الجمود غير النهائي!! ليت أحدا من الناس يرد عليّ!! ولماذا البعض يبدلونه ويغيرون عليه، ويسلبون صفاته لأنفسهم؟! ولماذا كثير من الناس، يتحايلون على الصخر ليكونوا شبيهين به.. لماذا..؟ ليت واحدا من المارين في الشارع، يرد عليّ.. لماذا؟!

..كانت المكنة المستوردة تريد المزيد لتأكله منك، ولكن حين وجدتك بخيلا تجاهها، وأمينا على سلامة جسدك لدرجة الفضيحة والصراخ المبرح، اقتنعت بما تيسر من لحمك وعظمك وتوقفت عن المضي في

شغلها، وتنازلت لدقائق، عن كونها آلة صماء لا تفهم وتوقفت، تركتك منقوصا بغير جشع، أصبعان صغيران، سقطا منك سهوا على الأرض، وانكشف الدم، وذهب دافقا إلى ثيابك الحكومية، وتسلل إلى أرض العمل ليشهد أنك كنت وفيا في عطائك، وصارما في تضحيتك، وأنت كساذج صغير، تركت نافورة الدم وهي تلعلع باللون القرمزي الداكن، وذهبت إلى أجزائك الصغيرة، انحنيت على الأرض كجريح حرب لم يحارب بعد، وأمسكت بالسبابة والإبهام، وجئت بهما ثانية، وحاولت غرسهما من جديد في تربتك، فلم يطاوعانك، أنت تحاول، وهما يرفضان، والدم يبقبق مندفعا بغير مانع، يرفضان العودة لمكانيهما القديم، ويصممان على المغادرة والانفصال..

الحديد الغلبان هبشك هبشة صغيرة ثم عاد لثباته، وأخرت بفعلك الفاضح هذا، ولدقائق معدودة، خطة إنتاجية حصيفة، وغير مسموح بالتراجع عنها، شفت!! إلى هذا الحد كان الحديد كريما معك!! المكن كان قد توقف بسببك، في حين كنت قد ذهبت لحالك، "قسم التشفية" غاص في رائحة دمك الزفرة التي غطت على رائحة السمك النتنة، في حين أنت هناك في قسم الجراحة بالمستشفى العام، محاطا بعناية "اليزوول"، والمطهرات، وأدوات القص واللزق التي سوف تعمل في جسدك، مبسوط يا سيدي!!

..أنت الآن قابع هناك في الجبل العظيم كصمت محقق، ومعك أشياء جديدة يجب أن تحمل بين طياتك باهتمام فائق، أنت خسرت منذ فترة قصيرة، قطعة صغيرة من لحمك، حسب ما هو مكتوب ومقرر.. والآن أي جزء من جسمك، تعده للأضحية القادمة؟، وإلى متى ستظل

تمضي إلى نحافة حقيقية؟! وإلى متى ستستمر تخرم خروما جديدة في حزامك الجلدي الذي يضبط البنطلون على وسطك؟ أما حان الوقت لتقف وتتعلم السير إلى المقبل البعيد كواحد ليس بأبله؟!! ألن تغادر كل هذه الفوضى وتعاونني في الوصول لنهاية المشوار المتعب؟! أما آن ميعاد صراخك وعبورك إلى الذي تبتغيه من زمان، مثلي؟ من الذي يعطلك يا غلبان؟ من؟ العيب كل العيب ليس في الخارج الكبير فقط، بل أنت مشارك في صنع المعصية العظيمة التي تتشكل من حولك كل يوم، كلنا مدانون يا روحي، فيا إما تعاونني في الاجتياز والوصول، يا إما تتنازل يا سيدي عن هذا الحرص الزائد، والاحتياط وتمنح ماكينات العالم مساحة أكثر من سهوك، حتى يتسنى لها أن تشوف شغلها معك، ونخلص..

كلنا خطاة يا عين أمك، أرجوك لا تعش في الدور جيدا، لتجعل من نفسك في نهاية المطاف حمل الفداء، أو أضحية، كلنا كذابون ومدنسون وخطاه مهرة، كلنا، كلنا بالكاد نفرق قليلا، عن ذلك الشخص "الحكروبي" المجاهد، الذي بضربتين من سكين أجهز على أمه، ضربها بالطعنة القاتلة، ثم نام بقربها حتى الصباح..!!

صدقني هو فعل ذلك من أجل الشرف والعار، تلك الأشياء الظالمة، التي دمنا ندسها في أعماقنا الجوانية ولا ندربها على الاتساع ورؤية سماء الرب، تلك الأشياء المعتقة اليابسة، والواصلة لحدود التلف، من فرط انفصالها عن لدونة الحياة، الحياة برغم خشونتها توجد بها مناطق شاسعة من اللدونة المرحة، لماذا يا صاحبي نقصد دائما الأمكنة الصلبة لنجري فوقها صراعاتنا الغبية؟!!

تلك الأشياء المتكلسة حري بها أن تدفعنا للقتل وسفك دماء البراءة، طالما هي حبيسة في ظلمتنا الداخلية العميقة.. حري بها حين نطلقها في لحظة مجنونة، ناحية بعضنا البعض، أن تكون وحشا مسعورا يسعى لافتراس الواقف قدامها وهو يئن بضعفه الإنساني، حري بها أن تفعل ذلك ببساطة، فهمت يا

حبيبي، وبراحتك.. براحتك على الآخر.. باي.. سلام ..

obeikan.com

(3)

ويا أيها الطيبون البسطاء، هذا ما حدث بالضبط في ظهيرة ذلك اليوم الحارق، أمي أغلقت برميلي "الجاز" وقفلت دكانها الصغير الذي اقتطعته من بيتنا، ثم جاءتني متعجلة وقالت لي، مستوجبا علينا الذهاب معا إلى مشوار مهم، وينبغي عليّ أن أعد نفسي سريعا للذهاب معها، لبست "جرجارها " الأسود الكالح، وعقدت منديلا أسود فوق شعرها الفضي المجدول في ضفيرتين نحيفتين، وهمت عازمة على خوض الرحلة غير مبالية بالمؤامرة التي يخطط لها هذا الحر الخانق..

أمسكت بطرف "جزلان " نقودها، ووقفت عند الباب في انتظاري، الجو ساخن، وقيظ الخارج، يهجم علينا من السقف الجريدي والجدران الحجرية الواطئة، وتيار من الهواء الساخن يأتي مدمدما من الباب المفتوح، إنها شمسنا الجنوبية الجافية، هي تكاد تكرهنا بقوة في هذا الوقت من السنة، لا تحن ولا ترحم، وجالسة فوقنا كهم كوني عظيم، وتسقط علينا نيرانها، عبر نصف صالتنا المكشوف، كان البيت فرنا كبيرا يستعد للاشتعال، ونحن نحاول جاهدين النجاة بجلودنا من هذا الفتك، ونتلصص باحثين عن ركن طري بالبيت، المراوح الكهربائية المعلقة في الأسقف لم تعد قادرة علي إطفاء كل هذا الحريق، كان جبل "الحكروب" في هذا الوقت يتكاتف مع الشمس،

obeikan.com

صخوره الصلبة تمتص عهدا من سخونة الطقس، وتلفظه ناحية ناس وبيوت وبهائم "الحكروب"، وشقيقتي "صبحية" تقف في كل ظهيرة وتدافع عنا بصفائح الماء، كل حين تملأ الصفيحة من الصنبور وتدلق الماء على الشمس، إنها معركتها اليومية ودائما ما تنهزم فيها ليتألق القيظ من حولنا غير مبالٍ بالبلل الذي أصابه، ودائما ما نكون نحن والماء الطرف الأضعف في تلك المواجهة، لكنها محاولات البقاء، وغريزة الدفاع عن النفس، ومن غير الماء عقابا خفيفا لهذا القيظ؟ ومن يزعج صيفنا الجنوبي قليلا غير الماء؟ ماؤنا هو الابن الشرعي لسيدنا النيل، وبرغم شيخوخته، فهو الوحيد الذي يستطيع أن يتفاوض مع الشمس، بخصوصنا..

وكان وجه أمي القمحي الممصوص، مغسولا بالعرق، ويميل لونه إلى الحمرة المحتقنة، كانت تضرب بـ"جزلانها" المنفوخ، المتآكل الحواف، على فخذها، فتخشخش قطع النقود الفضية المحبوسة بداخله، فتعلو من حولنا ضوضاء صغيرة، كانت تنتظرني حتى أكمل ارتداء ملابسي، وهي حين تضع شيئا في رأسها تربك البيت، وتوقف الدنيا على رجل واحدة ولا تبالي بشيء، حتى وإن كان هذا الشيء، جحيما أرضيا بمقدار صيف لا يرحم، أو تواطؤ كبير يحيكه لنا جبل الحكروب، و"صبحية" مستمرة في عملها بمنتهى الصدق، والماء كل حين يعلن خسارته السريعة، ملأت الكوز ودلقته فوق رأسها، ونفخت بفمها محتجة، نفضت شعرها الأسود الطويل فترامت إليّ بعض قطرات أنعشتني بعض الشيء..

قالت: إن زواج "صبحية" أصبح على الأبواب، ولابد أن نسرع بالتصرف

قبل أن يأكلنا الوقت وننزنق في تجهيز الفرح الذي جاء بعد تأخر وغياب ومراوغة..

هذا هو "العريس" الثالث على التوالي، الذي تقدم لطلب يد أختي الصغرى، ولذلك لا تريد أمي أن تضيع "مقبل" من يدها..

من قبله، ولأسباب غامضة انصرف العريس الأول، ومن بعده الثاني، الاثنان بتصرفهما غير المبرر، كانا قد أصاباني بدهشة وفضول كبيرين، الاثنان تركا لـ"صبحية" بغضا بحجم الرجال أجمعين، وأيضا منحا لأمي حزنا أكبر في اتساعه من بيتنا، وصارت أمي ذبيحة بريئة، لا يوقف نزفها إلا الرجل القادم خصيصا لابنتها الصغرى ليدخلها بيته بالحلال، هذا فقط هو علاج أمي ...

لسبب مجهول ذهب الأول، بعد أن اتفقنا معا على كل شيء، في البداية كان متحمسا للنسب معنا، وكان ينتسب إلى عائلة كريمة، بعد ذهابه وفراره الجارح بعامين كاملين، جاء الثاني وكان فرحا بـ"صبحية" وفرحا أيضا بموافقتنا عليه، وبرغم علمنا بسجن ابن عمه "البقال" في قضية تموين، قلنا لبعضنا البعض، ماله هو وابن عمه؟!! وما ذنبه فيما يقترفه الآخرون..!! وفضلنا نتراجع أمام حفنة أفعال وضيعة، كان يفعلها بعفوية، جملة من أقربائه، وكل وقت نقول لأنفسنا، طالما هذا الشخص مستقيما، ولا يشرب السجائر، ويكد في عمله كـ"موظف" قطاع عام محترم، فهذه بشرة خير على مستقبله واعتداله في ممارسة وجوده..

واستحال بيتنا إلى استراحة دائمة لأمه الثرثارة وأبيه الأكول، وكأننا

صرنا في نظرهم فرصة غانمة للابتزاز، وأخرجت أمي من عشة الطيور الموجودة بأحد أركان البيت، كل ما تستطيع من بط ودجاج وحمام، وقدمت كل هؤلاء كوجبات محمرة ومطجّنة لأنسبائنا الجدد، واستمرأوا الأمر، وراح يتناقص رصيد أمي من الطيور الداجنة طوال مدة الخطوبة الفاشلة، وكلما استزادت من الأسواق والباعة الجائلين، أتت الولائم على كل شيء، وكانت تطيل النظر لحظيرتها الصغيرة الفارغة بحزن، لكنها رغم ذلك كانت راضيةً من أجل أن يتم المراد، وتحملت بقلب راضٍ اختفاء الصياح والصوصوة، والقأقأة من البيت..

هنا حلفت "صبحية" برحمة أبيها الغالي بأنها لن تأخذ هذا الرجل زوجا لها، هنا كانت أمي تقول لابنتها، مالنا نحن وأبيه وأمه، فطالما الولد يحبك، فأنت ونحن في أمان كامل.

وضغطت أمي بشدة على "صبحية" لتقبله رجلا مباركا لها، ومنه تدر نسلا صالحا يكون سندا لها في أيامها المقبلة، مثلما نحن سند لأمي، التي تعيش الآن في أطراف شيخوختها، وكانت "صبحية" تقيم مأتما يساوي الرفض القابع في صدرها لهذا العريس الثاني، وناسه، وكانت أمي توبخها، وتزيحها زيحا إلى الرجل كلما جاء إلينا زائرا ومحملا بأكياس العنب والبرتقال والجوافة، وكانت "صبحية" لا ترضخ، وتعدد لنا أسباب رفضها، فكيف هي الفاهمة، والمتعلمة تعليما عاليا، ترتبط بواحد "دبلومي" ويعمل، كموظف حضور وانصراف متواضع، وطوال وقت جلوسه معها لا يقول شيئا إلا جملة متلعثمة خاوية من المشاعر.. "ازيك يا خطيبتي، يعني إيه عاملة، كويسة..؟"، ولا يفعل شيئا آخر غير النظر لرجليها بالذات..

وكنت أتابع الأمر صامتا..

مع إلحاح أمي، ورغبتها في إنهاء مهمتها فوق الأرض، بدأت البنت تلين لرغبتها، ومع تردد الشاب البكر الغشيم على بيتنا حن قلبها إليه قليلا، وقبلته على مضض كقرار لا رجعة فيه، وبدأت تنتظر حضوره إلى بيتنا وتترقبه، وتحاول أن تفتح معه سككا جديدة للحوار، حتى يمشي بعيدا عن الجملة البليدة التي دام يقولها وهو جالس بقربها في صالة بيتنا.. "أنتي إزيك دلوقتي..؟"..

لكنه لم يستطع تجديد نفسه ودام ساذجا ومولعا بجسد "صبحية"، التطور الوحيد الذي طرأ عليه، هو أنه فتح مناطق اجتياح جديدة في جسم شقيقتي الصغرى، لم يعد يتفرس فقط، في ساقي شقيقتي المخروطتين، بل تجاوز هذا الأمر، وبدأ يتطاول بعينيه علي نفائسها المكنونة، ومارس جرأة ذكورية جارفة إلى أن وصل المناطق المحرمة، والأكثر وعورة وسرية في الجسم الأنثوي الشاب الجالس بقربه على الكنبة، بمكر ذكوري شديد وصامت، دخل مناطق بصرية جديدة ممتعة في "صبحية"، وأعلن نفوذه عليها، ولم يعد يهتم بأملها في إمكانية تغييره..

هكذا كانت تحكي لي، عندما تدخل إلى غرفتي وتستفرد بي بعيدا عن عيني أمنا. وكنت أقف حائرا بين رغبات الثلاث، أمي و"صبحية "والعريس المراهق، الغشيم، صاحب الأصل الواطئ، فإن خلّصت "صبحية" منه، فحتما سوف تحبط أمي ويفتك بها الحزن الثقيل وتندب حظها وحظ ابنتها التي أوشك قطار الزواج أن يفوتها، وإن تعاملت مع الولد بطريقة تنفره منا، قد يشكو لأمي فتغضب عليّ وأنا

لست بمقدار غضب أمي حين تغضب، ولا أحتمله!!

كان الولد قد أحب جسد شقيقتي لدرجة التهافت، مما دعاني لمتابعته، والتدقيق في تصرفاته أثناء وجوده عندنا، كان يشتعل وهو جالس بقربها لدرجة أن عضوه كان ينتصب بحدة، بنفسي رأيت الخيمة الصغيرة التي رفعت أسفل بطنه، وفي إحدى المرات شاهدت بقعة صغيرة من البلل الخفيف في ذات المكان وهو يقوم مستعدا للمغادرة..

في ذلك الوقت.. هناك احتمال كبير بأنني قلت في نفسي..

أنا لا أمنعه من دهشة الجسد، ولا أفرض عليه تحريما يعطل فرحته بأنثاه، لكن من الواجب عليه أن يعدد من فرص التلاقي بينه وبين عروسه، وأن ينظر إلى الرابط الإنساني الذي سوف يجمعه بشقيقتي عبر تفاصيل أخرى، لا يكون فيها الجسد هو المحور الوحيد، أو العامل الأهم في الموضوع، لكن أن يحال الأمر برمته إلى موضوع لحمي بحت، فهذا ما أقلقني، وأقلق "صبحية"، التي تمتاز دونا عن شقيقاتها الكبريات، بموضوعية مفرطة، وفهم جيد للأمور، وكيف تسير..

لم تعد تلك الطفلة الأصغر بيننا، فمنذ زمن صارت لا تفرط في دماغها بسهولة، خصوصا بعد أن أتمت تعليمها العالي، تعتبر نفسها دفعت معنا فاتورة باهظة من التعب حتى تصل إلى حلمها التعليمي هذا، وحين كانت تدخل معي في نقاش، كنت أنظر إليها برضاء واحترام، وأتمنى لها أن تظل صامدة أمام الأيام، وما سيواجهها من سخافات من جراء كونها امرأة في واقع ذكوري متحفظ، مغلق، أو على وشك الانغلاق التام، خصوصا بعد استشراء الحالة "الدينية" المتزمتة بين

الناس، يا طفلتي من سيقبل فصاحتك وجرأتك وعقلك النشط وأنت تمتلكين ثديين نافرين وسمانة ساق مخروطة كما قال الكتاب!!

هي لم تعد الطفلة، آخر عنقود الأسرة، بل كانت قد كبرت، وتسلحت بأفكار جديدة لا تستسيغها أمي وترفضها، وكانت "صبحية" في بعض الأحيان تقود في البيت ثورة عارمة، توجهها إلى أشياء أخرى، غير موضوع عريسها هذا، كل هذا التمرد كانت أمي تعرف كيف تزجره، كانت بخبث المسنين وحكمة الحيّات، تعرف كيف تلجم "صبحية" وتجردها من ذلك الألق المعرفي، لتعيدها ثانية إلي جسد الأنثى، تلك الأنثى التي بمثابة عورة كبيرة، ومن الواجب أن تتحصن بالأصول والتقاليد والعيب..

أمي، وتحت إلحاح أمنيتها الدفينة في إنهاء وظيفتها معنا على الأرض لترتاح وتسافر إلى أبي، لم تلحظ الغباء الوجداني للشاب..

..قالت "صبحية".. الحمد لله..

.. فالشاب الجاهل كان قد حلها لوحده، وبدون ضغط من أحد، بمفرده فاجأنا ومارس ذهابه الحر المجهول الأسباب، ومضى إلى الرحاب، وتركنا في حيرة، وجلس كل واحد منا في ظنونه الخاصة وبات حال المرأتين، أمي القلوقة، وأختي المشاكسة، يقول ما معناه: "رضينا بالهم والهم لم يرض بنا"!!، واتهمت أمي الجيران، والأقرباء بأنهم وراء هذا الذهاب الطليق الذي أصاب "عرسان" ابنتها، وكانت كل فجر، وبعد صلاتها مباشرة، تنزل طرحتها "الشيفون" الخفيفة من على رأسها، وتفك المنديل المعقود على شعرها، وتحل جدائلها، فيهوش شعرها

الفضي، وينتشر حولها كهالة احتجاج كبيرة، ثم ترفع وجهها وصوتها إلى ناحية السماء المرتفعة فوقها مباشرة، وتطلب خاشعة المعونة من الرب الكريم، ومعاقبة الذين يمشون وراءنا بالسحر، و"العمولات" السفلية، ليؤجلوا بهجة حلوة نحتاجها، لعامين متتاليين، وأمي تفعل هذا الفعل كل صباح!!

في ذلك الوقت فسرت هجرة الخطيب الثاني بمعانٍ متطرفة، فلمعرفتي بهياجه الجنسي وشهوته تجاه شقيقتي، خشيت أن يكون قد أخضع أختي لرغبته العارمة في إحدى المرات التي خلا له الجو، ونحن في غفلة عنه، قلت في نفسي لربما يكون أصاب البنت بعدواه الجنسية، وأثر عليها وحين نال مراده هجرها وهجرنا، ورحت أركب الموضوع فوق بعضه كفيلم سينمائي قديم لـ"شادية وكمال الشناوي"، وبرغم يقيني من أخلاقيات "صبحية" وحسن تربيتها، إلا أن الشكوك تجاه هذا الأمر وخزتني بحدة، وفكرت في الأمر بألم، ورحت أتخابث عليها في الكلام والتصرفات، وحينما كانت تقابل كلامي الرمزي بغير اهتمام، اضطررت إلى أن أجيبها على بلاطة..

كانت معتادة في كل ليل، وحين أجيء من الخارج، على الجلوس في غرفتي لتقرأ معي ما أحضرته من جرائد أو مجلات، وهي تفرد قدامي الجريدة لتطلعني علي الخبر الذي أثار حفيظتها، حدقت في عينيها مباشرة وقلت في اتهام، وباغتها..

- الواد جابر ده، لمسك يا بت؟!

وهي تفرد ملامحها من جديد، وسيل من الماء ينزل، قالتها بتحدٍ وحزن..

- لا، متخافش على شرفك..

وعاملتها كإناء أنثوي مملوء بالمحرمات، وكأنها تخص غيرها، أكثر بكثير مما تخص ذاتها، وأنها ملك الجميع إلا نفسها، الناس، المجتمع، التقاليد، الدين، الذكر الهارب، أخيها الأكبر الذي يحافظ على شرفه، وشاركت في عصرها وإهدار غرورها الجميل، وعاملتها كجسم، محض جسم قد يقبل اعتداء الآخرين..

___ ..لا..لا..

وجرت إلى ظلمة البيت الداخلية واختفت، وتركتني وحيدا وسط الكتب والصحف والمجلات، وظللت ليومين لا أقابلها، وكلما دخلت غرفة تسربت إلى أخرى، بعد أسبوع قبلتني وسامحتني، وراحت تشهق في صدري مثل وردة تكافح عوامل الذبول..

- حقك عليّ يا "صبحية"، سامحيني..

ولما طالت المدة ولم يدخل إلى بيتنا رجل ثالث لطلب يد البنت، ظهر بأس أمي، وصرامتها تجاه ناس الحكروب، وتجاه الأقدار، وبان أيضا جدالها مع الرب، كانت تسأله بصوت عالٍ وهي في دكانها، أو وهي تأكل معنا على الطبلية، كانت لجوجة وتستعجل منه المدد، وتسأله عن السبب الذي يعطل حصولها على فرحة دخول ابنتها الأخيرة إلى بيت العدل، فماذا ينتظر الرب الجالس في السماء، حيال بنت جميلة شبت وكبرت وتعلمت، وطابت، واستوت، وتنتظر من يجني فاكهتها المسكرة، ويسقيها من مائه حتى تثمر من جديد وتصبح أرضا ولودا؟! وذهبت إلى وكلائه فوق الأرض من الأبرار والصالحين، وتدريجيا تورطت

في طقس من البخور، والأوراق المكتوبة بأحبار "دم الغزال" ودم "الديوك السوداء"، وكثيرا ما ألحت عليّ لأتيها بريش "هدهد" يكون ذكرا، أو رجل يسري لـ"غراب بين" أسود، وأنهكتني بمطالبها وقلقها المبالغ فيه، وما بين الشيخ عبدالله بمنطقة "خور عواضة"، والقمص "يعقوب" كاهن كنيسة الملاك، قطعنا مشاوير مكوكية، لم تأتِ بحافز أو نتيجة، مما دعا أمي لأن تتجرأ وتطلب الخروج من حدود المدينة، سعيا وراء حل لمشكلة "صبحية"..

أصبح ذلك دخولا عاتيا وغير اختياري، إلى مناطق السحرة، والعرافين وأصحاب الطرق، صارت أمي تمثل لهؤلاء، خلال العامين الفائتين، سوقا رائجة، وربحا مضمونا، وصالت وجالت في البلاد البعيدة والقريبة، وأنا معها رقيب وحارس يؤمّن خطواتها، وهي سائرة نحو الوهم، كنت مجبرا على التعلق بغبار ترحالها، لأحرسها من غدر المسافات القصية، التي تقطعها في مجاهيل الأرض، أنا كنت لا أبحث عن حل لمشكلة أختي..لا..لا، لا، بل كنت أذهب مع أمي لأعالج أمي ذاتها، وليس لأحل مشكلة أختي المشرفة من وجهة نظر أمي على الولوج إلى مناطق العنوسة الوعرة والمجهولة الجانب، وكانت كل تلك الأمور تزيد من غضب "صبحية"، مما يجعلها تقوم بالانقلابات والثورات في أركان البيت، وتحاول ماكرة أن تؤلبني على أمي لتأخذني في صفها، وكنت ابنا صالحا لأمي..

- .. عاجبك اللي بتعمله أمك ده؟!!

وكانت "صبحية" تصطادني حين أعود في الليل متأخرا لتعاقبني، تقتحمني ثائرة لتأخذني بغتة من بين ضفتي كتاب أو فيلم اتفرجه، أو

obeikan.com

تسحبني بإصرار حين أكون مستغرقا باستمتاع في دماغي الخصوصي، وتقول من بين دموعها، بصوت تدرب على أن يعترض، "عاجبك اللي بتعمله أمك ده؟! وأنت يا جمال متبعها وماشي وراها .. أنا مش ممكن أتجوز بالطريقة بتاعتكم دي!".

ويا أختي لا تظلميني، ودعيني أعالج أمك قليلا، اتركيني أأخرها قليلا حتى لا تذهب، ومن قال لك يا حرة بين البنات، أنني أرضى وألين لاختيارها، يا ستي ومهما وصل فهمك، فلن يصل لما يرتبه الغيب لنا، لن تصلين يا عفريتة لما يدور في عقل أمك، صدقيني، تلك المرأة الصابرة على مرارة الأيام، المدبرة كحكمة قديمة، الرءوفة كحمامة عجوز، تستعد لأن ترحل، هي لا تستعجل العريس الغامض، بل تستعجل الراحة الكبيرة، فقط تريد إتمام مهمتها فوق الأرض؛ لكي تفيق للسفر البعيد، وأنا فقط أعطلها، أساعدها، أنا فقط أطيب خاطرها، وأعرقل مقصدها، حتى لا تبرح مكانها بيننا،

ـ .. الكتاب ده حلو، اتسلى فيه وانسي يا "صبحية"..

كل تلك الهجرات المتباعدة التي كنا نقصدها من حين لحين، كانت بالنسبة لي رحلات علاجية مهمة لأمي نفسها، فإن لم تخض مثل تلك السفرات والمشاوير الطويلة؛ قد تموت أمي، ربما تموت في أي لحظة، لو أحست بأنها تقاعست في أداء عمل، قد يدر علينا نحن أولادها راحة ما، أو فرحا، قد تموت، كانت أمي تعالج روحها، أكثر من كونها كانت تعالج إخفاق البنت في الزواج، وكنت أطاوعها، وأرشدها أحيانا إلي "دجال" ما، وأبدي عليه أهمية كاذبة، ومشكوك في صحتها، حتى أقلع على" العارف بالغيب" المقبلين نحوه عبر الماء أو اليابسة، درجة من

الكرامة التي قد توصلنا إلى حل عاجل لهذا القلق، الذي يوشك أن ينهي على الغالية أمي..

في أوقات كثيرة، كانت الكآبة تلكمها، فتطوحها في إحدى زوايا البيت لتعمل بكاء ساخنا، وعديدا مرا يقطّع القلب، في تلك اللحظات المعتمة، كنت أعاجلها بنبأ مبهج، أو أطالعها على تفاصيل مباراة صغيرة لعبتها مع الدنيا، ثم أخيرا وبعد نضال ربحت المباراة، وأخرجت لساني للعالم لأغيظه..

في أحيان كثيرة، وحتى أزيل آثار الحزن من بين ملامحها أقول لها خبرا حلوا يخص بناتها المتزوجات، مثلا بأداء استعراضي، أضع يدي في جيبي، وأخرج الخطاب الذي أرسلته "عواطف" أو "عايدة" وهما في غربتهما البعيدة، أعطيها الخطاب وأنا أفتح لها ملامحي عن آخرها، لألقي في حجرها بسمة صافية، وكثيرا ما كنت أكتب الخطابات بنفسي حتى أصنع سعادة عابرة لها، تلك الأخبار قد تفرد قليلا من ثنايا روحها، لكنها لا تداوى كآبتها تمام المداواة..

الذي يصلح ما أفسده هم "صبحية" هو رحلة ما، أعدها لها بغير اقتناع إلى أحد العرافين الذين بأيديهم الخلاص، هكذا صارت تعتقد أمي في الفترة الأخير، بعد أن خذلتها السماء، ولم تهدها حلا بمقاس المشكلة المزمنة "صبحية"، لذلك كنت أبادر، وأبحث لها عن "دجال" جديد يقدر أن يسكت أوجاع أمي لبعض الوقت، أفضل ما كان يفعله هؤلاء، هو قدرتهم على جعل أمي تنتظر، تنتظر ولا تموت.

ذهبت إلى "الكافورة" ونزعت القميص والبنطال من المسمار

obeikan.com

المدقوق في ساقها العالي، وشرعت في ارتدائهما، وضعت رأسي تحت الصنبور، وفتحت هديرا من الماء البارد البشوش، وأحس رأسي أخيرا برأفة الدنيا وهي تدافع عنا ضد هذا الحر الشديد..

وأنا أجفف شعري، كنت أرنو إلى أمي مطيعا، مازالت واقفة بقرب باب البيت وتعجلها يفوق سخونة الجو، ولهفة الانتظار تتقد في بؤبؤ العين، كان الرنين العشوائي للقطع النقدية، شبيه بقرع جرس تحذيري، ينبهني لضرورة القتال ببسالة في الحرب المقبلة التي تخطط لها الست الوالدة، ولما انقطع قرع طبول الحرب من حولي، أيقنت أنها قد تركتني وانصرفت، كنت منذ لحظة، قد أعطيتها، ظهري لأرد على "الموبايل" الذي طن بموسيقى سريعة، كان الذي يهاتفني في هذا الوقت، هو "محسن راتب" زوج "وداد" شقيقة "مسعود"، اضطررت إلى أن أضغط حواري معه حين سمعت تزييق الباب الخشبي العتيق وهو يقفل صاخبا، وأنا أضع الموبايل في جيب البنطلون، وأرنو ورائي بعجلة، لم أجدها، قبل أن أسّرح شعري، قبل أن أقفل "سوستة" البنطلون انصرفت إلى خارج الحارة محاولا اللحاق بها، وقبل أن ألضم "الأزرار" في ثقوبها بالقميص، كانت قد فتحت الباب وخرجت..

رأيت طرفا من "جرجارها" وهو يدلف إلى حارة أخرى مجاورة، سريعة هذه العجوز حين تبغي الوصول إلى علاج لجرح قديم يؤرقها، كنت أرمح وراءها كطفل صغير أنهكه البكاء على أمه التي عاقبته بمغادرة مباغتة، واضطررت للصياح عليها معترضا وأنا أحشو أطراف القميص إلى داخل البنطلون ولم ترد، ودام عودها ناجحا في أن يشق بين زحام الجبل متسعا، حتى تعبر بسرعة، وانتهيت من شد الحزام

الجلدي بأحكام على وسطي، واستمرت محاولاتي في اللحاق بها وكان زحام البشر يعطلني، إلى أين يذهب كل هذا الجمع في هذا اليوم الجحيمي؟!! و ما تلك النطاعة التي تكسو تصرفات الناس هنا؟!

وهي لم تعتني بي ولم ترسل لي نظرة واحدة إلي الآن، لم تنظر لخلفها مرة..

استني بس يا امه!

...

طيب إحنا رايحين على فين؟!

أمانة يا طبيب ما تعالجني تاني .. دواك عمنـــــول ما شــفــــاني

فات حـول وده العـام التاني .. والقلب لســـه موجوع وبيعاني

هـاتولي مـن الحبيب شـــمة .. ومين غيره يرجعلي الحياة تاني..

(4)

ولما خرجنا من مستشفى "مبارك" العسكري، القائم بطريق "الخزان"، حدث الآتي:

كهكه، ههها ..ها...

الريح بدأت خفيفة، وكنا ندوس فوق أوراق الشجر الناشفة الساقطة على الطريق، وصار لخطواتنا صوت يماثل حفيف ذابل لأوراق شجر تموت، وتوقف "محسن" فجأة ومن حوله الكثير من الأوراق الصغيرة، التي ينبغي أن يداس عليها، كانت الأوراق تستعد بدورها للهرس والتفتت تحت أقدامنا، رياح "أغسطس" الساخنة هبت ضعيفة من حولنا، ثم بدأت تقوى وتنشط، وطار الغبار مقذوفا إلى البعيد المجهول، ومن بعده تحركت أوراق الشجر الجافة، وكأنها محاولة أخيرة منها للبقاء، والخلاص من السحق النهائي، وانتثرت في الأماكن البعيدة سحب صغيرة متفرقة من التراب الثائر، أنه السموم الموسمي والاختناق، في تلك اللحظة، كل من كان دقيقا وصغيرا وخفيفا، ارتفع إلى فوق، فيما عدا المباني الأسمنتية الراسخة، والشوارع والبيوت الحجرية الصغيرة القائمة على الهضبة الصخرية العملاقة التي عن يسارنا، وخلف "المسلة الناقصة"، كل من كان خفيفا كالضوء، وسيالا كالهواء، ورخوا كالبخار، ارتفع وطار لفوق، وركب فوق الفضاء، الرياح التي اشتدت،

obeikan.com

وحملت معها أشياء كثيرة، هي في الحقيقة تركتني أنا ومحسن، ورسونا فوق الأرض بغير ارتفاع، وصرنا مستقرين في أماكننا، مثلنا مثل البيوت والشوارع والدكاكين وأعمدة الإنارة والعمارات البعيدة..

وبعد نوبة من الضحك المرتفع، جاء صمته تدريجيا، ثم سكن تماما كليلة باردة، وتوقف عند شجرة "الجزورين" الكبيرة، وحاصرتنا الرياح النشطة وبدأت في مشاكستنا بعنف، تهدأ قليلا ثم تعصف وتضربنا بكائناتها الصغيرة، وتعمي عيوننا بذرات التراب، مسحت عيني وحدقت فيه لأرى وجهه المشرف على الأربعين، كان مستندا بيده على جزع الشجرة، وينظر إلى الأمام بعمق، كانت قسماته قد عادت لجديتها المعهودة، وزوايا وجهه، محشوة بعلامات حيادية لا تحمل تعبيرا محددا، حدجته مصرا أن أجد أسباب الفرح العارم، الذي هز أركانه منذ لحظات، لكنني وجدته يعود من جديد لأمره العادي الذي عهدته به وألفته، أصبح فترة من صمت ومساحة كبيرة من السكون..

وجهه تكدست فوقه تعابير غير منحازة لشيء، وكأن الدوي الفوضوي الضاحك الذي وقع منه، كان لشخص آخر غيره، لم أره يضحك بمثل هذا الأداء الهستيري من قبل، رنوت للبعيد مرتبكا، محتارا وتغلغلت في مساحات الفراغ الأمامي، وبلا سبب واضح حككت جبهتي بأطراف أصابعي، كنت أحاول أن أختبئ وراء أشياء صغيرة تافهة، طبقت جريدة "المساء" التي كنت ممسكا بها وضربت بها الفراغ ضربات متتالية غير مبررة، ربما كنت أقاتل فورات الغبار الناهض أمامي وأطارد الريح، فركت كفي ببعضهما البعض لأطرد منهما الوسخ الخفيف الذي بدأ يدخلني بإلحاح، بعد قليل ضبطت ياقة قميصي ورفعتها قليلا، لتغطي

أكبر مساحة ممكنة من عنقي المتألم دائما بفعل الهواء الساخن أو البارد، بعد قليل بحثت في جيب "البنطلون" عن ثقاب..

أشعل الثقاب وأسرع، وأكور فوقه كوخا صغيرا من اللحم، ومع ذلك يسبقني الهواء الثائر ويتسلل من بين أصابعي ويدخل ويطفئ النور والنار، ثقاب يطفأ تلو ثقاب، وأخيرا غلبت الطبيعة بحيلتي وأشعلت السيجارة، كنت أتجنب في تلك الأثناء أن أقابل عينيه، كان الشارع يعاني من عزلة ما، وغير مهيأ لأحد غيرنا نحن الاثنين، وممتدا إلى البعيد كمشوار لا أرغب في إكماله، والريح مازلت تشاغب الرصيف وتكنس ورق الشجر الجاف الساقط أسفل سيقان "الجزورين" الشامخ المتراص على جانبي الطوار، وكان الليل كبيرا وقابعا في الأفق كقدر محتوم، والعتمة الخشنة تضفي على النفس وحشة وشيئا من قلق..

وعادت أربعة أقدام متمهلة تضرب الأرض بتراخ، وتصنع إيقاعا مرتجلا، كنت قد أوشكت على الانفصال عنه تماماً، كان قد ضحك بمهارة ثم أردف صامتا، لكنني عدت أرمقه بإمعان لأحدد قراري بشأنه، ولمعرفتي بشخصه وميله لطي ما يخصه وتطبيقه، ووضعه في مأمن بعيدا عن عيون الآخرين، قلت في سري لن أسأله، ولن ابتذل فضولي الشخصي أمامه، ولن أدع لأسئلتي أن تطيش، ولا تجد مرمى محددا لتسكن فيه، لأنتظر بضع دقائق ليأتيني لوحده، وبدون أي استجداء مني، عدت أرنو إليه لأحثه على الكلام بخصوص نافورة الضحك التي فجرها في عرض الشارع، فعاد ومدني من جديد بذهول كاسح أطاح بالقليل الباقي من تماسكي.. ما هذا؟!!

هناك دمع نقي يكافح كي لا يترك مكانه وينزل إلى تحت، كان قد

obeikan.com

تنازل عن حياديته السابقة، ورمى بألوان من التأثر العميق والمرارة فوق وجهه المزدحم بتجاعيد وثنايا تبالغ في تحديد عمره الحقيقي، كنا قد تجاوزنا مبنى "شرطة النجدة" بمسافة، وعلى وشك أن ننهي "الجبانة الفاطمية" العريقة الشاخصة بقبابها الطينية المتصدعة، فوق الربوة المرتفعة، وأشرفنا على الاقتراب من "المسلة الناقصة"، المحاطة بأسوار حديدية عالية، وكانت صخور الجرانيت متناثرة على جانبي الطريق كحيوانات خرافية متحجرة..

وكان قد بدأ يبكي بصراحة موجعة هزتني، رأيت الدفق الدمعي الصريح ينهمر من جوفه بغزارة، ويرتطم برقة بوجنتيه، ولم يدس بعيدا عني هذا الأسى الكبير، ولم يتعمد، كفكفت دمعه المنساب كنزف من جرح قاطع، وكأنه أراد أن يريني بكاءه أيضا، كان يبكي بنفس الإتقان الذي قهقه به منذ قليل، من بواعث الصدمة التي وضعني فيها "محسن راتب" بفعليه المتناقضين، وجدتني أمد خطاي لأتعداه وأسبقه إلى ما لا أدري، وكأني أريد أن أتبرأ منه في تلك اللحظة، أو أريد أن أعلن للقلائل الذين بدأوا يعتدون على سكنة الشارع، أن هذا الشخص الذي صار صريحا أمامي إلى حدود البكاء لم يعد يخصني، أو يمت لي بعلاقة، لكنني بعد برهة توقفت نادما عن الشروع في الهرب، ولففت بجسمي ونظرت إليه وصرت في مرمى الريح التي تهيجت من جديد، فرأيت بدنه الطويل النحيف وهو مازال يشهق ويهتز، كانت المسافة قد فصلت بيننا، رحت إليه خفيفا وطائرا كغبار، كان يرتج من فرط البكاء وشهيقه العالي يصدح في صمت المكان، وينافس صياح الرياح السريعة التي تعتدي علينا برعونة وهي تجري مجنونة حولنا..

obeikan.com

وقفت حائرا، وللحظات فكرت في أن أشاركه البكاء، وكلما ارتفع نواح صاحبي إلى حدوده القصوى، كانت الرغبة تعلو وتدمدم بداخلي، يجب أن أبكي مثله، وللحظات أيضا فكرت، وقلت لنفسي: "وهل من اللائق البكاء في الطريق العام"، وفي طقس سيئ كهذا، حقيقة كنت أريد مقاسمته في كل هذا الحزن الذي جاء، ولم أقدر، وأستمر ثباتي وسكوني تجاه ما يحدث، بمثابة فضيحة أخرى محيرة، وكان مطر خفيف قد بدأ يغسل وجوهنا بلطف..

obeikan.com

(5)

.. كانت لكمات قوية تتجه لمكانها في جسد ما لا أعرفه، و صياح وقتال، وسباب وصراخ نسوة ملتاعة، وصوت "نادية" القوي الغاضب يعلو فوق الجميع، وخبطات نبابيت غليظة ببعضها، وتأوهات مفجعة أطلقتها في الفضاء مرارة الألم، وثقل الشعور بالهزيمة، ثم صفير سيارة الشرطة أعطى نكسة متساوية للجميع، وصمتا قريبا من معنى الفرار..

وظل صوت "نادية" البيضاء كلبن حليب، يرفرف شاكيا لمن أتوا بصلصلة أسلحتهم الميري..

.. كان أحد فتيان الجبل الفالتين، قد مس مكان العفة في ابنتها الوحيدة وهي تقضي شأنا بالشارع القريب من حارتنا، كانت البنت الصغيرة قد كبرت وفارت أنوثتها البكر، ورمت للجائعين رمانتين بمقدار اشتهاء ذكري كبير، ولأن أباها رجل طيب ومسافر في الخريطة العربية المبتلة بالنفط، أعتقد شرذمة من المحتاجين والمصابين بورم جنسي فادح، أن تلك البنت بلا "دية" ويمكنهم أن يستعملوها كعلاج سريع لحالتهم الملتهبة، وبغير كلفة، داموا يشاغلونها كي ترضى، ويبدو أن أحدهم استطال به شعور الرغبة إلى منتهاه، فبادر بمحاولة تذوقها وأكلها، حتى يهمد في أنسجته الاحتقان، ويفش الورم الجنسي المزمن، فمد ما قدر من لحم ومس عفتها في غفلة من زحام "الحكروب"، لكن البنت

البكر أسرعت برعونة سن المراهقة العصبي، ونشرت فضيحته في الجبل، بقدر قد يتجاوز فعلته ذاتها..

بعد فرار الجاني، وذهاب أفراد الشرطة إلى حال سبيلهم، قالت نادية: إنها ترفض أن ينظر أي أحد إليها أو إلى ابنتها، وكأنهما لحم سائب، وليس له أصحاب، وقالت: إنها ليست لقمة سائغة..

ثم قالت بإحساس من شبع ماديا، إنها سوف تربي الجميع في "الحكروب"، وكله بفلوسها..

أمها (نادية) المرأة المجربة والعارفة لمكر الرجال، وهبلهم الجنسي في ذات الوقت، قامت بدورها كأم تكافح باستماتة من أجل الحفاظ على شرف ابنتها، ولأنها صارت خبرة في مجال الرجال بالذات، لغياب زوجها الدائم، أحسنت التصرف، وأشبكت خيوط العائلات ببعضها، واستطاعت أن تجعل فريقا من المارة والجيران القريبين من بيتنا أن ينحازوا لقضية الشرف المراق، الخاص بها وبابنتها، ثم كانت الطامة الأكبر حين استعانت بمن هم أهل لمثل تلك المواقف، فقد أسرعت وأرسلت استغاثتها ومبلغا محترما من المال، إلى ساكني هامش الجبل من العواطلية ومروجي البانجو والحشيش والبرشام المخدر، وكل من كان قلبه ميتا ولا يخشى لومة لائم، ولا يخضع لأي عرف يحتكم إليه الناس..

..وتوالت الأحداث، وبالفعل تعاطف مع "نادية" وابنتها، رجال مأجورون مخصصون لمثل تلك المواقف، أتوا من علياء "الحكروب"، مدفوعين بصرخات الأم وبنقودها الوفيرة، ليجدوا في نهاية الأمر

هماً ما يشغلهم، ويبدد القلق الوجودي القاسي الذي يجابههم، وهم قابعين في كهوف الجبل المهجورة، هم بالأحرى وجدوا أخيرا حدثًا ما يدافعون به عن أنفسهم، ويوفر لهم القليل من أكواب الشاي وصواني الغداء، التي من الضروري سوف تخرج إليهم من بيت من استجار بهم، أو تقبل اشتراكهم في التصدي للمارقين جنسيا، وها هم سوف يتركون الغرز الرخيصة وكهوف الجبل المعتمة، التي يلبدون بها، لبعض الوقت هربا من تعقب المخبرين لهم، إن مثل تلك المواقف بالنسبة لهم، تعد ترفيها مدفوع الأجر، وحفلة خروج لأمر الواقع، ومعاشرة جديدة مع جسم الحياة الطري الذي حرموا منه لظروف خاصة، وعودة حميدة إلى ذاكرة "الحكروب"، بعد أن تم حذفهم من حسبان الأهالي طوال فترة تغيبهم، هم أيضا وبمثل هذا النوع من الخروج، يراوغون الجهات الحكومية التي تجاهلتهم بعض الوقت، بعد أن طاردتهم، وأرجعتهم إلى الحدود الآمنة، فها هي حادثة شرف "سوسن" ابنة "نادية"، تعد مناسبة جيدة، ليقولوا لأفراد الحكومة من المرشدين والمخبرين، إنهم هنا ولم يبرحوا الجبل بعد، وأنهم سيظلون على قلوبهم مثل الهم الثقيل..

واكتمل فريق ضد فريق، وانبلج فوق أرض الواقع أمر عبثي كارثي، وتّر حال "جبل الحكروب"، وأقلق من راحة الناس، واستمر ذلك لأيام مرت فوقنا ببطء، وساهم ذلك في قطع أرزاق البعض، بعد أن أصبح الخروج من البيوت بمثابة مخاطرة غير مأمونة الجوانب..

وهذا الأمر الذي وقع ساعد البعض في إخراج حصص من الكبت الغضبي الماكث في الصدور، والذي له أسباب كثيرة أخرى، غير

السبب المعلن الذي من أجله نشب هذا الشجار الدامي، كنت أخرج في الليل أو في النهار، فأجد الرجال متربصين لبعضهم، في الزوايا والنواصي، وبأيديهم العصي الغليظة و"السنج"، كلٌ يريد تكسير عظام الآخر، الجميع يريدون الثأر، وإثبات قدرتهم وبطشهم علي الآخرين..

كان بعضهم يوقفني مثل عسكري نظامي، ويسألني عن اسمي ومحل سكني، ثم يطلقني بعد أن يتأكد من أنني لا أمثل خطرا على دولته، كانوا يطلقونني بعد أن يستولوا على كل ما أملك من دخان وثقاب..

في ظلام اليوم الثاني، ذهب أحد الأشخاص إلى قسم العناية المركزة بالمستشفى العام، وهو مصاب بكسر في الجمجمة، وإلى الآن لم يستدل عن حقيقة شخصيته، أو إلى أي من الفريقين كان ينضم..

في نهار اليوم الثالث ذهب شخص آخر غريب إلى قسم العظام، كان الرجل في زيارة إلى أحد أقربائه بالجبل فتلقى الخبطة الغادرة..

كانت "نادية" وابنتها "سوسن" قد خرجتا من الموضوع من زمان، بعد أن تطرق النزاع إلى تفريعات أخرى قديمة لها جذور عدائية، بين بعض العائلات التي ينتمي بعضها إلى أصول عشائرية مختلفة، وما كانت حادثة الشرف تلك، إلا حجة هزلية، لتفجير تلك التقيحات المزمنة، بين تلك العائلات وبعضها البعض، وانفتحت قنوات الدم، وزأر شيطان الغضب في الجميع، وعمت فوضى في "الحكروب" أثرت على تداعيات الحياة اليومية الفقيرة فيه.

جاء الرجال "الميري" الضخام، ثانية، واستشرى المخبرون الصارمون في الزوايا والنواصي، وتبادلوا الأماكن مع عتاة الجبل

الذين ظلوا يفزعوننا لأربعة أيام بلياليهم، أولئك فروا إلى النتوءات الصخرية البعيدة، وهؤلاء استلموا المهمة بدلا منهم، واستمر الفزع دسما في الحالتين ولم ينقص، بل كان أكثر فجورا، وأثناء خروجي القهري لقضاء الحاجات الملحة ليّ ولبيتنا، ظللت أتعرقل بالعسكر والمخبرين، وظللت أفقد الكثير من سجائري وكرامتي، كانوا برفق وثقة، يأخذون الدخان والبطاقة الشخصية من جيبي، ويعطونني القليل من الشتائم، وكنت أستكين مسالما أمام هجمات هزارهم الثقيل.

لكن الحق أقول، فبعد أن بسطت الحكومة سلطانها الغاشم في المكان، تراجع المأجورون من اللصوص وقطاع الطرق الذين استغلوا الموقف لمآرب أخرى، وتراخت ثورة النعرة العشائرية الباهظة التكاليف، والتي تفشت بين عائلة وأخرى، كان الجميع قد استندوا مجبرين إلى هدنة غير معلنة، انتظارا لمناسبة جديدة يظهرون فيها بأسهم، وشدة شكيمتهم ضد الآخر..

في ذهابي الحذر ومرواحي غير الآمن، كنت أرى الخصمين، عراة حفاة، يمصهم الهزال، يكافحون ليصمدوا أمام بعضهم، جميعهم متساوٍ في كل شيء، كل من الفريقين لا يزيد على الآخر أو يقل في شيء، نفس الأعواد النحيفة والنظرات الزائغة، التي ترمي من أعماقها شرا دفينا وغضبا، هي هي ذات الأجسام المريضة التي تلوح منها أصداء البلهارسيا، والتهاب الكبد الوبائي، والسكري، وغيرها من الأمراض المزمنة والمستوطنة لأجسادهم الفقيرة، نفس الأحداق التي تضرب غريمها بعنف، كانت في ذات الوقت، تدلق على الأرض بغزارة، ذلك الجهل الوحشي والمرض الكبير، والعداء المبالغ فيه..

وكانوا يتعاملون مع الموقف الهزلي بمنتهى الوفاء، وكأن جميع آلامهم الجسدية والنفسية سوف تزول وتنتهي حين يسفكون دم الفريق الآخر، ويكسرون شوكته..

وتوالي صراخ سيارات الشرطة، وراح يتردد في تجاويف الأزقة، ونفذ من الشبابيك الضيقة صدى النفير القاسي المدمدم، وغطت البيوت الطينية الواطئة سحابة كثيفة من الخوف العفي، هنا اضطر أن يميل الجبل إلى أن يكون مسالما لبعض الوقت، حتى يتاح له أن يدفع عن نفسه أي شبهة بالمشاغبة، أو الإخلال بالأمن والسلم..

وكل ذلك كان قد أيقظني من نومي، كنت أنظر إلى الكتب المتراصة على الترابيزة بغير ترتيب، وأنا أكاد أجزم بأنني سوف أقرأ ذلك الكتاب الذي يبرز من بين جميع الكتب، ورنوت بعمق إلى الحوائط المطلية بالجير اللبني الفاتح، كانت هناك أشكال شبحية مجهولة على الحيطان، خلفها سقوط رقع كبيرة من الطلاء، وتلك الأشكال المبهمة تحتاج مني لطول تفكير، حتى استنبط ماذا تكون، عربات، أم طائرات، أم بشر، أم لحيوانات بدائية متوثبة للقنص القادم، وكان يجب عليّ أن انتهي من "لوحة" صلاح الأخيرة، والتي جمعني فيها مع "هالة" في مشهد غريب..

وتلك اللوحة المعلقة علي الجدار، قبالة سريري بالضبط، تمثل وجبة إفطاري الأولى، وسيجارة الصباح المهمة، وكوب الشاي الممزوج بنعناع أمي، حين أصحو من نومي ليلا أو صباحا، تكون تلك اللوحة الزيتية، أول شيء يقابلني في هذه الدنيا، فأضطر لمناقشتها، والدخول معها في حوار استمر لسنين وسنين، زمن طويل مر، وأنا غارق في هذا

الفعل، ما هذا الملل؟!! وما تلك الكفاءة التي أتقنها "صلاح" حين رسم لي ولهالة ذلك المشهد الغامض، والذي ظل يوقعني في التكرار لمدة طويلة!! وإلى متى سأظل مؤمنا بأشياء لا تضر ولا تنفع!! متى أشارك أصنامي القديمة، آلهة أخرى جديدة؟!

في فترة الكسل التي تعقب اليقظة تماما، أظل ممددا على الفراش، وأنا أحدق في اللوحة المستطيلة، محاولا الوصول لفهم محدد لتلك الألوان التي وضعها "صلاح" على المساحات، وكنت من خلالها أيضا أستدعي حقبة من الزمن الذي انصرم، وحين أضل في مجموعة من الخيارات التفسيرية، وحين يغضبني الماضي بجهامته، اتجه وأنا مازلت مستلقيا على السرير، إلى الحيطان، وأخوض معها في جدال، ثم أتطرق وئيدا إلى بقية محتويات الغرفة، كنت على وشك أن أقوم لأمزقها لأتخلص من بقعة غامقة في تاريخي الخصوصي، لكن المعمعة الخارجية ردتني إلى العالم مرة أخرى، ومنعتني من إتمام رغبتي.. هأ، وكم من مرة حاولت سابقا ولم أقدر، كنت أقول في نفسي: "سامحني يا أبو صلاح"، أو أقول مثلا: "متأخذنيش يا صلاح الله يرحمك"، ثم أرتد خاشعا من قدام اللوحة ولا أفعل، ولا أخدشها حتى!!، وأجلس أمامها على حافة السرير، وأجول من جديد في غيبها، وكأنها صارت تميمتي المقدسة، وكأنها صارت مصيري الذي لا فكاك منه..

وسمعت دبدبة أقدام عنيفة، تسرع في الاتجاهات المفتوحة للفرار، بعد برهة عم هدوء يخل من توازنه وقيامه في المكان، مخلفات المعركة التي جرت، كان أنينا متقطعا، وولولة، ونهنهة تحاول أن تبرز لرجال "الحكومة"، الذين أتوا فجأة، مدى الظلم الذي وقع عليهم، من

oberkan.com

الطرف المعتدي، وكم هم أشخاص صالحون، ولا يجيدون فعل شيء، غير أن يكونوا ضحايا طيبين، يبحثون عن نصر يمنحه لهم أحد ما، إنهم فقط يدافعون عن شرف بنت، عائلها الوحيد غائب في متاهة لقمة العيش..

وبمكر الفقراء، هم لن يعلنوا بالطبع عن نجاحهم في خلط الأوراق ببعضها، وتوفيقهم في جعل موضوع شرف البنت "سوسن" ذريعة لإخراج أحقادهم القديمة ضد بعضهم البعض، ونيتهم الجديدة في الثأر من غريمهم وعائلته بعد انصراف الجند، أو في الليل المقبل علي أقصى تقدير، هم الآن مهتمون فقط بالتمثيل على الحكومة واستغفال رجالها، وإظهار كم هم غلابة، وضحايا لطفاء، في الحقيقة أنا أعرفهم أكثر من الحكومة، هم لن يفشوا سرهم الذي سوف يفعلونه بعد سويعات قليلة..

فأولئك الذين انكسرت شوكتهم من بأس الفريق المعتدي، لن يرشدوا "البوليس" عن أماكن أو بيوت الذين اعتدوا عليهم، وكسروا عظامهم وأدموهم، ولن يخبروا الشرطة أيضا بأنهم قبل منتصف ليل اليوم على الأكثر، سوف يكونون في طريقهم إلى الثأر من خصومهم، لتدور عجلة العنف بسرعة، وتفتح مسافات من الدم بأثمان بخسة لدرجة الفجيعة، لتنتشر مزارات العداء والتربص في "الجبل"..

..والذي يحب ألا يشتري، عليه ألا يتفرج حتى لا يتورط في خيوط العنكبوت، والذي يعرف شيئا ما، عليه أن يسكت ليأمن على عياله وأهل بيته، على الجميع إفساح المجال لتدور رحى الحرب براحتها وتأخذ مداها البعيد، ليشمخ ويرتفع في الأعالي، جبل آخر عملاق يتجاوز

جبل "الحكروب" في ارتفاعه وضخامته واضطرابه المناخي وجبروته الصخري القاسي.

obeikan.com

(6)

اللّه أكبر.. اللّه أكبر..

اثنان يسكتان ضجيج الجبل إلى حد يتجسد فيه الهدوء، ويرمي بملامح نقية على وجوه العباد هنا في "الحكروب"..

اثنان يستطيعان أن يطعنا الصخب النهاري في مقتل لتقل حمرة التعب والعنف وتصل إلى الاصفرار المرضي..

اثنان، لا ثالث لهما، يقدران على إيقاف ملهاة بحجم شجن طري، وألم عنيد، إنه ألم يشبه أيام بلهاء تكر بلا داعٍ، وبلا مقابل..

اثنان يمكنهما أن يمنعا حرائق قد تكون قيد الاشتعال، أو يؤكدان حصول خير بخيل، تبدى في طوره الأول..

اثنان يمكنهما بمحض الصدفة، أو القصد، أن يجعلا كفا لا تتراجع نادمة عن فعل سلام كاد أن يتم، وأيضا قد يمنعان بمحض الصدفة، أو القصد، شرا تخمر في الصدور وأوشك على الفقس الكامل، ليرمي بكائنه الشائه بين ربوع الناس..

...اثنان ...

...اثنان فقط ...

obeikan.com

هما، اللّه العالي فوق السماء، وقت أن يفرش صوته الصارخ في برية الأرض، مناديا بالصلاة..

وعربات الشرطة حين تأتي مدمدمة وتخصم المسافات من شوارع و حواري الجبل الضيقة، وتتعقب الأبرياء والطغاة منا، وتنثر في الكهوف والصخور والخرابات المهجورة والنواصي والغرز الرخيصة، العساكر والمخبرين الغلاظ المدربين علي الإمساك برؤوس الأفاعي، وركل رؤوس الحملان كذلك..

...اثنان يبدلان فعليا، ولفترة وجيزة، من أمور الجبل ..

(1) صفارات عربات الشرطة العنيفة المباغتة..

(2) صياح اللّه في أوقاته المعلومة ليتذكر الناس اسمه فتهدأ نفوسهم..

..وكثيرا ما نظلم من رقم واحد (ضباط ومرشدين، ومخبرين، و"صولات" وعساكر الشرطة)، ونكون مجرد تنفيس لشرور وغوايات مريضة تعمل في صدور كل هؤلاء، أو نكون نحن بالنسبة لهم محاولة أولى، لترميم انهيار أمني، حدث في مكان ما بعيد، فيأتون بوفودهم الشرسة ويعتدون على عالمنا السري وخصوصياتنا، ويستمرون في قهرنا حتى يعثروا بيننا على أخبار ترشدهم على المتطرف الديني، أو اللص، أو القاتل الذي فعل فعلته..

وفي أحيان كثيرة نكون مجرد طريق خاطئ مشى فيه كل هؤلاء الجبارين، في حين يكون الجناة الحقيقيون الذين هزموا الحرص الأمني العتيد، بعيدين كل البعد عن منطقتنا، ونحن لسنا إلا مجرد وهم، وهوس وكره

واحتقار عشش في رأس الحكومة تجاهنا، لذلك هم شقوا طرقا جديدة في حنايا الجبل "مسفلتة" ومعبدة لاختراقات عرباتهم، الفجائية، في حين كانوا قد أوهمونا في مناسبات سابقة بأنهم صاروا يفعلون ذلك كله من أجلنا، ومن أجل المصلحة الأمنية العامة، ومن أجل – أيضا- المشروع الألماني، الذي أقاموه على سن الجبل ولا نعرف إلى الآن، إلى ماذا يهدف، ولم يرتده أحد منا، إلا الموظفون الكبار، لحظة أن يكون هناك زائر مهم في فسحة بالمدينة..

نحن دائما ما نكون الاتجاه الأول، لشكوك ورغبات الافتراء، لكل من يسعى لتحقيق تواجد ما، بدءًا من الشرطة ونهايةً بالمشاريع التجريبية الفاشلة المقبلة كمنح زهيدة، من دول غربية تتملق الناس الكبيرة الذين يجلسون هناك، هناك في الأعالي، وأيضا مسموح بانتهاكنا، حتى من الذين يرغبون في الطفو فوق سطح المستنقع السياسي، فهم يبدأون حملاتهم الانتخابية من عندنا، ليستمر عطاؤهم الشحيح للناس لأيام، إلى أن ينتهي المولد الانتخابي، ثم ينصرفون وما لبثوا أن نسوا كل وعودهم، واكتفوا فقط ببعض خرفان وعجول قد نحرت، وموائد نصبت للجائعين، وكان الناس في "الحكروب" يقبلون تلك التمثيليات وفق كمية القماش واللحم اللذين سوف يحصلون عليهما، فكلما كانت أمتار قماش الكستور، والدبلان معقولة الطول، وكلما كانت لفائف اللحم النيئ تكفي لتوزيع جرامات قليلة على جميع أفراد الأسرة، كلما كان باب التنازل واسعا ويقبل مزيدا من مرور الخنوع الجماعي..

ويستمر الرب بيننا، كرقم لا نهائي، ومطلق غير محدود في مخيلة وأفئدة الكل هنا، وقبلة للجميع وسند وعزة وعزوة لكل من قال يا رب،

الله يظل بالنسبة لهذا الجمع الغفير بالجبل، أقوى من عربات الشرطة، وأقوى من كل الناس الكبار المتأنقين بالعطور النفاذة، وبأقمشة غالية مستوردة، هو رقم تنمحي منه المعاني الحسابية المتعارف عليها، وقد يتأخر مثوله حينا، وحينا آخر قد يسبق كل الأعداد، لكنه موجود في أغوارهم السحيقة، برغم كل شرورهم الكبيرة والصغيرة التي يصنعونها ضد بعضهم البعض، موجود كخلاص لكل هؤلاء..

الناس هنا يعرفون أنهم مجرد دجاج مشاكس في حظيرة الرب، خراف ضالة، يسعى الراعي الصالح إلى ضمها لحظيرة انتباهه وحرصه، إلههم حي وموجود، موجود كأمراضهم المزمنة وأحلامهم المؤجلة، وأوجاعهم الطرية كنضوج دائم، ومقاتلاتهم من أجل أن يستمروا ليوم جديد في هذه الدنيا، موجود كانتظار أبدي لا ينمحي من جباههم المعروقة، الرب موجود كعلاقة ملتبسة غامضة، فيما بينهم وبين أنفسهم، موجود وقائم كصوت حي، أعظم من صوت "سارينة" سيارة الشرطة وهي تذبح هدأة الليل، وتهزهم بالفزع اللئيم..

الله موجود كنصل لم يستطع اختراق حياة أحدهم، وهو يدلف مسالما إلى بيته، ليربي عياله الصغار، أو كصوت أذان انهمر مدويا فوق جهامة يوم كئيب، يمر بمهل، أو مثل جرس كنيسة "مار مرقس"، بالسيل الريفي، وهو يضرب بطناته النحاسية القوية، فوق كل شخص يتردد في أن يصنع خيرا لأحد، الله هنا متعاون معنا، وودود ومنتظر لتوبة يجب أن تحصل..

لكن يظل القليل من الجبارين منا لحد الصمم، لا يستمعون لصوت الله الصارخ في البرية، ولا يستمعون كذلك لصراخ الحديد الأمني

القادم بصرامة لإفشائنا والقبض على أرواحنا، فنؤرق ونعذب نحن بأفعالهم، ويستمرون هم هاربين في المساحات المباعدة بينهم وبين إمكانية صيدهم، فتمرق أفعالهم بيننا وترطمنا بالأذى.

حتما هم الجبارون، يفلتون من أيدي المخبرين النظاميين الأشداء، لكنهم باليقين لا يهربون من أمام عين الرب الواسعة، حتما.

obeikan.com

(7)

(لديك رسالة)

(عيب كده يا جمال.. ده جزاتي يعني.. يا ريت تكلمني.. جرجس، 12/9/ 1999)

..في البدء رأيتها من ظهرها، فأعجبني صلاح جسمها، ولأول مرة منذ فترة طويلة، أشعر باستثارة الحواس، وشعرها يميل إلى الإصفرار، وأنيقة، ولها ساقان أبيضان مفتريان بطغيان الأنوثة، كانت نازلة إلى سفح الحكروب، بحذائها المدبب العالي، بتأنٍ وحرص، رأيتها في الشارع العمومي الذي تم توسيعه مؤخرا كإجراءٍ أمني، كنت لأول مرة أراها، وتفجر من حولها هالة من شذا البارفان الغالي..

وأنا سائر خلفها مصادفة، كانت نكهة الماكياج تأتينني وتسخنني برغبة قديمة، كانت تسير ببعض القلق في الشارع العمومي المنحدر بحدة إلى أسفل الجبل، والعيون من حولها تنفتح مبحلقة وتتمازج فيها الدهشة والإعجاب والاستنكار، كانت ترتدي آخر موضة من الملابس، وكل حين تلف برأسها، وتلقي بشعرها الناعم إلى الوراء بحركة سريعة تغري من يراها، وبعض النساء الباركات فوق عتبات بيوتهن وتراقبن الخارج، كن قد فوجئن بها، كن قد رأين صنفا آخر من النساء غيرهن، كن يلوين شفاههن تبرما، وكأنهن يعترضن على كل هذا

obeikan.com

التبرج والجمال، ويمصمصن شفاههن بحذلقة من تعتقد أنها بتلك الحشمة تتحصن من غدر الذكور الهائجة والأيام الفالتة، كن يدارين حسرة، وخيبة أمل، كن يزيفن هزيمتهن، واشتهاءهن، بأن يصبحن تلك السيدة الأنيقة السائرة أمامي تماما في تلك اللحظة، كانت تسكن مع أسرتها في واحدة من تلك العمارات الجديدة، التي تناثرت في ربوع "جبل الحكروب"، لم تكن تبعد كثيرا عن سفح الجبل، ثلاث دقائق وتكون أمام شارع "السماد" الممتد بجوار ترعة "كيما" وواصلا إلى آخر البلاد، كان اسمها "بسمة"، وأبوها اسمه(أنسي جريس عبد الملاك..) كان رجلا مهما في الحكومة، أحالوه إلى "المعاش" قبل ميعاده بسنتين، ذبحوه مبكرا (كما حكى لي فيما بعد) لأنه استقصى عن مسائل لا تخصه، ووقف حجر عثرة ضد فساد ما كان يتم في أروقة المصلحة المهمة التي كان يديرها، خيروه بين ثلاث.. الرفت.. الاستقالة.. الإحالة إلى "المعاش"، طبخوا المؤامرة جيدا، انضجوا الغدر على نار هادئة ثم ساوموه..

في المرة الثانية كنت نازلا من فوق، ومقبلا على ميدان الحنفية القديم، ذلك المكان الذي ينهل منه نصف سكان الجبل ما يحتاجونه من ماء لعدم وجود ماء جارٍ في منازلهم الفقيرة، وكانت هي تعبر الترعة، فوق الكوبري الخراساني الضيق تقابلنا، وجمعتنا مسافة قصيرة، منحتني فرصة كافية لمطابقة ظهرها الذي شاهدته سابقا، مع كل الجسد الأمامي، الاثنان، الخلف والأمام ركبا على بعضهما تماما، وكانت تضع ماكياجا خفيفا يؤطر ملامح وجهها الدقيق الحلو، وصدرها عالٍ وفتي، وبيضاء تماما مثل نادية زوجة عبد الكريم، وشهية حين تفكر

فيها كأنثى خاصة بك، ولم تعرني اهتماما، وعدت من جانبي كموجة باردة في هذا الحر الخانق، وتماسكت ولم أبد أي تأثر، وتركتها تروح في حالها، وأنا فرح بهذا الألق والجمال الهادئ الذي دخل في حنايا الجبل، تركتها تمر بسلام لتتركني بمفردي أرد عني جيشا من الحسرة والشعور بالتضاؤل والفقد.

في المرة الثالثة كلمتها وكلمتني وحدث احتكاك دافئ، شغلني لأيام مقبلة، ومسد عليّ أوجاع الروح والجسد وطيبها، لم أتعلق بها، لم أحبها، لم أتمناها، لكنني فرحت بها، فرحت جدا، فرحت وبعد مدة نسيت الموضوع..

كانت تسير صاعدة، ومن وراءها أسطول من عربات الكارو، تنحت جانبا ودعت مساحة كافية لمرور العربات بحميرها المتعبة، العربة الأولى والثانية مرتا بسلام، لكن "عربجي" العربة الأخيرة تلكأ متحرشا بها، ومن هو أمام هذا الوثوق الأنثوي الجميل!!، وما هو إشباعه حتى يستطيع أن يحتمل هذا الارتواء النسوي الرائع!!، ووجه إليها معاكسته، وكأنه يطاردها، وكأنه يستطيع بخيبته تلك، أن يجاري دفعة حية من الدلال المحترم، وضبط خطوات حماره مع خطوات الست الرائعة التي تضايقت ونهرته بشجاعة..

إيه يا بتاع أنت!!

ولم أسرع لإنقاذها، بل أسرعت إلى محاولة تأخير فقط، محاولة تأخير، قبل أن تتعجل وتكره الحكروب، قبل أن تتعجل وتبادر وتفكر في مغادرتنا، أو تأخذ قرارا صارما تجاه الجبل وأهله، وكنت أعرف

obeikan.com

هذا الهامشي الساذج، وأعرف خاله الذي يبيع حزم البرسيم في "الشادر"، وبقرب مدرسة "الإمام علي"، زعقت فيه، وحتى أتجنب قلة أدبه، أسرعت وذكرت له اسم خاله "إسماعيل" حتى يفطن إلى أنني أعرفه جيدا، وفي إمكاني تصعيّد الموضوع، عندها انكمش الشر الذي كان يعده لي، وتراخت ملامح وجهه، وكذلك أرخى اللجام للحمار، وضربه بالعصا ضربة قاصمة، فانتفضت عربة الكارو مصدرة تذييقا حادا، وأسرعت إلى فوق شاقة طريقا وعرا إلى قمة الجبل..

- إيه يا جدع أنت ده، مش تخليك مؤدب؟!!

- ....؟!!

- أنت مش خالك إسماعيل بتاع البرسيم؟!!

- شكرا يا أستاذ..

.. شكرتني بأدب وتحفظ، ولم أتكلم كنت محرجا ومرتبكا، أشرت لها بيدي لتسير بمقربة مني، نويت أن أكون حارسها الشخصي لأحافظ عليها من لغط "الحكروب" وخشونته، وبعد تردد منها قبلت على مضض، ومشينا معا، كنت أخشى أن يكون الشاب الحكروبي، مركونا في إحدى زوايا الطريق ليستأنف مضايقته لها، وكنت أنظر إلى الأرض محاولا أن أثبت لها نزاهتي، وخوفي عليها كأخت لنا في "الحكروب"، كنت أعمل على كشط أي ملمح سيئ، تسلل إلى مخيلتها، كنت تقريبا أرحب بالضيوف الجدد الذين بدأوا يرتادون "الحكروب"، وهم بداخلهم هذا التوجس عنا، وسرت بجانبها فرحا، من زمان يا رب لم أمشِ مع امرأة، ياما مشيت مع هالة، ياما، كنت أنا وهالة نتحدى

كل الأطر الغليظة التي تفرض علينا حظر التجوال، لا يوجد مكان في المدينة، لم تخطُ أقدامنا عليه، "جنينة فريال" "جزيرة النباتات"، "جبل شيشة"، "الحصايا"، "جبل تاقوق"، "درة النيل"، "دير الأنبا هدرا" بالبر الغربي، "الموناليزا"، كنيسة الملاك، كنت أسرقها من الكنيسة برغبتها ونقيم قداسنا في الشوارع والمتنزهات..

كل تلك الأماكن وغيرها، علامات واضحة على حب انهار وانتهى، علامات غائرة في الذاكرة، تشهد بخسارتي لهالة في قديم الزمان..

.. ويا رب كل من يقسم الواحد إلى اثنين، كل من يكد ويتعب، ليكسر قلوب الأحبة، يكون ملعونا فوق الأرض، ومرفوضا من السماء، الله لا يسامح من كان السبب، الله العظيم لا ينسى الماكرين والخبثاء وصانعي الشر، لا ينساهم، لكنها هي الظروف المعاندة، هي الأيدي الخفية التي تلعب في مقاليد الأمور فتضر بخططنا وتعصف بأحلامنا، أحلامنا البسيطة، البسيطة إلى درجة أنها لا تؤذي أحدا..

- إيه، دنيا ..!!

.. تصوروا، أن "هالة" أنجبت بنتا وولدا، "هالة" صارت أرضا خصبة لغيري، أخذها مني "نصر العتطجي" سائق القطارات وفر مطلقا ساقيه في الجهات.

.. ثم أتى الوقت، ودخلت بيت الأستاذ (أُنسي)، وقدمت لي زوجته القصيرة الطيبة ساندوتشات جبنة "رومي وبسطرمة"، وأصرت على أن آكل فلم أرض، كنت محرجا من كل هذا الذوق النبيل والكرم، لكنني شربت "شاي"، وأكلت "كيكة بالشيكولاتة" وسمعت موسيقى كلاسيك،

obeikan.com

وكانت زوجة الأستاذ "أنسي" منهمكة في شغل "الكنافة" وابنتها بسمة تجلس بجوارها، وهي تتابعني بترحاب وصمت، لم تكلمني، كانت تضع بيننا تحفظا ما يمكن تخطيه وتشكيله وفق هواي، إن أردت، هكذا كنت أشعر تجاهها كلما زرت الأستاذ "أنسي"، لكن كان يحيرني صمتها الدائم ضدي..

obeikan.com

(8)

حسن الضمراني عبد المولى

(9)

...و...

..وصرت أتناول طعامي بيدي الشمال، وها أنا آكل الحلوى الفاخرة بيدي الشمال..

.. بعد سنين من التعب والمثول، باعوا المصنع يا رب، وبعد أن استطعت تغيير عادتي في الأكل والشرب، سارعوا وباعوه، صرت التهم طعامي

obeikan.com

بيدي الشمال، وأدخن بالشمال، واستحم، واسّرح شعري، وأحلق ذقني، واسلم على الناس بالشمال، واستمني، وأضاجع وأقاتل، وأصالح وأخاصم بالشمال، وأعفو وأجازي بالشمال، وأتحسس ملامح البعيد القادم، أيضا بالشمال، وأدق بوابة العالم بأصابعي الشمال، وأحزن، وأفرح، وأتألم، وألتئم وأشفى..

.. كله.. كله بالشمال..

.. كله كان من أجل مصنع الثلج والأسماك، ومن أجل عملي كرئيس لقسم تشفية السمك، بالمصنع، جميعه ذهب نثرا منثورا في الهواء الطلق، بلا طائل صار، وبدون مقابل، أو ثمن، ومن يجازي ومن يحاسب، ومن بيده أن يمنح الصلاح للمؤرقين؟ ومن يعطي صواب الفعل لمن التهموا قطع الحلوى الفاخرة احتفالا بإنجاز الإخفاق الكبير؟!

وذهب منصرما، عمرا من الشقاء الجميل، وانتهت هدنة بيني وبين الزمن ظننتها قد تطول، وها قد تنحت جانبا أوراق المصالحة مع غدر الأيام الآتية، وتبدد سريعا حلم واسع بالنجاح في امتلاك ركن في هذه الدنيا..

.. نحن المطرودين برفق، نأكل الآن حلوى غالية، ونقابل الرحاب بوجل ونتحسس القادم بفزع مهيب، ومعنا أوراق لا تهم أحدا غيرنا، "وشيك" بنكي مؤجل الدفع، لحين ميسرة..

..ومن مثلنا يا رب!!

من مثلنا نحن عمال وموظفو مصنع الثلج وتشفية الأسماك!!

وبلا علة مقنعة أو سبب كانوا قد استغنوا عن خدماتي في المصنع بعد أن باعته الحكومة لناس لا أعرفهم، وأعطوني مثل زملائي العاملين بالمصنع، شهادة تقدير جميلة، مكتوب فيها اسمي بإتقان بالغ، وبحروف مذهبة، بارزة وكبيرة الحجم، وكانت كل الكلمات الضخمة، الذهبية اللون، تشكرني وتثني عليّ، إنه شكر ورقي فخم ودوسيه مكتظ ببياناتي، وبعض من قطع الحلوى، وصادت عيون الكاميرات آخر مشاهد تجمعني بأصدقاء العمل، كانت تلك الصور الملونة المدفوعة الأجر من قبل إدارة المصنع القديمة تجمعنا ونحن في الحفل الأخير الذي أحال المناسبة إلى جو احتفالي مبهج، مدعّم بكلمات الشكر والعرفان من قبل مدير الإدارة، وأعطت كاميرات الفيديو الرقمية، التي كان يحملها بعض المهندسين، وأيضا فلاشات الكاميرات الضوئية الباهرة، جوا سينمائيا حميما للعمال الأبطال، الراحلين إلى المجهول الذي ينتظرهم، ودعمت القطع المتساوية من "الجاتوه، والبسبوسة، والجلاش" كل هذه الأحاسيس التي تبث في النفس الشعور بالأهمية..

كان الشعور بالزهو قد تسلل، إلى جوف بعض من الزملاء الذين أخذوا استمارة "ستة" مثلي، كان جوا احتفاليا حميما..

هذا الكرنفال المدهش أعد مسبقا من قبل إدارة شؤون العاملين، كنوع من التكريم، ورد الجميل لنا نحن الموظفين والعاملين الذين أفنوا الكثير من أعمارهم بالمصنع الكبير، وكانت الحلوى موضوعة في أطباق ورقية نظيفة ومعتن بها من قبل "شيف حلواني" جاء من فندق "أوبروى" خصيصا ليصنع لنا تلك الحلوى التي لا تقدم إلا لثلاثة من الناس، أولهم الشخصيات المهمة، وثانيهم السائحون الأجانب وثالثهم

أولئك الذين أحيلوا للمعاش المبكر..

وكان المصنع في السنوات الأخيرة يحقق مكاسب جيدة.. لماذا باعوه إذن؟! وكيف ننهي عمرا من العطاء، ونطيح بحفنة من السنين الماضية؟!! وبعد أن اعتل جسمي برطوبة المصنع ها هم يبيعونه، وبعد أن تخطيت أعواما من العمل المضني في قسم التشفية، أجدهم بغير خشونة، يهشونني بعيدا، ويشردوني مع آخرين، ها هم يبيعونه ببساطة.. وبعد أن غدوت رئيس وردية محترما، ثم رئيسا لقسم التشفية، ها هم غافلوني وشرعوا في بيعه ومن ثم باعوه بالفعل..

..فعلا، فعلا، نحن أكلنا الحلوى بلا قيد أو شرط وتأبطنا دوسيهات مسوغات التعيين القديمة، وجلسنا في الحفل نأكل..

.. باعوه بعد أن بدأت ارتاح قليلا، وآخذ وضعا وظيفيا مجزيا ومريحا، وخسرت إبهامي وسبابتي بلا طائل، وخسرت صحة اعتلت بصقيع المصنع المزمن، آه من الكتف والعنق، آآه من الركبة اليمنى، والغريب أنني حينما أنام على جانبي الأيسر لأريح ركبتي اليمنى، يشتد وجع كتفي وذراعي الأيسر، وحينما أبدل الوضع وأنام على جانبي الأيمن لأريح كتفي وذراعي الأيسر، يشتد الألم في ساقي وركبتي اليمنى، والأغرب أنني لا أستطيع النعاس وأنا مبسوط على ظهري، إنها الحيرة والألم الليلي الخاص يا إله الناس، أنه الأرق حين يكون ممزوجا برائحة المراهم والحقن المسكّنة أيها الناس، هو البحث عن نعاس عميق، عميق بقدر إنهاك نهار ولى أيها المصنع المهدر دمه بين القبائل، وها هو المصنع يذهب وتبقى آلام الجسد المنقوص.

ماكينة التشفية منذ سنين ذاقت من لحمي وشربت من دمي، وقرقشت عظمي..

يومها، أصرت ماكينة "التشفية" على أن تأخذ مني تذكارا، وبالعافية قبلت أصبعين فقط من كف يدي اليمنى، وبالعافية قبلت ماكينة التشفية الجزء اليسير مني، هي كانت تتمنى أن تأكل أكبر قدر مني، كان طموحها أكبر من أن يحتمله جسدي، لكنني خذلتها وهربت من أمامها، وتحركت متجها إلى ناحية الغيبوبة المكتملة..

قبل أن يغمى عليّ كنت ناصحا، ومنحت للماكينة، السبابة والإبهام فقط، وانصرفت إلى المستشفى العام، الواحد في بعض الأوقات لازم يكون مفيدا لذاته، ولا يفرط في نفسه بسهولة، بل يمنح الجزء القليل منه، حتى يخلص بأغلب كتلته، والأهم هو أن نحافظ على أصابع الروح من القطع، أعطيت الماكينة الذي فيه النصيب، وانصرفت إلى إجازة علاج طويلة، وبعد أن رجعت للعمل كافأني "رئيس مجلس الإدارة"، على إخلاصي لمكنة التشفية الشرسة، ورقاني لرئيس وردية، وصرت موظفا محترما، وبعاهة جسمية معقولة، وصرت أحمل حلما وظيفيا طموحا..

وسارعت إدارة المصنع مشكورة، ومنحتني مكافأة مجزية، المكافأة انصرفت إلى مسارها المحتوم ونحن نزوج شقيقتي الوسطى "عايدة" للرجل الذي جاءها من "نجع حمادي".

كنا جميعا جالسين أمام الفيلم العربي متأثرين بالأحداث، وكانت أمي قد سحبت فص ثوم من الحزمة الكبيرة المعلقة في الحائط بجوار

نافذة المطبخ الصغيرة، وجاءت "بالهاون" وجلست بتثاقل على مبعدة منا أنا وصبحية وصرنا متناثرين في الصالة، ومازال المطبخ يرسل ببقبقة ورائحة الطبيخ العبقة، كانت تفصص حبات الثوم الضئيلة وتضع القشر الأبيض الرقيق في حجرها، وترمي بالفصوص في "الهاون" النحاسي القريب منها، وكنت ساندا ظهري على ساق شجرة الكافور العجوز، وبدون مناسبة قلت لأمي وأنا أنظر لكفي الناقص واضحك: إنني آسف يا أمي، أني ساهمت في تزويج "عايدة" بأصبعين فقط، سامحيني يا أمي، كان نفسي، أن أعطيها أكثر من ذلك..

.. وغضبت أمي من دعابتي السمجة، وقاطعتني طوال اليوم ولم تأكل معنا حينما نضج اللحم، ووضع على الطبلية مع أطباق الطبيخ والأرز..

وصارت من حين لآخر تنظر لعجزي وتغني بصوتها الرخيم، وكلما توسعت في "عديدها" الحنون تبدي الندم طريا على وجهها العجوز، وحين تتعب ترتاد صمتا كئيبا لا يطاق..

وبعد تلك الحادثة، أصبحت حاملا لمطواة "قرن غزال"، صرت أشعر أنني أكثر ضعفا مما كنت عليه خصوصا وأنا أجول في ليل المدينة، أو وأنا أقطع مشاويري المهمة في ثنايا الجبل الخطر، الله يرحمك يا "صلاح" لو كنت موجودا في هذه الدنيا، لكنت استأنست بك ضد الخوف الذي يحتلني ويضطهد روحي من وقت لآخر، وأين أنت يا خال "وصفي" يا محارب العائلة الوحيد؟! أنت ميت بلا شك، بل أنتما قد أخضعتما المغادرة لأهدافكما فغادرتموني بلا رحمة، لم تحتملا، سخف الليالي المقبضة فسافرتما في الرحاب بلا أمل في الرجوع، الفرق بيني وبين المرحوم "صلاح" هو، أن صلاح أقبل عليه موته دفعة

واحدة، هو وافق على الموت بنفس راضية، وقال "الشهادتين" ثلاث مرات بغير تلكؤ، ولم يفاجأ بالحجرين الضخمين وهما يهجمان عليه بلهفة ـــ وهو ماثل بينهما ـــ ليعصرانه بلا شفقة، الجرانيت يا جماعة لا يرحم النحافة المفرطة والضعف الرقيق، القسوة والغلظة والصلادة لا تحس بغيرها، وتمضي إلى مشوار الحتف النهائي بدون غصة في الحلق، وكأنه كان مقررا أن يتغيب عنا في أقرب فرصة، ترك عمله المضني في محجر الجرانيت، وارتكن بجانب الحجرين الضخمين ليشرب سيجارته الأخيرة وفي ذات الوقت كان قد ركن في صدره الشاسع، قليل من هواء يمكنه في وقت الضيق من أن ينطق بالشهادتين ويرتاح، بعد أن ألقى بعقب السيجارة قال لمن حوله: يا جماعة أين الموت؟! يا جماعة الواحد مش فاضي، وهنا تحركت الحجارة، وجلجلت النهايات وقدمت إليه محرجة بسبب جسارة قلبه وترحابه بالمغادرة المحتومة..

هو ده صلاح يا جماعه؟!

أيوه هو ده !!

الكريم جدا "صلاح محمد إسماعيل"، لم يستعطف فناءه الذي قدم إليه برعونة، بل منح البدن الصغير للنهاية، وبلا تأجيل، مارس موته بلا تلكؤ، وموته أحترمه أيضا، واعتنى بكل الجسد، وأدخله إلى رحاب السفر البعيد، أما أنا فتهزني الهلاوس تجاه ما هو آت، أشعر بأنني أختفي تدريجيا، قطعة قطعة، وبتلكؤ مهين، الموت يحتفلً بي ويتذوقني على مهل، اختفى منى أصبعان منذ فترة، اقتلعتهما الماكينة من جذورهما، وتركت لي فراغا ورعبا وسؤالا بحجمي، فماذا سوف يقص

الزمن من لحمي وعظمي فيما هو آت؟! ها أنا أموت إذن رغما عني، ها هم يسرقون مني رغبة المواصلةً، ويبيعون ركنا مهما من حياتي، كنت أظنه مرفأ نجاة لي، وماذا بعد أيها التشرد المكتوب على الواحد كاسمه، وماذا تريد أيها الوجع المزمن الساكن في الأعضاء المريضة، اختفائي القادم بدأ في الغزو، ومن يقدر على التصدي والاجتياز، ومن قال إن تلك الأشياء لا تخصنا ولا ترتبط ارتباطا وثيقا بأعمارنا؟!!، الأماكن حين تختفي تساهم كذلك في تقليل ساحة الظهور والتبدي التي تخصنا، الأماكن تشاركنا الحياة وتمنحنا فسحة أكبر للظهور، وأي غباء هذا الذي يقرر محوها..

ومستوجبا عليّ أن أعيش، لزاما على أن أغيظهم بحبي للمواصلة وعدم الاختفاء، أنا يا جماعة أرفض تذويبي ببطء، وأرحب بالنهاية حين تأتي بكرامة، ياه، يا ساتر يا رب، مكتوب على الواحد أن يقابل عناءه في منحنيات الطريق، وعلى النواصي وفوق أوراق الصحف، وبين "روشتات" الأطباء التي تحتار في كيفية علاج الداء، الأذى لا يأتي على حين غفلة، بل هو يمهد لنفسه الطريق، وينشر أخباره في الجهات، لكن من يشوف ومن يسمع؟!! ومن يصد ضرباته حين يصير جبلا ضخما كـ" الحكروب"؟!! إنه "حكروب" حقيقي جاثم فوق أرواح العباد، ولكن نحن نصهين ونستهين بالأمر.

.. فقط نقص مني أصبعان، الموضوع بسيط، فربما ينقص من آخرين رأس بكامله، أو ذراع، أو رجل، أو خصيتان، أو عضو ذكري قادر على الإخصاب، براحتكم، براحتكم على الآخر، سوف يضرب الأذى الشخص وهو في عز ثباته، المشكلة صدقوني في العمى، المشكلة

صدقوني في الصمم، وتيبس المشاعر، اللّه كبير، كبير جدا يا جماعة، العناء يأتي إلى الواحد في الوقت الذي يعتقد فيه أنه أوشك أن يستريح وأنه آمن، ودخل في مظلة الاستقرار..

"هكذا تكلمت مع زملاء العمل، لأيقظهم من لذة الحلوى الفاخرة، وصدح الغناء، وقليل منهم من استمع لثرثرتي".

صديقي وحبيبي التشرد أكتب إليك بمشاعر حارة ونفس مطمئنة لقضاء اللّه وقدره وأقول لك صادقا: ها أنا أمارس الإخفاق من جديد بعاهة إضافية، يا حبيبي كيف أواجه تلك الخيبات؟!! يا إله الناس كيف أشاكس كل هذا الدنس، بثمانية أصابع فقط؟!

"بسيطة، واللّه العظيم بسيطة، الحمد اللّه، الحمد اللّه، حصل خير، حصل خير، بارك اللّه فيهم"..

وكنا نلوك الحلوى بتلكؤ محبب، كان بعضنا يريد أن يستبقى قدرا من المذاق الحلو لأطول فترة مسموح بها، وننظر لبعضنا البعض بخجل، وكل واحد منا يدس نفسه في الطبق الورقي الذي بين يديه، وكانت موسيقى وغناء يصدحان من ميكروفون قوي، كانت منصة التكريم قد فرغت من العمال والفنيين، والموظفين وبقي فوقها بعض من البذلات الأنيقة، وهي تجلس على مقاعد وثيرة، مبطنة بالقطيفة الحمراء الناعمة، كانت وجوههم سمينة وقادرة على إفراز بسمات معبرة، كنا نصعد إلى المنصة، كلما نادوا على اسم واحد منا، نصعد ونستلم شهادات التقدير، "والدوسيهات" والشيكات البنكية، ثم ننزل من الناحية الأخرى، حتى نتيح للقادم الفرصة للصعود، وتوالى صعود

obeikan.com

أمثالي ثم نزولهم إلى أسفل، وأمثالي لا يمكثون في هذا الفوق كثيرا، كانت درجات السلم القليلة التي أنزلها بهوادة وثبات تسحبني إلى قرار مجهول، كان السلم الرخامي القصير يسلمني إلى دهاليز طويلة رطبة ومعتمة..

سمير غطاس وهو يستقبلني ليصافحني، فتح وجهه المحمر العريض عن آخره وأخرج منه بسمة بمقاسي بالضبط، وهو يسلمني أغراضي كان واضعا يده البضة على كتفي، وقال صوته بصدق: "أنت عظيم يا جمال، حقيقي عظيم، ربنا يوفقك يا ابني"، وربت فوق كتفي برفق، لعدة مرات متتالية، هذا الرجل المدير، قصد أن "يطبطب" على روحي..

وكنا حين ننزل من المنصة تواجهنا أعداد غفيرة من المقاعد الخيزران، المتراصة في صفوف خلف بعضها، وحينما نجلس على المقاعد يأتي مسرعا أحدهم وهو يلبس لباس الطاهي ويمنحنا علبة كرتونية جميلة، تفوح منها رائحة الحلوى، الجالس بقربي قال لي بتأثر، وفرح: "تصدق أن غطاس بيه كان ح يبكي وهو بيسلم عليّ، وكمان قال لي، أنت عظيم، والله يا ابني أنت عظيم".

.. تصدق يا جمال، إن غطاس بيه يقول كده!!

... !!!

والمصحف الشريف غطاس بيه قال لي كده، الراجل ده عظيم، عظيم فعلا يا جمال،

___ هاهاهها هه...!!

___ ...!!!؟؟؟

ورحنا بوجل نفض غلاف العلبة الكرتونية الفخمة ونستكشف ما بها، في حين تفجرت الخطب البلاغية من المنصة الشاهقة، واندلعت النظرات المتأثرة من أعين الجالسين فوق المقاعد الضخمة، وصار كل شيء يمضي إلى النهاية بترتيب دقيق، وتبعا لخطة الحفل، وزملائي حريصون على عدم خدش سطح هذا النظام بأي تصرف، لدرجة أنهم، وهم في مقاعدهم الخشبية، كانوا يرمقون المنصة بترقب وكأنهم منتظرون وقوع جزاء أخير عليهم إن صدر منهم صوت وهم يأكلون قطع الجاتوه، أو وهم يفضون غلاف "السلوفان" الفضي اللامع المستدير بإحكام حول العلبة المستطيلة، التي أخذوها لتوهم من "الشيف"..

كان "الشيف" النظيف إلى حد الأناقة، يأخذ علبة "سلوفانية" من مساعدة الذي يحمل صندوقا بلاستيكيا كبيرا، مكدسا بعلب الحلوى، وبكل همة يتقدم نحو أحدنا بلباسه الأبيض، ويناوله العلبة بذوق واحترام، وكانت طريدته النازلة لتوها من العلو، لا تزال دائخة ومثقلة بأوراق مسوغات التعيين القديمة، هي نفسها تلك الأوراق سوف تبحث من جديد عمن يقبلها..

كل شيء صار كما خطط له، كل شيء في تلك الأثناء كان ملفوفا بسلوفان فضي ناعم ومرتب وهادئ، فقط مشاعر كل منا كانت تسعل وتصيح في فضاء القيعان السحيقة بغلظة وخشونة وافتراء وبدون حد أدنى من "الإتيكيت"، ولفرط حرصنا على عدم تصدير أي إهانة لكل هذه الأناقة والنظام، بدأنا نتسرب بهدوء واحد في إثر آخر، إلى أن

وصلنا إلى حوش المصنع الواسع، هناك توزع جميعنا وفق أهوائه، واستفرد جميعنا بقطع الحلوى، وعاملها بشراسة وبدائية اللقاء الأول..

وأنا جالس بقربهم ومعطيا ظهري للسور الساخن من وهج شمس الصيف، سمعت زميلي وهو يحكي لهم ما قاله "غطاس بيه"، أثناء تسلمه للأوراق.

- غطاس بيه ده راجل عظيم يا جدعان، والله ح نخسره..

وقعدت مع أصدقاء العمل أسفل حيطان المصنع الذي بدأت في استلامه لجنة مدججة بالأوراق، والسجلات، والكشوف، وتناثرت هنا وهناك أجساد ممشوقة حماسية ببذلات زاهية محكمة القفل على أصحابها، وكان الكل سعيدا وفرحا بالصفقة، البائع، والمشتري، الاثنان كانا في تمام السعادة، والانبساط..

وأكلنا ما استطعنا من الحلوى، وراقبنا ما يحدث بصمت، ونحن نستمتع بالمذاق الحلو، وكنت كل فترة أنظر إلى بوابة قسم التشفية، القابع هناك، ثم إلي مكتب الإدارة على الجانب المقابل، وكانت رائحة "زفارة" السمك عالية من حولنا، وتدنو من حد النتانة الخانقة، وكنت أدخن بكثرة لأسباب عدة، أحد تلك الأسباب أنني كنت أريد طرد الرائحة العفنة من المكان، كنت أشم رائحة النتن بمفردي تقريبا، فلم أجد واحدا من الناس الذين حولي يبدى، اعتراضا، أو تأففا، لماذا الناس لا تحس بهذه العفونة؟!! والقيظ لم يعد أليفا بعد، كان الحر مستاءً منا، ويرمى ببخره الحامي على أجسامنا، حتى رشح العرق الملحي من نسيج "جواكيت" العمل الزرقاء الثقيلة، كانت الأكثرية منا

قد جاءت إلى هذه الاحتفالية بـ"اليونيفورم" الكحلي الداكن، وكنت من الذين جاءوا جاهزين للتشرد الرفيق، لم ألبس الزى الرسمي للمصنع بل أتيت إلى الحفل مرتديا بنطالى الجينز الباهت، وقميص نصف كم جديد وحذائي "الكوتشي" ، بعد أن انفض الحفل رسميا كانت تجتاحنا جميعا رغبة عدم الانصراف، لم نتحرك من أماكننا بالحوش الواسع، وتفهم المالكون الجدد للمصنع، أحاسيسنا وقدروها، ولم يسعوا لطردنا، وتركونا في حالنا لحين أن ننتهي من إدرار آخر نقطة من مشاعرنا فوق أرض المصنع، تركونا بلطف نرمح وراء أيامنا الماضية وتذكاراتنا لنلمها من بين أركان العنابر والأقسام، لنرفقها من جديد مع دوسيه مسوغات التعيين القديمة..

وشمس الصيف الحارقة تبنت عنهم مهمة طردنا، زحفت نحونا بقسوة، واتجهت ملحة نحو حلقات تجمعنا، كان الهواء نادرا من حولنا، والشجر الواقف بجوار أسوار المصنع الشاهقة، قد أصابه الشلل، شاخ ومات ثابتا في مكانه، يبدو أنه رسم بقلم رصاص في الفراغ ومستعد للمحو في أية لحظة، كان الشجر من حولنا مثل مجموعة من الأشخاص لا يستطيعون الحركة بعد أن تناولوا وجبة لذيذة..

وكنت أتأمل المكان وألقي عليه النظرة الأخيرة، والهواء مستمر في ركوده والقيظ مستأسد على أبداننا، والعرق المالح ينزف من جباه جميعنا، وكنت في ذلك الوقت جالسا على حجر بجوار الجدار وأتطلع ساكنا إلى الأنحاء، فقط أدخن حتى أدافع عن نفسي، والأصوات المختلطة، تعكس بوضوح، حالة الفوضى، التي سيطرت على المسؤولين، بعد أن انفض حفلنا البهي، وانصرفت عربات ممشوقة لامعة، وجاءت

عربات فارهة، وتقيأت أمامنا، أناس، أكثر لمعة، واحتقانا من شدة الحمرة التي تضرب وجوههم المصقولة، لدرجة أن الجالس بقربي سألني مازحا، وهو يكمل وجبته من الحلوى، هل من الضروري أن يغسل مثل هـؤلاء، وجوههم عند قيامهم من النـوم؟!! وضحك وهو يفرك يديه ببعضها، بعد أن ألقى بالطبق الكرتوني الفارغ جانبا، وطلب مني سيجارة، وهو يسند ظهره للحائط، أخرجت له سيجارة، وجهّزت لنفسي واحدة جديدة..

.. ودخنت بشراهة، ولذة..

كنت أشعل السيجارة من طرف أختها، وأقذف بالسحب الكثيفة إلى الفضاء العالي، وقبل أن تنتهي لفافة التبغ بقليل، أعجّل بإخراج غيرها من العلبة، وأشعلها من مقدمة العقب الذي مازال مشتعلا بين أصابع يدي.

.. لماذا لا يعترض أحد على تلك العفونة الكثيفة من حولنا؟!

.. وجاءت عربة نقل كبيرة، كانت محملة بعمال نظافة جدد، وقفت العربة أمام بوابة المصنع ونزل الجمع، بزي موحد، من صندوق السيارة الخلفي، كان بعضهم يحمل فوق كتفه الفئوس والمكانس الكبيرة، والبعض الآخر يحمل المقاطف الجلدية السوداء، دقائق قليلة وانتشروا بهمة في أنحاء المصنع، ولم يمر وقت طويل، حينما رأيت الكثير منهم متجها إلى خارج المصنع، وهو يحمل المقاطف السميكة المملوءة بالنفايات، كانوا يلقون بالقمامة بلا اكتراث في عرض الطريق، بعد فترة وجيزة تكون جبل صغير من النفايات أمام بوابة

المصنع، كان الرجال يعملون بهمة وصمت ودون تلكؤ، وكلما اجتهدوا في عملهم، ارتفع الجبل الصغير وراح يسد أفق المشاهدة قدام البوابة الكبيرة، وكنت أسأل نفسي وأنا جالس في مقابلة البوابة، من أين جاءوا بهذا الكم الكبير من القمامة؟، وكنا نحن زملاء العمل القدامى، نرنو إلى بعضنا بعضا بدهشة لا تخلو من ريبة..

obeikan.com

(10)

(11)

(لديك رسالة)

(يا بني آدم عيب عليك كده طيب رد عليّ، أنا مزنوق، جرجس، 10/1/2000)

.. أمام المسلة الفرعونية الناقصة وقع هذا الأمر ..

.. هدأت الريح، وترك المطر بركا صغيرة من الماء على جانبي الأسفلت، والبلل الخفيف في طريقه لأن يجف، الملابس المبللة قليلا وهي تمس جسمي لها طعم الانتشاء واليقظة، وكنت انثر نظراتي متوترا، هنا وهناك، وجدت مصنع مكرونة "كريم" القريب، يضخ عمال الوردية الأخيرة إلى الشارع، بعد أن أتموا ساعات كدهم اليومي بداخله، وبعض عابرين جدد خرجوا إلينا من شارع جانبي ضيق، واختلطوا معنا في مشهد الأسى الذي أعده لنا صاحبي، بعد لحظات قليلة كنا مقصدا لتلكؤ وتعاطف العيون الكثيرة التي انتشرت في الشارع، الذي كان ساكتا تماما منذ دقائق، وفقيرا، وبغير رواد..

.. وبدأوا في الاقتراب والتلصص علينا بحذر، كنت قد أوشكت أن أهشهم بعنف بالجريدة المسائية المطبقة بين بيدي، أوشكت أن أنحني على الفرع الجاف الساقط أسفل الشجرة، لأستعمله في نهرهم، وصد الاقتحامات المزعجة التي تريد تعطيل البكاء الراكض في وسط الشارع نقيا، وعاريا وبلا أي كلفة، كيف أتصرف حتى يتمم "محسن" غسل نفسه؟!!

..مثل طيور عملاقة كانوا في تحلقهم وحومهم حولنا، وكيف يتحول الشخص إلى "خيال مآتة" مخلص، ليحمي حقل صاحبه حين ينمو، ويكبر؟! وكان لا يكترث بالطقس، ولا يعنيه الناس، ومستمرا في شهيقه العالي، وخارت قواه، ووقعت من يده الكراريس القليلة المبتلة التي كان ممسكا بها، وتقرفص على الأرض اللينة بجانب ساق الشجرة، وأفرغ مأساته كاملة قدامنا.. إلى الآن لا أعرف سببا لكل هذا الحزن، الذي

أعتصر صديقي "محسن"؟!!

ـ قلت لمسعود ذات مرة ونحن نجتمع معا في "غرزة" الضمراني التي تديرها الآن "أم حسن"، مشاركة مع ابنها الذي شب عن الطوق..

.. "والله يا مسعود أي بني آدم محير، مش "محسن راتب" بس.. ".

.. "محسن" شخص غير مريح في معاملته، لكن علينا قراءة البني آدم من أوله لآخره، وليس بالقطعة، أو من بقعة واحدة فيه، بل يجب أن نتأمل بعضنا البعض، من خلال حياتنا الطويلة، من بدئها لنهايتها أو من بدايتها إلى النقطة الأخيرة التي نتوقف عندها، وذلك حتى نتمكن من الوصول إلى الحكم الجيد، القريب من الصواب، فحين نشرع في تقييم الإنسان الواقف قبالتنا يجب أن نتحلى بالموضوعية، وطالما وجود ذلك الشخص بيننا لا مفر منه وأمر واقع، فيجب قراءة كتاب الشخص بالكامل، لنتمكن من مساءلته وقت أن يوجه إلينا أمراضه النفسية وعقده المخبأة أسفل جلده، وعلينا أيضا إيجاد اليسير من المبررات ونحن نواجه غباءاتنا الإنسانية، فلا يوجد شخص بغير صغائر أو نقائص، أين التسامح إذن؟ أين المرونة العقلية والعاطفية ونحن نمد جسور اللقاء مع الغير؟! أين مساحة البله المسموح لكل واحد منا أن يشغلها وهو يتعامل مع الآخر؟ أين هي؟ من منكم بلا خطيئة فليرمي "محسن راتب" بأقرب حجر، وبرغم ذلك، كنت دائما أنسى كل تلك الحكم الرشيدة وأنا أتعامل مع "محسن" وآخرين مثله، لأقع في ازدواجية مفرطة، كلنا يعاني منها وهي تعمل على تآكل الصدق والاتساق والوحدوية مع النفس، كنت أتمنطق بتلك الأقوال الذكية الرائجة، وفي نفس اللحظة أرتكب نفس الخطأ الذي يرتكبه "مسعود"

وقت أن يصوب جفاءه ونفوره إلى زوج شقيقته..

.. طيب وماذا بعد؟!

ما هو الحل؟!

.. بالمناسبة، هل حقا ما قاله السيد المبجل "فرويد"، حيث إنه يعتقد في الآتي:

الشخصية الإنسانية ذات طابع مغلق على نفسه، وتعيش أي الشخصية في المجتمع وتخضع لتأثيره في العلن، ولكن في اللاوعي، ترفض كل الأطر السلوكية التي يفرضها المجتمع على الفرد، لذلك هو يرى، أن التطور الاجتماعي، ونشوء الحضارة الإنسانية بمواقفها الأخلاقية العدة، أضرت ضررا بالغا بالتطور الطبيعي للشخصية الإنسانية، مما ترتب على هذا علل نفسية دفينة تعوق التواصل مع الآخر مهما كان ذلك الآخر قريحي وألمعي الأحاسيس.. وهل يتعارض القول السابق مع قول السيد المسيح حين أعلن: " أنت بلا عذر أيها الإنسان"؟!!

والجواب، طبعا متعارض يا عم مسعود..

- ليه بقى، أقولك ليه؟!

...الفكرة الأولى في اعتقادي تمثل رأي الإنسان في نفسه وفي أزماته الوجودية لذلك هي تتعاطف بعض الشيء مع مصير الإنسان، بل هي تكاد تكون دفاعا عما يقترفه الإنسان من خطايا، بل تكاد أن تكون رافضة لفكرة التقدم والحضارة إن كان الإنسان في المقابل سوف يتنازل عن رغباته الأولية وحاجاته الملحة التي تقننها منظومة القيم

التي أقرتها الحضارة!!

ـ يعني بالمفتشر كده، بيقول عمك فرويد إن لو كانت الحضارة حتسبب كبت وقهر لرغبات الناس بحجة القيم، يبقى بلاش منها وخلينا متخلفين بس أحرار ومتآلفين مع أنفسنا، ماشي.

.. وأما الرأي الثاني فهو يمثل وجهة النظر السماوية القاطعة وتبنيها لفكرة الصواب والعقاب تجاه ذلك الكائن.

ـ يعني يا حبيبي مفيش رحمة، يعني اللي مش حيمشي في الدنيا زي الجزمة القديمة، أخرته حتبقى سودة، إيه رأيك في الكلام ده يا مسعود؟!

.. ولم يكن مسعود منتبها لكلامي ولم يجب عن سؤالي، وأحس ببعض الحرج، وارتجل كلمات مختلة المعاني بسبب "الدخان المزرق"، الذي أفرطنا في تدخينه، قمنا من الغرزة ونحن نودع "حسن" وأمه، بإشارات فاترة من أيدينا، في الطريق أسر لي أنه يفكر جديا في السفر للمرة الثانية، قال لي إنه يشتاق للتحرر والخروج من "الحكروب" نهائيا وبلا عودة، ولم أنطق، "مسعود" يجهز نفسه للسفر ثانية، منذ أعوام سافر إلى "اليونان"، أقام هناك سنوات قليلة ثم عاد مجبور الخاطر ومعه بعض النقود، وها هو يفكر ثانية في السفر، بعد أن أفلت من لعنة السفرة الأولى سيعاود الكرة، وأنا من سوف يسفرني إلى الأعالي الرحيبة، مثلهم!! كل الأحباب محتجزون هناك في المرتفعات الشاهقة، وها هو مسعود يجهز نفسه للصعود والهرب الشريف، أحد أحبابي يستعد للمغادرة لأصير بمفردي، الله يسامحك يا "صلاح" أنت من افتتح سيرة

السفر، أنت أول من بنى قواعد الانطلاق إلى القصي البعيد، وأسس فكرة الفصل بين الأحباب، أنت من جعل الذهاب البعيد يتفشى بيننا، الذهاب في اتجاه واحد، الذهاب بلا عودة، قلت لنا قديما، أنا مسافر، وفعلا سافرت بغير رجعة، ودائما النبلاء يفعلون مثل بعضهم، بغير أن يقصدوا تأتي أفعالهم بحذو بعضها بالضبط، ولأن الخال "وصفي" كان في قديم الزمان أحد النبلاء العظام، أسرع وبارك فكرة السفر، وراح يؤكدها بنفسه، عانق سرطان الجسد ومات بشجاعة المقاتلين، عاد من الجبهة بعد أن انتصر في الحرب، ولبس ورمه الخبيث ومات بسهولة محرجة، هو مثلك أحب الحياة يا صلاح، لكنه لم يخاف السفر إلى الأعالي، أنتما الاثنان أحببتما الحياة، لكن حين أتعبتكما بالهزائم تعبتما منها أيضا، وبادلتما إياها عزوفا بعزوف، ورحبتما بالصعود والسفر، وأمي، تلك القديسة، تحذو حذوكما أيضا وتستعجل الذهاب إلى الأحباب، وتنظر إلى أبي المعلق هادئا في الحائط وتقول له: "متى يا رجل يحين الوقت وتعلقني بجوارك؟!"..

ـ ما تيجي يا بو جمال وأتلفاني من هنا يا خويا!!

يــا صــبر أنــت الــدوا.. ومكتوب علــيّ أشــربــك

الــقــلب عــمره مــا غــوى.. ولا تــصــاد بــالــشــبــك

آدي الـديـابـة عـوت.. والـسـبـع صـاده الـشـبـك

obeikan.com

(12)

..عرفت من شقيقتي "صبحية" أن أم (مسعود)، قدمت من منطقة (المحمودية الجديدة) وهي الآن في بيتها، بعد أن مرت على أمي في الدكان وسلمت عليها وشربت معها الشاي، وعرفت منها أيضا، إن وداد مريضة وربما يتم حجزها في مستشفى مبارك التخصصي، كانت تلك أخبار معتادة عن "وداد"، فهي كثيرا ما تعتل صحتها وتسافر للعلاج بالقاهرة أو أسيوط ثم تعود، وإلى الآن لا أعرف أنا أو والدتي سببا محددا لمرضها الدائم وهزالها، كان مسعود يخبرني بأن لهاثها خلف الأمومة التي لا تريد أن تأتي، يتعبها نفسيا وبدنيا، وكلما أوشك حلمها على التحقق، لا يكتمل الحمل ويتم النزيف ثم الإجهاض، لذلك كنا نتحرج من السؤال والتقصي في مثل هذه الأمور، وكنا نقابل مرض وداد بشيء من الصمت حتى لا نفتح جرح الأمومة في قلبها، وكنت أكتفي من حين لحين بسؤال عابر ألقيه على "محسن" بخصوص صحة زوجته كنوع من المجاملة، وكان دائما يرد بفتور وبعض الضيق، لذلك ومن فترة تعلمت عدم السؤال طالما يتعامل "محسن" مع مرض زوجته كسر حربي.. "ربنا يشفيها، ألف سلامة عليها".. لكن لن أسأل عن صحتها هذه المرة أيضا..

..عيب يا أخ جمال، لازم تروح إلى "مسعود" وتستفسر منه عن صحة شقيقته، عيب كبير أن أتجاهل الأمر، ربما يحتاجني في شيء..

- ده الموضوع فيه مستشفى يا عم الحاج..

رغم غضبي وضيقي منه قررت الذهاب إليه في "السايبر" الذي يمتلكه، ضايقني مسعود منذ أيام، أغضبني جدا وفاجأني، فحين جاءت سيرة وداد وزوجها محسن، قال لي بضيق وريبة وندم: تصدق يا جمال أنا بحس أن محسن ده، كافر وابن كلب، ده أنا عمري ماشفته دخل جامع ولا مسك في إيده قرآن؟!!، ولم أندهش من مسعود وهو يهاجم نسيبه "محسن"، ويوجه إليه لكمات مشاعرية غير مرغوب فيها، فأنا مبكرا اكتشفت أن "مسعود" لا يحب صديقنا "محسن" لكن المفاجأة والاندهاش والغضب الغليظ الملمس، جاءني من مدخل آخر غريب، غريب على علاقتي الطويلة بمسعود..

(وذهبت إلى الدكان الذي جعل منه مقهى للنت، فلم أجده، قصدت البنك للسؤال عن المكافأة، وهل آن الأوان لصرفها وفقا للشيك الذي معي..؟)

.. لم أنتظر في يوم من الأيام أن ينطق مسعود بتلك الكلمة، أو يتهم بها أحدا، مسعود المتسامح، الذي تعلم وقرأ في مختلف المعارف وسافر إلى البلاد الأجنبية، وتعامل مع مختلف الجنسيات، مسعود المولع "بالنت" والكمبيوتر والموبايلات ومنجزات العلم الحديث، والذي عرفته محترما لمذاهب وأفكار واختيارات الناس، كيف ينطق بمثل تلك الكلمة اللعينة، "كافر"؟ تلك الكلمة التي أصبحت في هذه الفترة

الراهنة، سلاحا مشرعًا في يد من ليس لهم منطق أو حجة، ماسورة مسدس مصوبة إلى دماغ كل من يجتهد ويفكر في إصلاح ما، طعنة خائنة يتلقاها كل من يجاهد في سبيل الخروج من الكهف المظلم الذي أدخلنا إليه الفكر المتشدد الذي وفد إلينا بعضه مع حقائب العائدين من السفر، بعض من عمالنا وصناعنا المهرة، وأطبائنا، ومعلمينا ومهندسينا ومحامينا، بادلوا كل معارفهم وخبراتهم بحفنة من الأفكار المتحجرة، كل هؤلاء تنازلوا عن دورهم الحضاري الموكول لهم، في مقابل أن يطبقوا الحق الإلهي على نسائهم وأولاهم، وراحت العادات السلوكية الجديدة، والأفكار المتكلسة تفوح من أبواب وشبابيك البيوت وتتهادى شيئا فشيئا إلى الحارات والشوارع والميادين والشركات والمؤسسات العامة والخاصة، وتناسى الجميع أننا من قديم العصور نعبد اللّٰه بتسامح وأفق مفتوح ودون إيعاز من أحد، وبدون تبعية لأحد، منه للّٰه الإلحاح اليومي الخبيث، والرياء والسطحية الموجعة..

..وكان وقع (كافر) على أذني، له طنين مزعج، وخصوصا بعد أن باتت تلك الكلمة القاسية، سهلة المنال من الجميع، والكل معرض للإصابة المباشرة بها، تلك الكلمة كافر لا تعني نفسها فقط، هي ليست مجرد كلمة عابرة، بل تعني أن الذين يعتنقونها، تقف من ورائهم حيطان عالية من الجهل والتزمت، تراث كامل من التخلف والتشدد الحاقد، يقف خلف هذه الكلمة، ويغذيها بأفكار محو الآخر وحذفه تماما من الأجندة الإنسانية، الأجندة التي من خلالها حجزت بعض الأسماء نصيبها في اللّٰه.. ليتصاعد من أفواه هؤلاء اليقين القاطع، والعين الواحدة، ومقت الآخر والتقليل من شأنه بأداء سماوي مقدس..

ـ إيه الأخبار يا عم مسعود؟!! أنت تغيرت، حصل لك إيه؟!!

مقاييس الإيمان خرجت من كونها حالة سرية خاصة تجمع بين ما هو سمائي، وما هو أرضي، اختلفت وأفشيت على الملأ، إلى أن صارت ترى بالعين المجردة، فكلما تعصبت الحناجر وأكفهر الوجه، وأبيضت الثياب وقصرت، واستطالت اللحى، واحتقنت واتسعت في الجباة علامة الصلاة، كلما كان الإيمان جارفا وحقيقيا!!

وكلما انزوت المرأة وحوصرت بالنقاب والحجاب والسدال وجدران البيوت، كلما كانت وصايا السلف الصالح محققة بين البشر وعم الخير!!

إنه الهياج الديني والنسيان العظيم، نسيان كيف نتدبر حال اليوم، ونعبر إلى الغد ونحن نزاحم الآخرين لنضع أنفسنا في مكانة نستحقها ونتمناها..

إنه الوسواس القهري، الذي يكاد يفترس حياتنا التي لا مفر من أن نتدبر أمرها معا، وأسئلة الجنة والنار الساذجة، والحيرة الوجودية الركيكة، والجبن، والشيزوفرينيا القاتلة للجميع..

..والهروب من مجابهة الواقع، والتناطح معه حتى يخضع لشروط الخير الذي نبتغيه لجميعنا..

..وهروب فردي، يؤدي بدوره إلى ضياع جماعي مؤكد..

..إننا في احتياج إلى الله الحقيقي، الله الذي لم نعد نعرفه بشكل لائق..

obeikan.com

..لم نعد ندرك الله بشكل شاسع كمحبته التي تستطيع أن تحتوي في جوفها اللانهائي كل هؤلاء المرضى..

..يبدو أن صاحبي "مسعود" في تلك اللحظة، قد أصيب بعدوى الإلحاح، أصيب بتوابع الإلحاح اليومي لتلك الحالة الدينية، التي أصبحت تطل علينا من كل شيء صغير وغير مهم، بدءا من جملة "صباح الخير"، وهل هي حلال أم حرام، ونهاية "بالخيار"، وهل أكله شرعي أم لا، ثم تأتي برامج المذياع والتلفاز والفضائيات والصحف الصفراء المحرضة، وأخير يأتي دور الأشخاص اليوميين العاديين، المكدسين بالأدبيات المعلبة والخطب العقيمة الجاهزة الصنع..

..يبدو أن مسعود نالته بعض سهام الغزو المقدس الذي يكاد أن يطبق على منجزات عصر كامل من التنوير والمجاهدة في سبيل إعمال العقل..

المهم ..

(..مال "وداد" سلامتها ألف سلامة؟).

..وأنا راجع من البنك اختصرت الطريق حتى أصل سريعا إلى بيت مسعود، وكنت قد نسيت منذ فترة، نسيت "بسمة، مصادفة مررت أسفل العمارة التي يقطنون الطابق الثالث منها، كانت بجوار والدها في البلكونة وينظران، يبدو أنها لمحتني وأنا مار من أسفلهما، كنت ذاهبا إلى صاحبي الذي أصبح يهملني في الفترة الأخيرة، فإن لم أسأل عنه، لا يبادر هو بالسؤال عني، وكنت أراه يتباعد ببطء لا أظنه مقصودا، النذل، لكن لكل واحد ظروفه، ولكل واحد منا مساحة، ومن مثل الخال

(وصفي) في مساحته المفرودة قدامه كبطولة تخصه، زمان حارب وانتصر، أحال الهزيمة إلى نصر مجلجل، لكن هذا النصر الذي حققوه هناك على الحدود، لم يكتمل، لم يمتد ليغير الهزيمة الساكنة فينا، لم يدخل إلى المدن والمصانع والميادين والبيوت وأرواح الناس، وظل رقم(6 أكتوبر) قابعا كغريب في المناسبات الرسمية وكتب التاريخ، لذلك تجرأ السرطان ودخل إلى خالي واستطاع إسكاته مبكرا!!

..ومن مثل الله يرحمه صلاح، الفنان الذي رسم لي ولهالة، لوحة ونحن منغمسان في "الحكروب"، وإلى الآن هذه الصورة الزيتية تعذبني بالأسئلة..

..الاثنان في رأيي استثناء، وقلما تجود بهما بطون النساء..

ـ يا أستاذ، يا أستاذ لو سمحت..

.. صوت رجالي عريض النبرات، نزل عليّ من فوق، وخبطني في رأسي وأنا ماشي في طرق الجبل الثعبانية، وكنت غير منتبه، فنظرت، إلى مكمن الصوت رنوت، كانت داخلة في كتف أبيها، بألفة ودعة، والاثنان متكئان على سور البلكونة..

ـ "أنا باشكرك أوي، ع اللي عملته مع بسمة"..

ـ أنا، لأ.. عادي..

ـ لا إزاي، دي بسمة بنتي قالت لي على اللي عملته مع الولد العربجي..

..ألقيت عقب السيجارة بعد ما ودعتها بقبلة طويلة، وضبطت النظارة على عيني ورحت أدقق، كانت "بسمة" تمكث هناك، هناك في العالي،

وكشيء عذب معلق ما بين السماء البعيدة والأرض الواقف عليها، وكلما هممت بالمغادرة محرجا، بادر الرجل ومط الكلام بيننا ببشاشة لا تناسب ما فعلته مع ابنته منذ أيام، كنت أراه جيدا وهو يدلي وجهه ناحيتي، وجهه سمح ومشوب بحمرة قانية، وفوق عينيه نظارة طبية كبيرة، كنت من زمان أريد أن أجدد نظارتي الطبية حتى تعيد إليّ بصري كفاءة قديمة، ولكنني دوما كنت أهمل، نظري بدأ يضعف أكثر، ونظارتي الطبية لم تساعدني جيدا لأرى بسمة بالتفصيل الدقيق، اشرب يا حلو من كأس إهمالك للأشياء الصغيرة، كنت في هذه اللحظة أتمنى أن أرى "بسمة" صافية وبغير زغللة، ملعون ضعف البصر الذي يحرم الواحد من أشياء حلوة..

هي أيضا كانت ترسل لي وجها ناصعا وحلوا، وحاملا بسمة أراحتني كثيرا، لم أر عينيها بالضبط، أو شفتيها، أو أنفها الدقيق، لكنني شاهدتها دفعة واحدة وعرفت أنها هناك وتقابلني بابتسامة عريضة قابلة للتوسع والزيادة.

-اتفضل شرفنا شوية، نشرب شاي.

- معلش أصل معاي مشوار بعديكم كده بشوية.

- طيب حنستناك.

- معلش خليها مرة تانية متشكرين خالص.

- لا بشرفي حاستناك.

- طيب، ماشي، بس نص ساعة كده.

- طيب اتفضل روح مشوارك، وإحنا في انتظارك.

-طيب، نص ساعة كده، يعني.

-طيب اتفضل، بس أوعى متجيش، أزعل.

- لا، لا، إزاي يا بيه إزاي، ضروري آجي.

obeikan.com

(13)

..خرجت إلى الشارع، وقدام بوابة المصنع الكبيرة وقفت، ورنوت مطولا إلى عمق المصنع ثم إلى هناك، إلى المطعم الخشبي الصغير، كان عم "إسماعيل "وابنته "سماح" جالسين على الأريكة المتهالكة، ومن مكانهما الخشبي الصغير الذي أقاماه على مقربة من بوابة المصنع، يتابعان خروج العمال والموظفين القدامى، الاثنان كانا ينظران بفضول إلى صناديق الحلوى الكرتونية الملونة التي مازال يحملها البعض منا بحرص، وعمال النظافة الجدد، كانوا قد بدأوا عملهم في المصنع، بعضهم يكنس الفناء الواسع، وبعضهم يمسح، وآخرون مازالوا يجمعون النفايات في المقاطف الجلدية السميكة، ويأتون بها إلى خارج البوابة، ويلقون بمحتوياتها إلى عرض الشارع الأسفلتي الممتد إلى ما لا نهاية، وتابع سريعا جبل القمامة الصغير، ارتفاعه إلى فوق، لا شك في أن قطع الجاتوه، قد أضرت بالعم إسماعيل وابنته، فلمن سيبيع ساندوتشات الفول والطعمية الآن؟!

..تلك البوابة الحديدية لن تفتح لنا ثانية، وهذا الطريق الترابي الممدود ما بين البوابة والطريق العمومي، لن يستقبل خطانا كل صباح، وكيف سنتصرف في نكاتنا البذيئة التي كنا نلتقطها من هنا وهناك، وننتظر عربة الوردية بفارغ الصبر، حتى نتبارى في إضحاك

بعضنا البعض ونحن في طريقنا إلى شغلنا في المصنع؟!! ومن غيرنا سيذهب إلى "الصراف" عند آخر كل شهر ليمد ذراعه، بين المربعات الحديدية المتقاطعة ليقبض شهرا كاملا من التعب والعرق والانتظار؟! من غيرنا سيرشو صرافنا البدين، بالسجائر وبعض "الفكة" العالقة براتبه، حتى يتخطى الوقوف في الطابور الشهري الطويل، ليوقع سريعا في دفتر القبض قبل زملائه؟ وحتما المالكون الجدد، سوف يستغنون أيضا عن "نصبة" العم "إسماعيل"، التي كنا نتسلل إليها لنتناول وجبة سريعة، ونحتسي بعدها الشاي وندخن المعسل؟ هل يستطيعون حقا أن يحذفوا هذا المكان الخشبي الضيق الذي كثيرا ما خفف علينا حمل يوم طويل من العمل المرهق؟! وهل استطاعوا حقا أن يمسحوا من أيامنا المقبلة، عم إسماعيل صاحب "النصبة" وابنته البضة المغناجة "سماح"، تلك التي كانت تخفف التعب عن ذكور المصنع الشقيانين المحرومين من أنثى ناعمة مثلها، هل يستطيعون إلغاء ذلك البرنامج الصباحي الترفيهي الذي كانت تقدمه "سماح" لشباب العمال والموظفين، دون ضجة أو إسفاف، ودائما ما كان عم إسماعيل ينجح في إطلاق ابنته الأرملة على زبائنه، حتى يرغمهم على العودة مرارا إلى الشاي والدخان وساندوتشات الفول والطعمية، كان يفعلها بخبث، وكرقيب ماهر يتدخل حين تتعدى الأمور الحد المسموح به، هنا كان يظهر فتوته الأبوية على ابنته، وعلى شباب العاملين الرعناء..

وكانت "سماح" تفعلها بإغواء جميل محبب، غير مبتذل، لم نلمس منها في مرة ممانعة صريحة، أو تفريطا قاطعا، وكانت دائما ما تتجاوب مع بعض نكاتنا البذيئة وحكايتنا الذكورية الفاقعة، بل كانت في بعض

الأحيان، ومن وراء ظهر أبيها، تطالع من هم موثوق بهم، بمفارقة جنسية سمعتها، أو تعيد علي مسامعنا مزحة إباحية خارجة، قالها أحدهم في اليوم الفائت، "سماح" الأرملة التي مات زوجها في حرب الخليج الأخيرة، كانت تمثل لكثير من عمال المصنع، جمهورا حقيقيا، لجميع تصرفاتهم الاستعراضية وهم في حضرة الأكل والتدخين، وكانت الحافز القوي للبعض منا حتى يستمر مواظبا في المصنع متخطيا قهر العمل وقهر الموظفين الكبار، وكانت تحبنا جميعا وتعفو باستمرار عن سخافات بعضنا حين يرميها بكلمة جارحة، أو تصرف فيه استعلاء أو اتهام، كانت - دائما - في اليوم التالي تقابل الجميع بفرح حقيقي وبشاشة، وكأنها لا تتذكر الأمس بمخلفاته وقلاقله التي تصنع التقلصات في نفس من يتذكره، واستمرت شريفة، وبرغم طول بقائها بغير بعل يحميها، لم نسمع عنها كلمة بخصوص عرضها، لذلك احترمها جميعنا، نحن البسطاء الذين يقيسون المرأة بحشمة فرجها..

وأحبتنا حبا حكيما يتماشى مع ركام الممنوعات التي تحاصرها، وصرنا نحن نبادلها ذات الحب غير المصاب برغبات الدنس، استطاعت "سماح" أن تروض مطامعنا الرخيصة، وبوعي نسائي فطري صعدت بنا إلى مستوى من النضج وقدمت لنا بائعة الشاي والساندوتشات والمعسل، مفهوما مغايرا عن العلاقة بين رجل وامرأة، ونسجت بينها وبيننا روابط بعيدة عن مفهوم الإيلاج أو الإتيان من دبر، ولم نخذلها عبر الأعوام التي مرت، وكانت باستمرار، تدربنا على قبول معنى إنساني كبير يضمنا، فأصبحنا نحب عم "إسماعيل" وابنته، بغير رغبات مريضة، وكأن الإباحية المحسوبة التي تعتري أحيانا تصرفات

"سماح" معنا، جعل علاقتنا معها، بها شيء من الموضوعية، وأخمد وهدّأ من الهياج الغريزي الذي يجتاح الشخص الجنوبي المكبوت، حين يتشابك في حياته اليومية مع أنثى ما، وأفشت لنا بأسرار غامضة كنا نجهلها، وفضحت حدودا ممنوعة، كانت تحيط بواقع خشن غليظ، مما جعلنا نهدأ ونرتاح ونشيد فما بيننا وبينها علاقة قائمة على جذور أعمق من الرغبة، وكأنها أتت بتلقائيتها تلك بأشياء عالية وبعيدة وغامضة وحطتها أمامنا على الأرض، فرأينا مشهدا جديدا أشد فساحة ورقة وألقا، لم تكن صديقة، لم تكن أختا، لم تكن معشوقة، لم تكن لحما مجانيا يتاح لأمثالنا الخوض فيه، بل صارت شيئا جميلا ومهما لا نستطيع تصنيفه، أو وضعه في عبارة عاجزة، أو تحديده في جملة ضيقة لا تقدر على الإحاطة بالمعنى الكبير الذي جمعنا "بسماح" وأبيها العم إسماعيل..

هم يهدمون عالما كاملا كان قائما بداخلنا، مرحبا بالتشرد والفقد، مرحبا، أهلا وسهلا باجتياز الأمور الجميلة، ولنشكر صناع الخيرات..

وكيف سوف أعرف أخبار الدنيا بالتفصيل كما عهدت؟! كانت عربة الوردية أثناء غدوها ومرواحها بمثابة نشرة أخبار يومية، أهم الأحداث والأخبار كانت ترتطم بي ارتطاما وأنا في مقعدي بسيارة الوردية، كانت تأتيني ضاجة وعالية، وطازجة من أفواه الزملاء، وأنا جالس في مكاني، كانت تتقافز بجانبي فضائح الدنيا، الحروب، الجرائم، فواجع السياسة، نتائج مباريات كرة القدم، وأيضا آخر منتجات العالم من قسوة وصلاح وعنف، وجمال..

وقبل نهاية المشوار بقليل نطلق آراءنا وتوقعاتنا الحرة على أحداث

الأمور الجارية، ثم نختتم سفرنا الصغير ببعض النميمة الحلال، أو بالنكات التي لا تقصد الاعتداء علي الحياء العام، بقدر ما تهتم بتصفية أعماقنا من ذلك الشجن الصباحي المألوف والمعتاد، وكم أغدق عليّ زملاء العمل، عبر الأعوام المنقضية، بثقافة عريضة رخوة، حية، كقطعة ساخنة من الحياة ذاتها..

احتضنت العم "إسماعيل"، وهو يطلع من حضني كان قد انخرط في بكاء فجائي، هدأ وتماسك أمام كلماتي التي كانت تعده بأنني لن أنقطع عن أكل ساندوتشاته أو شرب شايه.

- إيه يا عم إسماعيل!!

- العشرة يا جمال يا ولدي، هيء، هيء، هيء..

وأنا أمد يدي الناقصة الأصابع إلى "سماح" لأودعها، فوجئت بها تغير مساري، وتشدني من يدي وتأخذني لفترة إلى صدرها الواسع النظيف، واستمرت تحتضني بعزيمة الأحباب الكبار، كانت تربت على ظهري برفق وتكلمني غاضبة وهي تنهنه، وظللت ماثلا في صدرها للحظات، كنت مهزوما بهذا الصدق الذي هجم عليّ من كليهما كنبأ سار لم أكن انتظره، وأنا أخرج من عندها، وجدت الاحتقان الشديد يكسو عينيها، والماء يكاد ينزل، وكانت تتمتم حانقة..

وأنا أخرج من الباب المتهالك، كان العديد من زملاء العمل، قد وصلوا لتوهم إلى داخل المطعم الخشبي الصغير، رأيت محبة العم إسماعيل تتأجج وتفتر تبعا للشخص الذي يودعه، وكانت "سماح" أيضا تمنح سلامها الحار لكثيرين، أما حضنها فقليلون الذين نالوه مثلي، قليلون

جدا، كانت تنتقي انتقاءً، الشخص الذي يستطيع أن يتفهم حضنها، ويربطه بشعور المأساة التي طالت الجميع، دون أن يحرف معناه إلى أهـداف أخـرى وضيعة، كانت "سماح" تشارك القليلين منا لحظة مساندة، بشهامة كانت تعاون الناضجين منا على تقبل لحظة أسى كبيرة، لحظة حزن ذكّرتها بزوجها "العريف المتطوع"، الذي قتل منذ سنين في حرب بلهاء، لم يكن الجرح نفس الجرح ولا يستطيع الحزن الجديد أن يكون في قامة الحزن القديم، لكنها نفس الحيرة المضنية في مواجهة مصير معتم مجهول..

- منهم للّه يا خويا، قطعوا عيشنا، هيئ، هيئ..

obeikan.com

(14)

(لديك رسالة)

(جمال، أرجوك كلمني، شكرا، جرجس، 2000/ 8 /21)

ـ ..من زمان وأنا صغيرة، كان في صبي، يجي من الأحراش، العب أنا وياه..

ـ ..دب، دبب. دب، دب!!

..أزعجني وأزعج "فيروز" خبطات متوالية على الباب، كانت دقات قوية، جعلت ألواح الباب الخشبي القديم تأز وتطرقع، ولما فتحت "تهاني" الباب بتردد، رأيتها ترنو للطارق بملامح أخذت تتخلى شيئا فشيئا عن تعبير المفاجأة، لتتخلق ببطء فوق الوجه المتعب النحيف، بدايات الانكسار، نظرت للأرض، واستدارت بضعف وسعت إلى هروبها المباح..

..يا ناس، أي غدر قد جاءنا الآن!!

..يا هووو، أي خيانة تدق على بابنا الضعيف مستأذنة لتدخل وتحل بيننا.. ومن يجرؤ على تخويف الرقيقة "تهاني" هكذا؟!!

obeikan.com

كنت في تلك اللحظة في بدء وقوفي لمواجهة القادم، هو "مرتضي"، أكيد هو، ومن يقدر أن يشيع فوضى التقهقر الجبري في أختي تهاني غيره؟!! ومن جعلها وجعلنا نتحسر عليها كل تلك الأعوام المنقضية إلا هو؟

وهي تمر بجانبي لاحظت ارتجافة عنيفة تمسك بالبدن الضعيف، ورأيت الكدمة المتورمة أسفل عينها اليسرى، وقد ازدادت زرقة عن ليلة البارحة، كنت في تلك اللحظات متضايقا من أجلها، وأبحث لها عن حل يطيب لها خاطرها الكسير..

..قلت في نفسي، حتما هو زوجها "مرتضى"، ومن غيره، يقدر أن يصوب هذا الرجوع المباغت، إلى كائننا المسالم الذي نسميه "تهاني"! وكان القادم يواصل طرقه الفج، على ضلفة الباب، فتحت تهاني شقا طوليا بالباب، بالكاد يكشف ملامح من بالخارج، ثم فرت باحثة عن هدنة، ولما انطلق فحيحه العالي مناديا اسمي من الخارج، عرفت أنه "مرتضى".

- يلي هنا، يا جمال..

- كان اسمه شادي..

..ومن صار يذكرني كل حين بضرورة تغير بابنا بآخر جديد، غير زوج شقيقتي الكبرى، فكلما جاء إلينا، بادر وطرق الباب بعنف هكذا، الباب القديم يصيح متوجعا، وغلياني يلقي بأبخرة القاع إلى فوق، خميرة الغضب تتهيج وتتسع وتتمطى، وتأخذ مسافتها بداخلي، واجبا عليّ في مثل هذا التوقيت أن أتخلي عن ألفتي التي روضتني وقدمتني إلى

الفضاء الواسع كمخلوق مستأنس، صادق خموله وأحبه بصفاء مبهم..

إلا أمي وأخواتي البنات أيها الناس، إلا أمي العظيمة بين النساء أجمعين، وشقيقاتي، وذكرى الأحباب الذين سافروا إلى البعيد يا رب، فيما عدا كل هؤلاء أجمعين، أنا مسامحكم يا ناس، واجب عليّ في هذه اللحظة الحاسمة، أن أتنازل من أعماقي عن سلامي الشخصي المبارك وأن أدافع عن شقيقتي، وعن هذا الباب العجوز..

ليلة البارحة ذهبت إليه في دكانه الكبير بمنطقة "البركة" فلم أجده، كنت أنوي تصفية دمه "بقرن الغزال"، طوال الطريق كنت أحفز نفسي على فعل هذا الشر الكبير، وكل حين أصمم على عدم التراجع مثل كل مرة، هذا الشخص استفحل حمقه وغباؤه ضد أختي وضدنا، ولم يعد ينفع معه التريث أو المجادلة الحكيمة، هناك وقفة دامية أوشك ميعاد حصولها بيني وبينه بإذن الرحمن، الآن مستوجبا عليّ استعمال مطواتي، أو على الأقل ينبغي أن أرزعه فوق دماغه بعصاي الغليظة التي أحمل بها صفيحتي المياه القذرة لدلقهما بترعة "كيما"، هي ضربة حتما سوف تكون مفتتة لعظام الوجه الحيواني الدسم..

أصبح من الضروري التفكير جديا في "قرن الغزال"، ومن المهم الاعتناء ببطن "مرتضى" الوارم، لابد أن أتخير في كرشه الكبير موضعا لمشروعي المقبل، وتذكرت "روبرت دي نيرو"، وهو في فيلم "الأب الروحي" الجزء الثاني تقريبا لا أتذكر بالضبط.

-وصار القتال في أربعة أتلال، والدني دني.

أتى بالسكين من أول البطن إلى آخرها ليموت الرجل في لحظات وهو

ينظر لقاتله ثم إلى بطنه بذهول شديد ورعب لا ينتهي، كان يقول له بصمت كيف فعلتها "يا روبرت؟"، الرجل رأى مصارينه طالعة قدامه وبادئة في تكوين حيز لم يره مطلقا من قبل، والدم يفور متقاذفا إلى الخارج، تاركا تجاويفه القديمة ومنطلقا إلى حرية جديدة، وكلما حدث موقف حاد بيني وبين أحد ما، وخصوصا لو كان مرتضى، أجدني بسرعة تذكرت هذا المشهد، رجل قعيد على كرسي متحرك يلقى حتفه بإصرار من قاتله، والسكين يمشى مشوارا طويلا في لحمه، كان الرجل يرنو برهبة وتشفٍ إلى جسده، كانت نظرة شماتة واضحة من الضحية تجاه نفسه..

- ويوم من الأيام ولعت الدني، ناس ضد ناس ع الأبها الدني.

-دب، دبب، دب، يا للي هنا!

لم أجده في "المحل" الفخم الكبير الذي عبأه بأجهزة الاستقبال الرقمية، وأحدث أجهزة "الموبايلات"، تلك الأشياء التي بدأت تنتشر بين الناس، برغم الحاجة والفقر، ورحت إليه في عمارته الجديدة التي بناها بطريق "الشلال"، ولم يفتح لي أحد الباب الحديدي الضخم، مرتضى صار مثل "عبد الكريم" زوج "نادية" الساكن دوما في غربته، فكلما أراد أن يعلن للناس بأسه وسلطانه، أسرع جادا، وتعامل مع الأسمنت بحميمية وحب، فالأخ عبد الكريم هذا الرجل البركة، عندما يأتي من حقول البترول، وقبل أن يغسل يديه، أو يقبل ابنته سوسن، أو يقضي حاجة ملحة لزوجته "نادية"، قبل أن يفعل أي شيء من تلك الأمور المهمة، يسرع آتيا بالحديد والزلط والرمل والطوب الأحمر، ويصعد بعمارته طابقا آخر جديدا، هذا هو "عبد الكريم" يا رجال،

هذا زوج نادية، وهذا هو "مرتضى" زوج شقيقتي الكبرى تهاني، الفارق بين الاثنين هو أن عبد الكريم، واحد مغفل، يفعل ما يفعله بسذاجة وفرح البلهاء، أما "مرتضى" فهو ماهر في التربيط والتخطيط ونسج العلاقات التي تخدم نفوذه ومصالحه، صار عنكبوتا حاذقا في صنع شباكه ليصيد أهدافه بمنتهى الخبث والنذالة..

-أنا وشادي غنينا سوا..

يبدو أن جسم الرجل قد أذله كثيرا في حياته الإجرامية الأرستقراطية، وها هو البروز وعدم التساوي والانبعاج، يعتدي على انسجام الجسم العليل، ويصنع بزوغا جديدا لورم بحجم شارع الموت الذي انفتح في بطنه، رغم قسوة المشهد، فقد أراد صناع الفيلم أن يخبروننا، بأن الموت سريع وسهل، وأرخص سلعة يمكن أن تشترى في هذا العالم المرتبك، الرائع.

- .. دبببب، دب ..

- .. وفي يوم م الأيام ولعت الدني..ناس تطخ ناس ع ..

.. ومرتضى هذا الموظف الصغير في "الإسكان" من أين له بكل هذا التوسع والغنى والجاه في بضع سنين قليلة، برغم أنه من أصول فقيرة، وأسرته كانت تعيش بالكاد؟!! وكنت أجزم بأن حرصه على تهاني، وكده لإرجاعها إلى كنفه، هي والعيال، بعد وقوع خلاف جديد بينهما، يرجع في الأساس، إلى أنه كان يكتب كل مشروع جديد يفتتحه باسمها، حتى يتهرب من أمور قانونية معقدة، لا أدريها، لذلك مهما اتسع الخلاف بينهما، كنت أراه يأتينا مفزوعا مفجوعا من مغادرة زوجته لبيته الوثير.

-.. دب، إيه مفيش حد جوه ولا إيه؟

-.. شادي ركض يتفرج، وينك رايح يا شادي؟

...الانتهاء شيء مريح، طيع، لكن النقطة الصلبة في موضوع الموت، إنه غير قابل للتفاوض، فقط أقبله ولا تباغت أو تفاجئ بفوضى الجسم وأنت تموت، يجب أن نعرف أن أجسادنا صممت لتتلقي مثل تلك الأمور، السكاكين، طلقات الرصاص، لدغات الحيات والعقارب، الغرق، الحريق، دهس الأجسام الكبيرة لها، افتراء الآخرين، المرض، وكلها ذرائع ومبررات لقبول الأمر الحاسم، غير القابل للتفاوض، الجسم خلق في الأساس ليتم استهدافه، ليتم هدمه والقضاء على شموخه، الجسم جاء إلينا ليكون موقع إصابة، ومحطة نزول، لذلك هو جميل، الجسد شيء عميق ومبهر ويجب أن نحبه ونحترمه، فما أجمل أن يحاط بكل تلك المخاطر، ويصر على أن يعيش، يحملنا ويعيش مدافعا عن جذوة الحياة فينا، الجسم محض مغامرة كبيرة تساوي حياتنا..

-كتبنا على الأحجار قصص أصغار ولوحنا الهوى..

-دب، دب، حاجة غريبة، إيه مفيش حد في الخربان ده ولا إيه، يا جمال؟!!

..كان "مرتضى" مجبورا على قبول توبيخاتنا له، وتقديم أسف مكرر لنا وبنفس الأداء التمثيلي السابق، لا يخوض في جدال أو مراجعة معنا، تلك اللحظات حاسمة بالنسبة له، وفض الاشتباك شيء مهم وعاجل، وتقفيل الملفات يجب أن يتم بهوادة، على الأقل من جانبه..وتراجعه أمام هجماتنا، ما هو إلا تراجع تكتيكي، صادر عن شخص محنك، فهم

كيف يناور خصومه، وقت أن ينزنق في أحد الأركان الضيقة..

-كان في صبي ياجي من الأحراش.

-يا جمال، يـ...

ومفاجأة ما قبل اختفائنا النهائي، أشد قسوة من الموت نفسه، أن يرى الواحد مكسبه اللحمي يحرق أو يدمر أو يفقد اتساقه المعتاد أمام عينيه، تلك هي اللحظات الحقيقية الصعبة في الموت، وليست الصعوبة تكمن في الموت كفعل نهائي يحدث لنا، الموت بالنسبة لي صار بمثابة اكتشاف.. وفضيحة لكل ما أدخلوه في عقولنا عنه، ومن غير الموت سيكشف لنا حقيقة أو كذب ما قالوه لنا، وما درسناه في الكتب، الموت مهم لنا..

اعتقدت أن الرجل الجالس على كرسي متحرك، غلبته الشماتة وهو يرى جسده يتهزأ، ويهان من أحد الأفراد، وهو الذي طالما أهانه وحقره وكومه فوق مقعد متحرك، قال (آآآه) صادقة شفافة، وكان محتاجا لأن يتابع بقية مشهد تهزيئ الجسد الذي أذله قديما، واضطر أيضا لأن يشتم "روبرت"، فشتمه وهو يتابع طريق السكين الراكض في بطنه برشاقة وخفة، نظر إلى لحمه المفتوح وانتظر ريثما يموت قريبا، أخيرا وقع لجسمه الذي ظل يحافظ عليه لأعوام وأعوام المكروه المنتظر، أخيرا ناله العقاب من أحد المترصدين له في زوايا العالم المعتمة.

.. الدهشة تجيء من "ملعقة" الموت التي أدخلت مسحوق الموت إلى جوفنا، وليس من الموت ذاته، الأداة التي يتم بها إنهاؤنا ومسحنا من فوق وجه العالم، تكون أكثر وقعا وتأثيرا من الفناء النهائي المقبل إلينا

بثبات..

-العب أنا وياه، كان اسمه شادي..

- يا جمال، يا أم جما...

ثم دفع ضلفة الباب، واستعد للدخول، أمي رنت لي، هي تفهمني، تلك المرأة هل كشفت عنها الغيب يا رب؟!! لم تقترب من الضيف القادم، بل استعادت كما كبيرا من قوتها، وانتصب كاهلها المحني، وتقدمت إلـيّ بخطوات سريعة نشطة، ألقت طرحتها السوداء على شعرها الأبيض، وجاءتني في وقت قصير لا يتناسب مع المسافة المباعدة بيننا، ولا يتناسب مع شيخوختها، وأمسكتني من رقبتي، وقالت لي: "ورحمة الغاليين يا جمال، علشان خاطري يا ولدي"، وباستني في صدري، وأخذتني إلى عمق الصالة وأجلستني بقرب شجرة الكافور التي تقاوم جفافها وسقوطها عبر أعوام مرت، أوراق خضراء قليلة باقية في الأفرع الكثيرة، الممدودة في الفراغ، الشجرة العجوز تقف في وسط الصالة المكشوفة كمارد فارد أذرعه المتعددة الطويلة، ويطلب النجاة من هذا الفوق البعيدة، همدتٌ واسترحتٌ بجوار "الكافورة"، ولما اطمأنت أمي لخمول الشر في صدري، ذهبت إلى "مرتضى"، وهي تقدم ترحابها للضيف بكل تسامح، وكان هو يتطلع إليّ بحيطة، وحذر..

-أهلا أهلا أبو يوسف، حبابك..

-وينك رايح يا شادي؟!

قلت لمسعود يوما، إن الفناء بالنسبة لي سيكون استكشافا، واختبارا لثقافة الأرض التي تعاطيناها، لذلك علينا أن نختار كيف نموت، لأنه

صعب أن نختار أبدية أرضية تخصنا أو صيرورة ما، عسير علينا أن نرفض موتنا الآتي من ظلمة الأزقة المقبضة، أو بهجة الشوارع الكبيرة، ومن المستحيل التفاوض مع الموت المقبل مع الحروب التي تصنعها أمزجة العظماء، الجالسين هناك فوق مقاعد الحكم، ربما المتاح لنا هو الشكل الملائم الذي ينبغي أن نموت به، أفعالنا قد تحدد لون الفناء الخاص بنا، ففي زحام هذا القضاء المستعجل، الكابس على صدر العالم، يجب أن نفعل شيئا واحدا، شيئا واحدا فقط، هو أن نقابل موتنا بموضوعية..

- يا أم جمال، يا أم جمال الموضوع مش كده..

- يجي من الأحراش العب أنا وياه..

..بدأ "مرتضى" يزعق في أمي، ويلوح بيديه، ويضرب فضاء الصالة بحركات عصبية غير مبالية، هنا قمت متسحبا قاصدا بنطالي، كنت أريد أن أصل لجيب بنطالي الخلفي، كنت أقصد بالضبط مطواتي المختبئة هناك ولا تعمل، يعيش العنف، حين يجيء أوانه، مرحبا بالدم عندما يصبح الحل الوحيد.

obeikan.com

(15)

(لديك رسالة)

(عيب عليك، جرجس، 1/5/2000)

..وصرت أدخن وأنا ماشي متأبطا دوسيه أوراقي، إلى أن ظهر من بعيد جبل"الحكروب"، كانت ترعة "كيما" تحيطه بعنف وقسوة، الترعة الحمضية الضحلة استدارت حوله بعناية وعناد كبيرين، وبرغم ضآلتها وضحالتها، تخيلتها من بعيد كفاصل أسطوري، يعزل الجبل عن بقية المدينة، أو أصبحت بمثابة اعتقال صنع من ماء أبدي لا ينقطع، هذا الماء الملوث بنفايات مصنع "كيما" البعيد، ومستشفى الحميات العام، صار يلجم جبل "الحكروب" الضخم، ولا يرضى له أن يمتد إلى حيث هو غير مقرر، وكأن "الحكروب" تنين خرافي، استطاعوا أن يجيئوا به إلى هذا المكان المعزول بعد مقاومة، ولا يبغون أن يتحرر ثانية، فأطلقوا عليه جيشا من الماء القذر، حتى يستمر ثابتا في مكانه، ولا يستطيع أن يتخطى حدوده، ورأيته مثل ورم عملاق، تم استئصاله من جسد المدينة، والإلقاء به في هذا الهامش المجهول!!

وكأنهم قصدوا أن يحفروا هذا المجرى المائي العفن، ليصير علامة

obeikan.com

وهمية، تعزل خلفها كل من هم غير مرغوب فيهم من البشر..

وكأننا نحن ناس "الحكروب"، لا نستطيع أن نصنع هنا حياة كاملة، ولا نقدر أن نملّس على جسد هذا الصخر العنيد، فنحيله، إلى لحم طائب ودنيا شاسعة!!

وكأننا لا نستطيع أن نصادق هذا الجبل، ونربي في جنباته قطعا صغيرة من الحياة!

وزمان، زمان قالت جدتي، إنها سمعت من جدتها القديمة ما يلي:

..ومن قال إن هذا "الحكروب" جماد وصلادة وثبات عظيم!! هو فقط امرأة كبيرة أماتها الحزن، امرأة عظيمة خانها زوجها الكبير، وذهب إلى الشمس ليتزوجها، خدع بضيائها البهي، فترك امرأته الجبل، وظل يذهب في مشاوير يومية مضنية، إلي الشمس، وظل يبوسها في فمها وهو لا يشعر بتسرب ماء الحياة من جسمه، ولأنه ضخم مثل المرأة الجبل، استمر الماء يتسرب من جسمه لشهور وسنين طويلة، وكلما احتضن الشمس وظن أنه نال مراده منها، صعد منه البخار الكثير، وفي يوم من الأيام اختفى تماما وصار غيما بحجم الأرض، اختفى وترك للمرأة الجبل وحشة الفراق، فحزنت حتى بكت، وبكت حتى انهمر ماؤها شلالا من المقل، وانهمر ماء العيون نيلا جرارا، إلى أن جفت صاحبته، وتيبس لحمها واستحال إلى حجارة قاسية كالجبل، هكذا تقول الحكاية القديمة، هكذا أخبرتني جدتي في قديم الزمان، جدتي أعطتني أصل الحكاية، وأمي بدورها أكملت تفاصيل جديدة ودقيقة لباقي الحكاية وأضافت من عندها رتوش مهمة، فهي أخبرتني وأنا صغير أن النيل هو في الأصل زوج للمرأة الجبل، فحينما صعد إلى

السماء كبخار حام من أثر اقترابه من الشمس، أفاق لنفسه فجأة، وأراد أن يعود لزوجته القديمة، وحين عاد وجد المرأة يبست وتحولت إلى جبل كبير، فبكى بكاءً مرا، حزنا على فقد حبيبته، ونزلت على أثر هذه الفجيعة السيول والأمطار الغزيرة، بكى حتى أسقط فوق الأرض كل ما يملك من دمع سخين، ولما كثر الماء فوق الأرض راح يزحف ويتلوى ويشق مجراه، ليصنع نيلا بحجم البلاد البعيدة.

..وأنا عائد من المصنع، وقابضا بقوة لا تلين على الشيك البنكي المؤجل الدفع، وأنا واقف قبالة الكبرى الخرساني النحيل الممدود فوق ترعة "كيما"، لا أدري لماذا تذكرت تلك الحكاية القديمة التي تحكيها الأمهات لأولادهن الصغار من باب المناغاة والتسلية، لا أعرف لماذا تذكرت تلك الأسطورة العتيقة، لكن كلما نظرت ليلا، إلى "الحكروب" من أماكن بعيدة عالية، أجده شبّه لي كامرأة عملاقة باركة فوق الأرض وملفوفة بملاءة سوداء، والملاءة المحبوكة حول الجسم الكبير بالكاد تخفي مفاتن امرأة عملاقة، امرأة مضمومة في لباس الحداد الأسود ورأسها منكس، والحزن يوشك أن يسيح من أسفلها، من بعيد يبدو لي جسد "الحكروب" وكأنه إنسان كبير يعاني من ألم ما وهو جالس تلك الجلسة الأبدية، وكأنه بالضبط امرأة تعاني من آلام المخاض المبرحة..

وكأنه وطن تستشري في جبروته أعراض الوطن الكبير، وكان كالمعتاد صاعدا بجسمه إلى السماء وغير مبالٍ بما يدور في رأسي تجاهه، وفاردا صدره للجميع، خصوصا لهؤلاء الذين يعملون ضد جاذبية الأرض، ويصعدون إلى أنحائه المتطرفة الوعرة في محاولة

أخيرة منهم للصمود أمام هول الانحدار المقبل، وضجيج النهار من حوله يمده بحياة مزحومة بمعاني المقاومة والبحث عن أسباب جديدة للتواصل مع العالم، كان الجبل في تلك اللحظات النهارية يطلق صيحات عالية، تدخل في أنسجتي قدرا من البهجة..

.. لكن "الحكروب" تغير وتمددت أوصاله في المتسع الصخري الشرقي.

..كان "الحكروب" قد تغير..

..أو ماضٍ إلى تغيير أكيد..

..تغيير غير مؤطر أو مفهوم..

..مثله مثل أشياء كثيرة، ألاحظها وأعاني كثيرا لكي أفهمها..

هناك ملامح وظلال ونتوءات استجدَّت على شكله وغيرت من تفاصيله القديمة، الحواري الضيقة، التي كانت تبدو لي من بعيد كخيوط دقيقة واهية، ها أنا أراها الآن خطوطا عريضة ممتدة ومتوغلة في أعماقه، الحكومة اعتدت على أمتار محددة من كل بيت وأوسعت من بعض الطرق الضيقة حتى يتاح لهم إحكام قبضتهم على سلوكيات الناس البسطاء ومطاردة الخارجين والعتاة والمتطرفين دينيا، الذين كانوا يتمترسون بغلظة الجبل ووعورته، حين يفعلون شيئا ضد الخلق، أو ضد القانون أو ضد الله ذاته..

..ومحال أنيقة انتشرت في أنحائه وهي تعرض سلعا استهلاكية جديدة لم نكن نعرفها في السابق، وتناثرت الأطباق اللاقطة فوق أسطح الكثير من البيوت الطينية الفقيرة، فبرغم عوزتهم واحتياجهم لم

يتهاونوا في حقهم في الفرجة، وصار الكل فضائيا، وصار الجميع في وضع "دجيتل"، المشاهدة أصبحت أفيون الشعوب، والعائدون من الهجرات النفطية الظافرة، بدأوا يضعون أذواقهم المكتسبة من البلاد الغريبة، فوق أرض الواقع بالجبل، فانتشرت الجلابيب البيضاء، وتنافست الحريم والبنات في ارتداء الحجاب والنقاب، وعليت أصوات أشرطة الكاسيت الدينية التي تحض على التمسك بتعاليم تنادي بعبادة إله غاضب باطش، يعد المحارق وعذابات القبر لبشر مغلوبين على أمرهم، وكنت وأنا أجوب في دروب "الحكروب" غاديا أو آتيا، أسمع لتلك المواعظ المدهشة، وأشعر وكأنني بدون أن أدري قد تخطيت مسافة من الزمن، ودخلت بمعجزة غامضة، إلى عصر أساطير الأولين، وأنا واقع تحت تأثير زعاق أجهزة "الكاسيت" المستوردة، المطروحة هنا وهناك في "المحلات" والبيوت، وقارعة الطريق أشعر وكأن هذا العالم الكبير، قد استحال إلى دكان "كباب" كبير، وأن اللّه يسخر صبيانه لجمع وإشعال الحطب والفحم، لشي البشر أجمعين، كنت أتخيله - وفقا للبانوراما الصوتية الضاجة في الشوارع- وكأنه واقف أمام دكانه العظيم، وأمامه المحرقة العامة، وفي يده أسياخ الشي المدببة الأطراف، وكل حين يميل ويلتقط حفنة من البشر ويمرر سن السيخ المدبب في كل هؤلاء الغلابة، ثم يضع السيخ العملاق فوق الفحم والحطب المتقدين لآخرهما..

-اللّه أرق من هذا يا جماعة..

-إيه ده!! وليه كده؟!

اللّه جميل وأرق وأرحم مما نتخيل، صدقوني، وباسط نعمته لكل من

يطلبها ويصنع مشيئة الخير فوق الأرض، اللّه القوي، لا ينتظر أن يروج عنه حفنة من الممسوسين، أفكارا لا تخصه، وإنما تخص مرضا راسخا في صدور هـؤلاء، وفزعا نفسيا يشوشر عليهم رؤيتهم للرب الجالس فوق السماء..

..أيضا بفلوس هؤلاء العائدين من أرض الجهاد النفطي، تناثرت في أركان "الحكروب" كما في أماكن أخرى عديدة، الكثير من البنايات الأسمنتية الشاهقة المعدة للإيجار، ولأن تلك الشقق غالية الإيجار نسبيا، وبعيدة عن متناول أهالي "الحكروب" الأصليين، بدأنا نرى ناسا جددا، وهم يرتادون على استحياء تلك المناطق الأسمنتية، وبدأوا يشاركوننا الصعود والهبوط إلى جسم "الحكروب" الكبير، والذي كان في السابق مغلقا علينا نحن فقط.

وهؤلاء الغرباء صاروا يقطنون تلك "الشقق" لرخص قيمة تمليكها أو إيجارها بالنسبة لهم، عما هو موجود في وسط المدينة، بهؤلاء دخلت في صميم الجبل شرائح جديدة، بدأت تتحسس العيش معنا، منهم من امتزج بنا وفينا، نافضا عن نفسه عادات سلوكية معينة، كانت تقف كحجر عثرة بينه وبين التواصل مع ناس "الحكروب" البسطاء، ومنهم أيضا من ظل ماسكا بسلوكياته الطبقية المختلفة، ودخل في عزلته، وانفصل عن نهر الحياة الجاري في منحنيات وزوايا الجبل، وتعايش معنا ونحن علي هامش ذاكرته، متخذا من تجاوره معنا، لحظة استعداد للعودة الحميدة إلى موطنه الأصلي الذي طرد منه لأسباب نجهل تفاصيلها بالضبط..

كان هناك في خارج الجبل، صعود وهبوط، وتبديل أماكن، وصراع

obeikan.com

أكثر عنفا مما يدور هنا بـ"الحكروب"، شرائح كبيرة من الناس كانت تنظر إلى "الحكروب" نظرة دونية بعض الشيء، لكن نفس تلك الشرائح "المتوسطة" حين فرمتها ودهستها، تلك التحولات الحادة، لم يجدوا مكانا يستوعب سقوطهم، إلا "الحكروب" وأمثاله من الأماكن المهمشة، هذا الوضع منح بعض سكان الجبل العارفين ببواطن الأمور، نوعا من الشماتة والزهو والتصالح مع النفس، هذا الوضع وضيق النظرة، جعل الكثير بيننا يشعر بالتشفي والمساواة، وقلة من قاطني الجبل، من فطن إلى أن هؤلاء السكان الجدد، علامة على الانهيار الكبير الحادث في خارج نطاق الجبل، فهو ليس تمددا عمرانيا، أو تحويلا جديدا في مسار هذا القحط الضاغط على عظام المدينة، هو ليس مكافحة ضد الجدب، وصياحا من أجل تأسيس مواقع جديدة من العمار، لا، أنها فوضى العالم الكبير خارج "الحكروب"، هناك في الدنيا الواسعة حولنا صراخ، وبكاء وصرير أسنان..

وقال بعض الحكماء العارفين، إنه سمي بـ"الحكروب" لأن الأرض المقامة عليها بيوتنا مأخوذة "حكرا" من الحكومة، أي بوضع اليد وبدون أوراق ثبوتية أو إجراءات تمليك رسمية أو بيع وشراء من الدولة، الحرفيون والعمال والموظفون الصغار الذين جاءوا من البلاد البعيدة أيام بناء "السد العالي"، ليساهموا في إنجاز هذا المشروع الكبير، سعوا إلى هذا الجبل البكر، واقتطعوا المساحات الصغيرة أسفل سفحه وبنوا بيوتا من الحجارة والطين، حتى يقيموا فيها لحين انتهاء المشروع الضخم، والحكومة تغاضت عن هذا الاعتداء السافر على أرض الدولة، نظرا لاحتياجها لهؤلاءٍ، ولذلك تم بناء أكثر البيوت على

مساحات صغيرة، وعلى عجل وبدون ترو، وأصبحت الشوارع ضيقة وغير مستقيمة وبالكاد تكفي لمرور عربةً "كارو"، وانتهى بناء السد، ولم يتسن لهؤلاء العودة إلى بلادهم وقراهم بعد أن انفتحت في تلك الفترة أبواب أخرى للرزق إلى جانب مشروع "السد العالي" مثل شركة "كيما"، وشركة المصايد الجنوبية، و"الشركة المصرية لتسويق الأسماك"، ومؤسسة الكهرباء وغيرها من مشاريع ومؤسسات واعدة، وبدأ الزحف من السفح إلى قمة الجبل، تبعا لعامل الزمن والكثافة العددية للسكان والفقر أيضا، ومع الأيام تحولت كلمة أرض "حكر" إلى "حكروب" أو "الحكروب"، أي الأرض "الحكر"..

..وهناك رأي آخر يجتره العجائز هنا، وهو أن كلمة "الحكروب" تعني في مدلولها الرمزي، "الحر والكرب" نظرا لتمتع "الحكروب" بحر قائظ في فصل الصيف، و"الكرب" يأتي بما يلاقيه أهله وساكنوه من عوز واحتياج وتهميش على مدار العام، و مع انصراف الأيام والأعوام، دمج العقل الجماعي الكلمتين، في كلمة واحدة هي "الحكروب"..

.. وأنا قد أكون منحازا لتصديق التفسيرين معا، وربما يوجد تفسير آخر ولا أعرفه..

المهم، أنهم جاءوا إلينا ليس من أجل توسيع رقعة الحياة والصعود بالضوء إلى منتهاه البعيد، بل لأن هناك عبثية تضرب كل شيء، وتهشم في طريقها كل القوانين التي صيغت في القديم من أجل حماية الإنسان، أنه ليس تمددا عمرانيا، أو حلا لأزمة سكانية، بل صعود وهبوط غير مضبوط تحكمه الفجائية والضربات الاقتصادية المبرحة، غير المحسوبة العواقب، هو الفساد الذي استوحش، وتوغل في مؤسسات

كبيرة، وصار كالمرض العضال..

..ومازال الساقطون خارج "الحكروب" في تكاثر، تكاثر محير، يعصر الدماغ بالانشغال والقلق على هذا الجسد الكبير الذي راحت تنحسر عنه مساحات شاسعة من الرخاء ليحل مكانها الحسك والعاقول والشوك، إنه جسد كان فتيا كوطن كبير، وها هو يتقيح ببقع عميقة من الفقر الذي انتشر في الأماكن والرحاب كالبيكتريا النشطة، وها هي الأرض الرحيبة التي كانت تشبه وطنا لنا، تتحول وتتمزق، وتختلط بها السمات والملامح بشكل كارثي، إنه العصر والضغط وتكسير العظام الحادث لجمع غفير من الناس البسطاء، والرفص والقفز والتأوه من شدة الألام، إنه المحاولات المستميتة لتجنب تلك الضربات القاضية والاستمساك بآخر خيط للحياة، قبل الانهيار العظيم الآتي..

لكن الذين يسقطون مثلي تحت بأس تلك الضربات، وهم في الأساس "حكروبيين" ، إلى أين يذهبون؟!! الذين يرفتون بلطافة وظرف ويقام لهم حفلات، إلى أين يذهبون بعد "الحكروب" ، أنه الجبل الأخير هنا!

كان صدري قد بدأ يحرقني بعض الشيء من شراهتي في التدخين، لكن رائحة النتانة مازالت بداخلي، وتعوق إحساسي بالنظافة، قبل أن أدلف إلى بيتنا، عرفت أنني سوف أمكث كثيرا هناك، بين جدران بيتنا الواطئة، لذلك اشتريت الكثير من الصحف، والمجلات، والسجائر، وتهيأت لانفرادي بنفسي، قلت إنه مساء للخير يا أمي، مساء للخير يا "صبحية" ، ودخلت غرفتي عازما على عدم الخروج، وأغلقت الباب، ومن بعده الشباك الضيق، ومن جديد احتضنت في صدري بعض ما اشتريت من دخان..

ونزعت كل ما أملك من ثياب، أشعلت مروحة السقف فجاء الهواء وفيرا لكنه لم يتنازل عن سخونته، وتمددت ولم أستطع القراءة كثيرا، فقط اهتممت، بالمانشتات الكبيرة، الحمراء، وقرأت الأبـراج، كل الأبراج كانت تبشرني بمستقبل باهر، فأصابني الفرح، فرحت، تعمدت أن أكون ساذجا، وطيبا، وصبورا، حتى أهرب من الدخول إلى دماغي الخصوصي، إلى ذاكرتي، لكنه حصل، وأقبلت على سفر طويل إلى الوراء، كان دوسيه أوراقي بجانبي على الفراش، وكذلك الشيك البنكي المؤجل الدفع، وكنت داخلا بحمية في وحدتي الخاصة، وفي خصام مع الوسع الخارجي، وخائفا دون مبررات واضحة، وخائفا جدا جدا من الدنيا الكبيرة التي لا تزال ماثلة هناك، وخائف من كل الناس، وكامشا في بعضي وأنا جالس في الغرفة بين كتبي، وأوراقي، وأشيائي القديمة، وذاكرتي البالية، وأخشى النظر من النافذة الضيقة، رفعت " الدوسيه" المنتفخ بأوراقي، باهتمام وتفحصته للمرة السابعة، وتأملت "الشيك" باهتمام أيضا، أخيرا وضعت كل ما يخصني من أوراق فوق المنضدة الكبيرة، بجوار الكتب..

في الليل قمت من نومي فجأة وتملكني خوف، اقترب من حد الفزع، وجسمي كـان يرتجف بـردا، ويقطر عرقا في ذات الـوقت، تسلقت الحائط، ودست فوق مفتاح النور، ثم أبطلت المروحة وتابعتها حتى توقفت أجنحتها الكبيرة عن الدوران، في عز الصيف استطاع البرد أن يفتح أنفاقا صاعقة في أخمص قدمي، كنا في "مايو"، قمت وأغلقت الشباك بصرامة، وقعدت بمفردي في مواجهة صقيع انتعش من حولي وازداد فحولة، بـدأت أحس بالبرد الشديد وهـو يخفض من صوت

الحياة في روحي، ويقيم الألم في كل اللحم المنتشر في أنحائي، لم أبالِ بالبرد الفجائي، وتفرغت لمواجهة خوفي الكبير، وتلك العفونة العالقة بخياشيمي منذ الصباح، ولم أفلح في صد هذا، أو زجر ذاك، واستمر توغلي في رأسي الشخصي، والخوض في ذاكرتي حتى جاء الفجر، استمر جزعي في صعود، هربت من كل هذا المناخ الداخلي المعذب، إلى أشيائي البالية، ورحت أقلّب في أرصدتي القديمة، وفتشت في محتوياتي الداخلية بغير ترتيب، وأتيت بالقديم والجديد، وقعدت أحاسب نفسي، وأحاسب الآخرين، وأحاسب الزمن الذي عدى، والزمن الماثل بجثته أمامي في هذا الصباح الجديد، وأتأمل المقبل من الأيام، وماذا سيكون شكلها وهي تقابل كل تلك البلادة التي تتنطع بخيلاء فوق كل شيء، ووصلت إلى قرارات فاصلة لابد وأن ألزم نفسي بتنفيذها فيما بعد، وساورني الشك اللعين في مقدرتي على تنفيذ ما نويت اتخاذه من قرارات..

كان الصباح، وكان المساء.

وكان ..و..المساء.

وكان الصباح، وكان المساء.

في الغروب الأخير لعزلتي، حدث التالي:

(16)

بوصول جحافل "الحكومة" إلـى ميدان الاشتباك الدامـي، أطبق صمت عميق على الجبل، وعملت الشرطة باجتهاد لتنهي الأمر، وبعد انصرافها بدقائق، بزغت تداعيات وتوابع جديدة للاشتباك، عربات الشرطة أخذت في صندوقها الحديدي الكبير عددا من المتعاركين، وتبقى أذنـاب قليلة للصراع تفرقت هاربة، إلـى أن تتاح لهم فرصة العودة حين يكون المكان آمنا، وتبقت أيضا "نادية" وابنتها، بعد أن استطاع أحد الشهماء العاقلين، أن يقنع الضابط، بأن المشكلة تخصه هو ومن معه فقط، وتم حذف المرأتين فعليا من المشكلة، حفاظا عليهما من الأخطـار التي قد تواجهما من مغبة الدخول إلـى قسم الشرطة، ومثل الشعرة من العجين، خرجت الاثنتان من المعركة التي تسببتا في قيامها وسالت فيها الدماء.

قبل انصراف الحكومة من حارتنا، أنفق رجالها الأشداء كمية كبيرة من اللعنات الطائشة والضربات المدربة التي لا تقل في قسوتها عن منتجات المعركة التي استدعت مجيئهم إلينا، وكأن من أسرع واستنجد بإبلاغ الشرطة أراد أن يطفئ نارا بنار، أشد لهيبا وافتراسا..

أخيرا وهم يوشكون على الانصراف تركوا تحذيراتهم لنا بالانضباط

obeikan.com

والخضوع لحظر التجوال، وكما تركوا تحذيراتهم وسبابهم تركوا أيضا سيارتهم الميري الضخمة لدقائق وهي تزمجر في المكان لتغدق علينا ببنزينها المحروق وتضعه كسُم بطيء في أكبادنا..

حين اكتمل انصراف أفراد الشرطة من الجبل بدأ أذناب المعركة الخفيون يسعون من جديد للظهور والدخول لمتن الخلاف الذي نشب وتناسوا كل البطش والتحذيرات التي كانت، وأسرعت "نادية" والتجأت إلى مقاطيع الجبل، الساكنين في أغواره البعيدة هربا من المتابعات الأمنية، التي تسعى للحصول عليهم، وأخبرت كل من كان يمشي أو يقف، كل من كان كبيرا أو صغيرا، ميسورا أو معدما، بأنها ستنتقم من الجاني، بل ستدمي من تسول له نفسه الخوض في مقدسات ابنتها بالذات، فقد صرخت بافتراء، وأعلنت أنها لسوف تربي "الحكروب" كله، وأكدت أنها بفلوسها ستجعل الجميع يرون نقمتها وجبروتها، فهي وابنتها ليستا بالضعف الذي يعتقدونه، وحلفت برحمة أبيها "مقاول الأنفار" بأنها سوف تجعل الدم للركب، وكل من كان يظن أنها وابنتها طيا منسيا فهو خاطئ وجاني على روحه، وسيفتح بغفلته تلك، بوابات جهنم على نفسه وعلى كل أهله.

ونفخت الروح في المشكلة ثانية، وجاهد "صياع" الجبل المحترفون، بطلاقة كي يتبنوا القضية عوضا عن "نادية" ونجحوا في ذلك، وتلألأت آفاق جديدة للخناقة الحوشية التي عادت تصدر صخبها في الأنحاء، ولأنني كنت أعرف تصرف أمي في مثل هذه الحالات، كنت مطمئنا وأنا في فراشي لحسن أدائها، فهي بالضرورة عند انبلاج أول شرارة للتشاجر والتشابك، أغلقت برميلي "الجاز" بالقفلين الكبيرين، ولمت

فرش البضائع وقدر الفول المدمس وأرغفة الخبز البلدي، ثم أدخلت الجميع إلى الدكان الصغير الذي اقتطعته من صالة بيتنا، وأقفلت باب الدكان بإحكام، وانسلت هي و"صبحية" إلى داخل البيت وردت الباب بالترباس الحديدي الكبير.

مللت مثل تلك المعارك التي تنشب من حين لآخر في أنحاء "الحكروب" لأتفه الأسباب، وقررت عدم الخروج، وأنا مالي، فليذهب الجميع إلى الجحيم، وأنا ممدد على الفراش كنت أتابع وقع الأمور في الخارج، وأحدد أصوات الأشخاص المتعاركين، وأحاول أن أتوقع ردة فعل كل منهم، فهذا صوت مصطفى الحلاق والذي يمتهن السرقة أكثر من امتهانه مهنة الحلاقة، وهذا ملاك "القمرتي"، الذي يجمع زبائنه كل ليلة أمام بيته ويلعبون القمار على ضوء لمبة الجاز، وهذا "سمير" الملتحي الذي فشل مرارا في الثانوية العامة، وأخيرا وجد ضالته ونجاته وعزته في انضمامه لإحدى الجماعات الدينية الخبيئة في الجبل، تلك هي فرصته السانحة التي يتصيد فيها الخلق ليضخ مفاهيمه القاصرة، وذاك عم عبادي صاحب دكان التموين الذي أزيل نصف دكانه في التوسعات الأخيرة التي طالت الشارع العمومي، وهذا علان، وذاك ترتان، وهذه هي الحادثة، إنها حفلة ترفيه حي ونابض لبعض مدمني الفرجة.

وكان صوت أحد الرجال يلعن "نادية" وينعتها "بالعاهرة"، لتنفجر بصوتها الرنان وتلكم الرجل بكلمات فاضحة تمس صميم ذكورته، لكنه عاد بثبات وذكرها بفحولته معها، وأعطى للجميع إمارات وعلامات محددة في أماكن حساسة من جسمها، لكي يؤكد أنه نالها

وناكحها سرا، وبالتالي ليس هناك داع لمعركة الشرف التي خاضتها هي وابنتها، وأوقعت العائلات والرجالَ في حبائلها، وأخرجت أيضا قطاع الطرق والبلطجية والعاطلين ومروجي المخدرات، من كهوفهم بالجبل.

وعاد الرجل ليذكرها بأماكن لقاءاتهم الحميمية، و"الجرح" الطولي الموجود في أسفل بطنها، و"الخال" الصغير العالق بفخذها..

أمشي يا وسخ يا كداب.

ـ مش فاكرة يا بت؟ آه..

ـ ده أنا أشرف من مراتك يا عنق.

ـ عيب كده يا ناس!!

..ولدهشتي وذهولي الكبيرين كانت تلك العلامات التي ذكرها الرجل صحيحة تماما، فأنا من سنين أعرف تفاصيل ذلك الجسم الأبيض اللدن بغير شبهة زور، فهي تسعى لطلبي كلما تيسر لها ذلك، وتغدق عليّ بأموال زوجها المسافر في البلاد منذ وقت طويل، وفي كل مرة تختلي بي تعلن أنني الوحيد الذي يلمسها ويعبث بلحمها في غيبة زوجها، كيف إذن انتشر خبر عهرها هكذا على الملأ؟!! في حين كنت اعتقد منذ تعارفنا، أنني استعمالها الجنسي الوحيد، كنت أعتقد أنني الوحيد من بين الرجال الذي تتعاطاه في الخفاء، خلسة، "نادية" غررت بي إذن، كما غررت بي "هالة" قديما! ترى هل عالج "نصر العتطجي" صدر الست "هالة" من فطر "التينيا"؟! أم تراها استطاعت أن تستمر صخرا كما كانت معي، فمات الفطر من تلقاء نفسه، شفيت من "التينيا" حين

تفلتني من قلبها، وسكبتني من عروقها، من علمك يا حلوة، أن تقتليني بجودة هكذا، وتتنازلين عن براءة كنت أحبها فيك، وتتحدين مع الرداءة ضدي!! يعني أنت الآن مبسوطة يا ست الكل، مرتاحة بدوني!! مع ألف سلامة، كنت أظن أنك أصبتِ بفطر "التينيا"، ولم أكن أعرف أنك أصبتِ بي، فسعيتِ للتخلص مني!! أنا فطرك اللعين الذي أصابك في القديم..

- إحنا مش مقسومين لبعض.

-عارف والله، عارف..

(وكأنه البارحة)

..ودخلت إلى اختلافها، وتحولت، وصار كل ما مسسته منها ناشفا وقاسيا كجبل ضخم، وكنت مساحة مفتوحة من لحم يسعى ليمسك بروحه، حتى يستمر حيا، وصارت عملاقة كنهاية، وجميلة كدنيا، وصلبة كقدر يجب أن يدوسني، ويدكني ويحيلني إلى خيط رفيع من ماء ودمع لا يكفي لأن يكون نيلا راحلا في طول الأراضي وعرضها، منه لله الانفصال المبين المقدر على الواحد كحزن، والله يسامح الاكتمال البعيد، البعيد الذي لا يأتي، في القديم، لمت "هالة "نهديها من قدامي، وقالت: "إحنا يا جمال مش مقسومين لبعض ... "، وصارت عرافة تتنبأ بالغيب البعيد، وخارقة، تجتاز المسافات بسهولة، وغادرتني، وجاء الخال صالح بالذهب الصغير المستدير، ورماه في وجهي ومضى..

..إذن "نادية" تلك البيضاء تشبه "هالة" في أشياء.

هالة شاركت شخصا آخر في روحها، وأنا ببساطة كنت أظن أن روحها

obeikan.com

لي وحدي،

إذن"نادية" مثل "هالة"..

ونادية تشارك آخرين في جسمها، في حين كنت أتوهم أن جسمها لي وحدي، كل السنين التي عدت، وأنا أعتقد أنني الذكر الوحيد في حياة "نادية"، أنها الخيانة داخل خيانة، الخيانة الملتفة، هي تخون زوجها عبد الكريم معي، وتخونني مع آخرين، مجموعة خيانات مرتبة، ومتساوية مع غريزة الغدر التي ندسها في الطوية.

كلنا أيها الناس جلادون قساة، ومهرة في إعلان براءتنا وتسويقها بين الناس، ولا نخجل ونتمادى ونمدح أوجاعنا ونعززها، ونحكي عنها كثيرا للآخرين، ولا نشتبك في براءة حقيقية نصنعها لأنفسنا، أنتم مثلي بالضبط تثرثرون عن كذا وكذا وكذا، الصمت مقدس وطاهر، والمضي في طريق التصميم لنفعل براءة كاملة، أطهر وأقدس، أنتم لم تروا شيئا بعد، سوف أمضي في الشكوى للدجى مثلكم، ومثلكم أيضا، قد لا أصنع فوق هذه الأرض أي فعل، نحن نستكين لمدح العذاب، ننحاز للألم،

(إنتو لسه شفتوا حاجة؟).

كلنا نؤسس في الجبل جذور الخيانة، ونغرس سن الألم في مسافات الشعور، فنبكي متأثرين بصدق، ونصرّ على أسناننا، في حين سبابة كل منا مغروسة في عين الآخر، من منكم بلا خيانة صغيرة فليلقيني بطوبة!!

إذن أما آن الأوان يا صاحب الغيبة الطويلة لتعود وتكره "النفط"

قليلا، وتحب زوجتك "نادية" كثيرا وتدرك ابنتك الوحيدة التي جاءها المخاض منذ وقت؟

إذن أنت حر في مالك ولحمك!! أنت حر تماما يا "عبد الكريم"..

إذن تلك البناية الشاهقة، هي مثلها مثل "نادية" زوجتك يا طيب، الاثنان أصبحا مناسبة طيبة لتحريك شهوة الألسنة واجترار الكلام، تلك بضخامتها وعلوها واتساعها وألوانها الزاهية المبهجة، وهذه بجمالها، الأنثوي، واحتياجها الفطري لأمور سرية ينبغي علينا أن نقضيها لها كلما تسنى لنا ذلك، ثم جاءت العربة "البيجو" التي جلبتها معك من البلاد، وجعلت الحوار مرسلا من الجمع، بخصوصك وخصوص عائلتك الكريمة، ولما أجريتها على الأرض بأمرك، لتزيد من ريعك ومن رزقك، أكملت تفاصيل الرواية، فامتزج حرمان الناس وغلهم وأحلامهم الصغيرة، ضدك، وصرت مثالا للنجاة والخلاص الذي يبحثون عنه، لكن دائما الخلاص الكامل يا رجل يأتي بثمن فادح، فادح، وبفاتورة لا يقبل الضعفاء سدادها..

..كنت أعتقد أنني الوحيد الذي يقوم بهذا الدور، لكنني اكتشفت فجأة، أن هناك آخرين يتعاونون معي لإتمام هذا الدور، هناك من الرجال الأصحاء، من يقومون بسقي أراضيك العطشى يا مجاهد، وأنت لا تحس ولا تدري، وحين كنت تأتي إلى الجبل في إقامات قصيرة سريعة كنت تعتني بإقامة الخرسانة في الفضاء ورفعها إلى الآفاق، ثم تجلس في آخر النهار وتشرب "المعسل"، وأنت في تباهٍ ومفاخرة بالمسلح، ولم تكن توجه القدر الكافي من اهتمامك للعطش المستشري في أبنية اللحم والدم الساكنة بداخل الأسمنت الكبير، يا بني آدم حتى

وأنت جالس تدخن الشيشة، أمام عمارتك ومعك جيرانك القدامى، كنت أحيانا أصعد أمام عينيك، وأصلح لك الأشياء التالفة في بيتك، وأنت لا تحس، أو تدري! هل هذا كلام يصح يا رجل؟!

أنت حر فيما تفعل يا "عبد الكريم" ولك ما تريد يا رجل، وابني ما شئت من مسلح وأسمنت وخرسانة، ودع أراضيك للعابرين وأبناء السبيل، لكن "سوسن"، الحق "سوسن" ابنتك الصغيرة، الحقها قبل أن تبدأ هي أيضا في إصلاح أشيائها التالفة..

الله يسامحك يا مسافر على ما فعلته مع "سوسن" وأمها.

(17)

..وضع "حسن" الكوب أمامي على "الترابيزة" الصغيرة، ونبهني لحضور الشاي الذي طلبته منذ قليل، وانصرف إلى زبائن آخرين متواجدين بكثرة في "الغرزة"، وكنت سارحا في أمور شتى، وأمرر بصري بقلق، عبر باب" الغرزة" المفتوح لنصفه، وأتابع ليل الخارج، متحديا ظلام الشارع الضيق، وأتفرس في أشكال العابرين، وكلما مر أحد، كان ينظر للداخل بعمق، وهو سائر، وحينما يتبدى وقع أقدام جديدة قادمة، كنت أجزم، أنه "جرجس"، وكان لا يجيء..

من وراء "البوفيه" المتواضع رنت لي "أم حسن"، كانت تضع ملاعق السكر في مجموعة من الأكواب الزجاجية المتراصة، أمامها على سطح "البوفيه"، وخاطبتني وهي ترفع البراد الكبير من فوق الموقد، صهد الشاي المغلي، جعلها ترجع برأسها قليلا إلى الخلف، لتتحاشى البخار المتصاعد بكثافة لحظة أن أمالت بوز البراد إلى ناحية الأكواب وشرعت في ملئها، كان صوت الخرير الواطئ للشاي، مميزا وسط الطرقعات المتكررة لقطع الدومينو، وتدحرج النرد السريع من أيدي الرجال إلى جنبات الطاولة.

- متقلقش ح ياجي!

- متأكدة؟

- كل يوم لازم ياجي يمضي حضور هنا.

وابتسمت بسمة ذات دلالة، فهمتها جيدا، وكانت تتكلم بثقة العارف بشؤون الحبيب، وكنت أدرك أن "أم حسن" تفهم تصاريف وتحركات "جرجس النقاش" أفضل مني، فهي بعد مقتل زوجها الضمراني، منذ أعوام، أقلعت عن فعل البغاء الذي كانت تمارسه معنا ومع غيرنا، وأقلعت عن الذهاب، لسوق الخميس والجلوس أمام المستشفى الإنجليزي القديم، لتبيع الجبن القريش ولتتصيد زبائنها أيضا، وأمسكت بزمام "الغرزة" وأعادتها للحياة، ولما شب ابنها "حسن" وكبر، وقف معها ليساعدها في إدارة الغرزة.

...أطل من الباب، بطوله اللافت للنظر، وانتشرت في فضاء المكان المملوء بالضجيج والدخان، رائحة البوية والدهانات النفاذة، كانت ثيابه متسخة بالعديد من الألوان، وهو قادم نحوي كانت تتناقص في أنفي رائحة "الحشيش" و"البانجو" و"المعسل"، قبل أن يصلني، توقف لفترة وسط الغرزة، وتملاني جيدا وكأنه يبحث عن شيء مفقود فيّ ثم ابتسم، كان قد ازداد عوده لحما عما قبل، السمنة المعتدلة أعطته قدرا من الوسامة، لم تكن بادية عليه عما قبل، وفي تقاسيمه الودودة تنام راحة بقدر إنسان كامل، وجد مبتغاه في هذا العالم البخيل، كان أكثر دعةً وهدوءًا، وثقة، وفاتحا صدره للدنيا، ومقبل بحماس إلى اتجاه يريده بقوة، كان جرجس دوما شخصا عاديا، لا نستطيع أن نكرهه، أو

obeikan.com

نحبه حبا جارفا، لكنه كان أحد الهامين في شلتنا..

وهو يخطو نحوي، لمحت فيه جرأة لم أتعودها منه، وبهاء يكاد أن يسقط كضوء قوي من عينيه، لم أره منذ شهور، تغير جرجس، تغير للأفضل، وحب التواصل أطل من كل ملامحه وكان أكثر نضجا، وهو المأفون دوما، ويعيش يوما بيوم، ولا يطلب من الله إلا طعاما معقولا يشبعه، وأشياء أخرى سرية، وسجائر بحجم سهراته التي يبدد بها وحدته، ولباسا بقدر أيامه لا أكثر، ثم رنا إلى "أم حسن" ولم يلق لها بتحية، فعاجلته بالسؤال:

ـ اتأخرت ليه؟ إنت أكلت؟

ورفعت بيدها، لفافة، موضوعة في كيس نايلون شفاف، وعلى جوانبها بقع من زيت الطعام، أشاح باتجاهها بلا مبالاة مصطنعة، وكأنه لا يهتم، وكانت تعامله كزوجة، وكان يتلقى اهتمامها بنوع من الابتهاج والرضا الطفولي، كيف وقع في عشقها هذا الأحمق وهو المدرب الخبير في شؤون النساء!!، أحسست بصدقها نحوه، كانت تمارس عملها من وراء البوفيه الصغير، وهي تحط عينيها عليه كمستقر أخير، وجاءني واحتضنني بحرارة، ومثله فعلت، وجلسنا على الكنبة بقرب بعضنا، وتطايرت منا كلمات تعبر عن اتساع مدة الفراق..

شوف الدنيا يا اخي!! فاكر يا جمال؟!

وحد يقدر ينسى، يا جرجس.

ـ مكنش يعدي يوم مانتقبلش فيه، أنا وأنت وباقي الشلة، فاكر!!

openikan.com

ـ أيام حلوة..

ـ رحت لك الدكان.

ـ أيوه قالولي في البيت.

ـ، ليه يا جمال متردش عليّ لما برن عليك؟

ـ أصله، واللّه..

ـ ده أنا يا اخي هريتك رسايل على الموبايل، وأنت مطنش.

ـ واللّه مكسوف منك يا نقاش!!

وظهر على قسماته ارتباك وحيرة وخجل، وأبعد عينيه عني، ورفع ذراعه بطولها، وطرقع بأصبعي الوسطى والإبهام، ووجه الصوت والذراع ناحية النصبة، وطلب لنفسه، كوب شاي، رأيت "حسن" الواقف بقرب الباب، يسرع إلى "جرجس" بالنظر الحاد، ثم أرسل صوته الغضوب المحتج إلينا، وكأنه يتربص بجرجس، ووجد تلك الإيماءة الموجهة إلى أمه سببا لبدء العدوان، تقلص وجهه الضامر، وهو يكلم جرجس بغل واستنكار:

ـ ما أنا قدامك أهو يا أسطى.

ـ إيه ياد يا حسن مالك كده؟!

ـ أيوه أنا مش مالي عينك!

كبر "حسن"، كبر من كان يلعب بأحذيتنا وأعقاب سجائرنا، وهو جالس أسفل السرير ككتلة من لحم نيئ، وأمه معنا فوق الفراش وتساعدنا في

الوصول إلى ذروة نحتاجها، وتشاركنا فوراتنا المتعاقبة، وتسكت في أنحائنا الموحشة عواء الجسد، ولأول مرة ألاحظ، خطا من الزغب أسفل أنفه، شعر خفيف، يستعد لأن يكون شاربا صريحا في المقبل الآتي، وأحسست بخطر داهم على صديقنا "النقاش"، في كل جدالاتنا السابقة بخصوص علاقته بـ"أم حسن" رتبنا مجمل الأخطار التي قد تداهم "جرجس" وحبيبته، وفصّلناها واحدة واحدة، فيما عدا الخطر الذي قد يأتيه من الابن "حسن"، كنا لا نضعه في اعتبارنا، ونلغيه تماما، من فرط إحساسنا بأن "حسن" مازال ذلك العيل الذي كنا قديما نلهيه، بقطع "اللبان" و"العسلية" وبواكي البسكويت الصغيرة، ولم نلحظ أنه كبر، وشب، وصار يمكنه أن يصنع مخاطرة غير مأمونة الجوانب لمن يقترب من حريمه، الرجل الصغير، الذي تجسد قدامنا فجأة، أربك مناخ الدخان والضجيج في الغرزة، وصار هو الانتباه الوحيد في المكان الضيق المزدحم..

- ماليكش كلام معاها!!

- الواد ح يعمل عليا دكر!

- والنعمة يا حسن بس نروح، حاضر.

في ذلك الوقت، صارت المرأة هي الغوث الأخير لـ"جرجس"، فقذفت "حسن" بكنكة القهوة المملوءة، وتوعدته وقتما يجمعهما البيت، ولعنت أباه، القتيل، وبصقت عليه، وأمام انفجار الأم الغاضب، راح الابن يتراجع ويعود تدريجيا للصبي الذي كانه منذ قليل، وخضع بصبر لثورة أمه العارمة.

هي في الظاهر، وأمام الناس، كانت تدافع عن "زبون" قديم للغرزة، وأما في الخفاء، فهي تنجي من بين يدي الصبي، شيئا خاصا بها وحميم، شيئا كاد ابنها الصغير أن يفتك به، ويتلفه، كانت في واقع الأمر تعلن لـ"جرجس" تبرؤها، مما فعله رجلها الآخر الصغير، وعدم موافقتها علي إقحام أي أحد فيما بينهما حتى وإن كان هذا الأحد، هو قطعة كبيرة منها، وبحجم ابن كبر، وصار على مشارف الرجولة الكاملة..

وكان جرجس بجانبي مبغوتا مثلي، وكأنه لم يكن يتوقع مجابهة مثل تلك التي وقعت مع "حسن".

.."حسن" ذلك الشيء الصغير المهمل الذي كان محطوطا فوق أرفف النسيان، ها هو ينفض الغبار الثقيل من فوق نفسه، وينط من فوق النسيان ذاته، ليسقط بلا انتباه من أحد، إلى وسط العلاقة السرية التي تربط بين أمه وبين "جرجس النقاش"..

وذراع الزمن عفية وقادرة على عصرنا، وإصابتنا باختلاف يأتي إلينا كفناء لئيم يدخلنا وئيدا فلا نحسه، ولا نرغب فيه، ولا نحب أن يحصل لنا، الزمن لص، لص يتسحب إلى مقتنياتنا الشخصية بجرأة و بأس، هو قاطع طريق، ميت القلب ولا يرحم، وتكون شراسته قاطعة، وواصلة لحدودها البعيدة، عندما نطفئ أنوارنا الداخلية، ونترك باب الفناء الخلفي بغير حارس يكد ويجاهد من أجل تقليل خسائر القادم لاحتلالنا، "الوقت" سارق كبير، ومخضرم، وفاهم كيف يثقبنا من الأعماق لتتسلل من بيننا أشياؤنا النفيسة وتسقط على الأرض، نقطة، نقطة، وقطرة، قطرة، ومن يا غالي يبدل في مواقع تفاصيلنا الدقيقة

غيره، ومن يا روحي يعبث بالترتيب الذي كنا أعددناه من قبل إلاه، إنه غفلتنا الحقيقية، وعدم الانتباه، وإلا كيف لم نتنبه بأن الشيب تسحب إلى شبابنا، وأيضا عوامل الرجولة بدأت تمضي في طريقها نحو الصغير "حسن"!!

وتحرج "النقاش" من الجميع هنا، ومصمص شفتيه وحاول أن يبدي استخفافا بالذي صار، وتشاغل بإخراج سيجارتين منبعجتين، ومحشوتين بالمزاج، وأعطاني واحدة، أخذت السيجارة، وغرستها في فمي، وكلمت "حسن" كلمات قليلة، وأنا أمسك طرف لفافة التبغ بأسناني، وقام "جرجس" ثم جلس، بعد أن أخرج من جيب بنطلونه "مشط كبريت" متهرئ، ومال عليّ، وبصعوبة استجاب "عود الكبريت" الثالث واشتعل بين كفيه..

- عيب، عيب كده ياد يا "حسن"..

وكان الدخان العبق يعلو ببطء بيننا، ويزيح بعناء بعض من رائحة الطلاء، التي كانت تأتيني ببذخ من عند "جرجس"، وجاءت "أم حسن" من وراء البوفيه، وهي تضرب برفق على صدرها النافر إلى الأمام، كانت تؤكد أسفها على ما فعله ابنها، وكان "جرجس" يرنو إلى الأرض صامتا، ورأيت في عينيها تجاه صاحبي حنانا بقدر ندم كبير، وخوفا من فقدان أمن، تشعر به لأول مرة وقد لا يتكرر، رفع ناظريه إليها، وتقابل العاشقان بقربي، ورأيت حبا صريحا يتدفق ويموج ويرتطم ويثور، ويضغط ويرتب ويختصر كل العالم، ويضعه في نصف المتر الفاصل بينهما، وذهبت أدقق في وجه المرأة الأربعيني، لأجد السبب الحقيقي الذي دفع صديقي إلى أن يبدل صنف العلاقة التي

كانت تربطه بها في السابق، ليمشي من جديد نحو تلك المرأة، عبر طريق أكثر وعورة، فوجدت أخرى لست متأكدا من أنني كنت أعرفها، كانت أكثر منه في اختلافها، كانت قد غادرت تلك المرأة الجسدية القديمة، وبدت في وقفتها أمام "جرجس" كعملاقة تبحث لنفسها عن مصير يرضيها ويساندها ضد الزمن اللص..

واستمر جاثيا أمامها كنيل يتلهف لأرض كي يسقيها..

..وكنت بينهما خيط صغير من ماء، هجرته أرضه من زمان وراحت لغيره، لكي يروي غليلها الجبار..

-يا جماعة، "هالة صالح أسطفانوس" هجرتني في سنة 1990 م..

بالضبط سابتني "هالة صالح أسطفانوس" في 1990/2/17،

ومن هنا يا جماعة تسربت الشقوق في الواحد، وكسب التعب مساحات جديدة في القلب، وصرت بغير امرأة خاصة تطبطب على الروح وقت أن تمرض.

وكان بجانبي أربع عيون تصطك بحمية ببعضهما البعض وترمي بشرر من الضوء القوي، وتتعانق، وتعالج الأماكن القاحلة في الآخر، وانبعث من الجسدين دفء أحسسته ورائحة لا أشك في أنها جاءتني، وكانا مثل مخلوقين خفيفين يحاولان أن يشطبا انفصالهما ليكتملا معا، كانا مصرين أن يلغيا قرارات صارمة، صدرت ضدهما، تريد أصابتهما بالابتعاد والذهاب كلٍ في اتجاه، ولأول مرة اقترب من تخوم علاقتهما إلى هذه الدرجة، وألمس بقرون استشعاري مادة اللوعة والشوق والتهدج والارتباط الوثيق هكذا، ولأول مرة أجد بعد خالي "وصفي" وزوجته

"هنية" اثنين يصعدان إلى العشق النقي الشفيف، كانت ثواني قليلة، رأيت فيها وأحسست وشممت الكثير والطيب، وقدّرتهما كما يليق، وأحببتهما كما ينبغي، ورأيت الولد / الرجل، يحدج بعداء مستحكم لكل هذا الحب الذي لاح بيننا نحن الأربعة، ولم يلحظه بقية الجمع الغارق في لوثة الدخان واللعب، والتعارك من أجل من سيدفع الحساب، وهمست لـ"جرجس" حتى نخرج من "الغرزة"، كنت أريد تخليصه من الحالة الجارفة التي دفعت به لإفشاء نفسه هكذا على الملأ، كان لزاما عليّ أن أحجم كائن الكره والتربص، الذي برز بتفاصيله الكئيبة من عين "حسن"، ذلك الطفل، الذي لم ألحظ أنه كبر، وبقي بمقدوره أن ينتج خطرا، ويستعمله مباشرة في كسر هذه العلاقة..

- إيه يا بشر، حصل خير..

...

...

- يللا بينا يا جرجس عايزك برة..

إلى أن وصلنا إلى هنا، كان مستغرقا في سكاته، وينظر إلى حذائه الكالح وهو يسير معي، ويهبط بخطواته على الأرض الصلبة بهمس فلا يصدر منها وقع، وتبدد حضوري في رأسه، وسيطر عليه حضور "حسن الضمراني"، يبدو أنه يفكر في ماذا يفعل معه، وكيف يواجه هذا العفريت الذي جاءه من خلف ظلام النسيان، وكيف يواجهه ويعيده إلى القمقم الصغير الذي كان محبوسا به، وكيف جاءه التوجس والإحساس بالخطر من أقرب مكان في علاقته بـ"أم حسن"، بل من

الركن المهمل والمعتم والصغير، وكان يلوم نفسه من تلك الغفلة، هكذا حللت صمت جرحس، وهو بجواري ويسير في وسط ميدان "الحنفية"، ومشينا بحذاء ترعة "كيما"، الماء الحمضي القادم من مصنع "كيما" يجري مرحا إلى النيل القريب، والنيل سيد الكل، يفتح حضنه لإساءات الجميع، ويبارك أفعال الجميع، وإلى الآن لم يكرهنا، الماء أسود تماما، وكئيب، وله رائحة كريهة نفاذة، و"جرجس" أخيرا تكلم وهو مازال يراقب خطواته.

- بحبها يا جمال، بحبها،

- مش عارف أقول لك إيه؟!

-كنت عاوزني في إيه يا جرجس؟!

وحاولت أن أبدل مواضع اهتماماته، وأن أخلط المواضيع ببعضها ليعود إليه هدوؤه، ولم أفلح، وكأنه لم يسمعني، كان سائما ومحتارا، فقط استطعت أن ادخله إلى صمته ثانية، وتمنيت ألا يكون فهم سؤالي المباغت، كنوع من عدم اهتمامي بحاله..

ـ .. أنت عاوز الـ 1000 جنيه مش كده؟!

وكان صوت خرير المياه الجارية في الترعة، عاليا وقادرا علي إقحام تأثيره في صمتنا وصمت المكان، ونقط صغيرة من النور، تتلألأ في المسافات المقبلين نحوها، كنا نمشي بغير اتفاق، أو هدف باتجاه "الجُزيرة" المتاخمة للحكروب من جهة الشمال، والقريبة من مدخل المدينة، وكلما تمادينا في مغادرة جسم الحكروب الكبير العالي، كلما

تماسك وقوي الضوء الذي هناك، تقريبا كنا نذهب للنور البعيد، تقريبا كنا نصاحب الماء الجاري بقربنا، أثناء ركضه إلى النيل، ويبدو أننا نريد أن نحترق بالضوء القصي، هناك في أطراف المدينة، أو قطعتان من وسخ تجرفهما المياه إلى النيل الكبير ليغتسلا حتى التطهر، كان يهاجر من الليل والناس إلى الرحابة، وأنا معه أشاركه في رحلة النظافة المؤقتة، ويبدو انه مثلي، كان محتاجا لأن يغتسل في مياه النيل..

لكن من المؤكد أن "جرجس" يريد أن يرتاح قليلا ليجهز نفسه لبواعث صدام قادم، قد يبدد منه الحياة ذاتها، أو ربما قد ينتصر في قصة عشقه الغريبة، ليخلق في أنحائه معاني أكثر بهجة، ليس للحياة معنى أو قيمة بدون تصادم هادف، وهل لأن جرجس طوال حياته وحيدا وحياته تكاد أن تكون بلا أعباء أو أهداف، أراد أن يخلق لنفسه سببا جديدا ليحيى من أجله؟ أراد أن يخلق صراعا بحجم حب كبير، وضع نفسه في مأزق مصيري وذهب بمفرده ليحارب طواحين الهواء؟ أم هو نوع من أنواع الانتحار الأختياري؟!! وربما تكون المسألة بسيطة أكثر مما نظن، هو أحب المرأة وفقط، أحبها وأراد أن يكون لحياته الفارغة معنى، وما قيمة الحياة بدون معنى ما يسعى الشخص لتحقيقه، المعاني تحفز وتشحذ غريزة البقاء وتخلق أسبابا قوية وجيهة للاستمرار في هذا العالم، إذن هو يريد أن يعيش، ولا يريد أن ينتحر..

ـ مش عارف أوصل لحل!!!

وكنت في كل الاحتمالات أتعاطف معه، ولا أجرم ما فعله، وأخرج سيجارتين من جيبه لهما نفس الانبعاج السابق، وتكلم معي بحرج، وطار الدخان إلى فوق بسرعة وتبدد، كان الهواء يشاركنا مزاجنا،

ويقتنص كل دفقة دخان ننفثها في الفضاء ببطء وتلذذ،

-أظن عداني العيب يا جيمي!!، وأنا مزنوق والنعمة..

- اديني أسبوعين تلاتة يا جرجس..

- تلاتة!! لأ أنت كده حتنساني..

- أنساك لأ طبعا..

- الشغل واقف ومزنوق واللّه..

- أصلنا داخلين على جواز "صبحية" ومضغوط شوية..

- بالذمة رئيس قسم التشفية في مصنع التلج ومعاهوش ألف جـ...

- ياد ما سبته من تمنتشهر..

- سبته!! سبت المصنع!!

- أيوه، ومستني أصرف المكافأة وأسدد لك فلوسك.

- خسارة يا جمال، بعد ما أخدت وضعك تسيبه، خسارة!!

- مش أنا اللي سبته..

- إيه رفدوك؟

- لأ باعوه..

- باعوه !! مين اللي...

- الحكومة، خصخصة ياخويا بعيد عنك..

- .. إزاي يعني..

- زي الناس..

- .. ليك معاش..

- أيوه، بس حاجة تكسف، 160 جنيه،

- بس!!! طيب فينك دلوقتي؟

- راكب عربية عبد الكريم..

- عبد الكريم مين؟

- ياد جوز "نادية"، العمارة، صاحب العمارة اللي في الشارع اللي ورانا،

- عبد الكريم!! عبد الكريم!!

-..جوز نادية، اللي مسافر السعودية..

- أيوه بس، بس، بس عرفته..

- .. اللّه يفتح على حضرتك.. وصلت؟

- أيوه وصلت، خسارة!! وباعوه ليه؟ وبراحتهم كده يعني!!

- وأنا حاعرف اسمي أكتر من الحكومة، هأ ههها هأ..

- هأ هأ، يعني ممكن على كده يا جمال يبيعوا السد العالي مثلا؟!!

- واللّه انا سامع إنهم حيبيعوا مصنع "كيما"..

- لا يا شيخ!!!

obeikan.com

- زي مابأقولك كده، ومين عارف يا سيدي!!

وبدأنا طريق الرجوع، بعد أن أنفقنا كل ما نستطيع من ودخان، كانت هجرة مؤقتة إلى الشمال، وعدنا متخففين قليلا من أحمال قصدنا أن نرميها عند أطراف المدينة، وكان الكثير من نفاياتنا مازال باقيا ويشغل الكثير من مساحة القلب، و"جرجس" خرج توا من كآبته، ومن أمره المحير مع امرأته وولدها الذي كبر، وطلع له كالمارد اللعين، وتناسى، وعاد لمرحه المتزن، وكان كل حين يهمس لنفسه بصوت مسموع ويقول، "قال إيه، أنا حاعرف اسمي أكتر من الحكومة، ههه هأ هأ."، وأعطيته سيجارة "كليوباترا" ورحت أفتش في هدومي عن كبريت..

وهو يتوقف ليشعل لي سيجارتي قال متحسرا وهو يمسك سيجارته المشتعلة بأسنانه "خسارة" ولم أكن أدري هل يقصدني أم يقصد المصنع الذي بيع، أم يقصد ما سوف يباع فيما هو قادم من الأيام، لكنني كنت سعيدا بنجاحي في انتزاع جرجس من حيرة مرة توحل فيها، وكنت أتأمله وهو يسير بجانبي، وأحاول أن أصل لنهاية مأمولة لعلاقته الشائكة "بأم حسن" عشقه الجديد العجيب، وكيف تدرجت بداخله، من عاهرة سابقة، إلى معشوقة؟

.. الليلة، رأيتهما وهما يحبان بعضهما بجد، كانا فعلا بقربي، ورأيت كيف يكون عميق الحب بين اثنين، كانا درسا للحب الخام، وبلا كلمات أو ضجيج أو زحام أو مطالب.

-هما يحبان بعضهما وفقط، وهذا سيؤذي من يا ناس؟

وقت أن شرع في الدخول إلى قصة حب تملأ عليه حياته الخاوية، كيف لم يراع فرق الديانة والموازين الدقيقة للأمور التي تحكمنا، والأعراف الاجتماعية وغيرها من أشياء تخنق إبداعات الروح وتوهجها وتجاوزها للمألوف؟ لن يدعه أحد يهنأ باكتشافه وعشقه العارم هذا، وهي أيضا سوف تقابل الكثير والكثير، قديما كانت امرأة ليل وجميعنا نهش لحمها نظير أجر زهيد ومخجل، قديما كان شأنها لا يهم أحدا إلا المحرومين، والمحروقين بنار الرغبات غير الرحيمة، الآن ستصبح محط اهتمام الجميع، هي لن تنجو برجلها، أو مكسبها العاطفي الجديد الذي تخيرته من بين الناس أجمعين، هنا فقط سوف تصير "أم حسن" المصب الأول لاهتمام وبأس الكثيرين، هنا فقط سوف يصبح لـ"أم حسن" اتجاه غير الجسد، يرغب في ارتياده الجميع، وقد يضعون تدابيرهم القاسية في ناصية هذه العلاقة، من المحتم أن الاثنين لن يفلتا من المصير المكتوب، خصوصا بعد أن سرحت في النفوس شروخ عميقة تفصل وتباعد النوع الذي ينتمي إليه جرجس، عن النوع الذي تنتمي إليه "أم حسن"، شروخ غبية تفصل الإنسان عن الإنسان، وتجعل السماء نصيبا حتميا وشرعيا، لفريق دون الآخر، وينسون أن الله يعطي أرضه وشمسه، ونيله لأي أحد، هو يحبنا جميعا، وينتظر برأفة وحب، رجوع الجبارين والخطاة، هو يحب هؤلاء وينتظرهم، كما يحب الصالحين بالضبط، وينتظرهم ليجلسوا عن يمينه..

اقترب أمامنا الجبل، تقفز منه إلى الظلام الكوني العظيم، بقع دقيقة من النور الأصفر الركيك ثم سرعان ما ينطفئ، وتصدر الحياة أصواتها الضعيفة بحياء، والبيوت في حضنه ساجدة ومتراصة فوق

بعضها كعلب صغيرة من الكرتون المقوى، و"الحكروب" حقا كامرأة كبيرة باركة ومؤسسة في جذور الأرض، وطالعة بعزيمة نحو السماء، وتلم عيالها الصغار في حضنها، وتمنحهم أمنها وأمومتها بسخاء، وكأنه امرأة عملاقة تتحايل على الصخر الناشف وبلا روح، لتصير لحما خالصا، وكأنها صخر حقيقي يستجيب لنداء الحياة..

وافترقنا عند "ميدان الحنفية"، رأيته يشق صعودا صعبا إلى فوق، وكان يتمايل في سيره من تأثير لفائف الدخان المحشو بالحاجات المدوخة، وكان ضعيفا كمحب لا يطيق الوجود بغير اكتمال نصفه الآخر القريب إلى نفسه، وعندما اختفى تماما في الحارة الثعبانية الضيقة، سمعت نباحا قويا، يرحب بالقادم، وكنت أدلك على مكامن الوجع بجسمي، وأحاول إسكات نباحها أيضا، وكان صوت "جرجس" يطن نظيفا في رأسي، "خسارة، والله العظيم خسارة"، وكنت أفكر في ماذا كان يقصد "جرجس" بهذه الجملة التي كررها أمامي، أكثر من مرة، ونحن في طريق العودة، وندمت أشد ندم لعدم سؤالي له، دائما أتأخر في فعل أشياء بسيطة لا تكلفني الكثير، ثم أندم، وبصقت على الأرض بشدة، وبدأت في الصعود إلى بيتنا، وكنت أدوس على أشياء لينة وأنا سائر، ولا أعرف ما هي بالضبط، هل هي لفئران أو طيور داجنة ميتة، أم لخراء العيال الكثيرين في الجبل؟! وكانت شرائح الضوء الضعيفة الساقطة من أبواب وشبابيك البيوت المقفلة لا تكفي لرؤية شاملة، فقط كانت الرائحة العفنة تفوح كلما داس حذائي شيئا ما لا أعرفه، ومن وقت لآخر أبصق، كنت أبصق بشدة وأنا أصعد جسم "الحكروب" الضخم، متحديا الليل والصهد والظلام وجاذبية الأرض،

كنت أستند على حيطان الأزقة الضيقة المظلمة حتى لا يعطل ارتقائي إلى الأعالي أي شيء، وكنت أبصق..

obeikan.com

(18)

..في الماضي، كان "محسن"، يغالب صمته وشروده المعتاد، وينخسنا، بجملة عميقة، أو يلكمنا بسطر حاسم من الكلام دون أن يستطرد في دقائق القضايا التي كنا نتطرق إليها، كان يحب أن يشاركنا جلساتنا وكتبنا ومشاويرنا وأفلامنا الجنسية التي كنا نشاهدها عند أحدنا خلسة، ولكنه دائما لا يحب الاستطراد معنا في علاقة إنسانية كاملة.

هذا "البحراوي" الغامض - نسبة إلى أهل القاهرة - كما كان يطلق عليه "مسعود"، جاء إلى أسوان بنفسه، قدم طلب إلى الإدارة التعليمة بالقاهرة، ليتم نقله إلى الصعيد، وتحقق مطلبه وعين مدرسا للغة الإنجليزية في نفس المدرسة التي تعمل بها وداد، جاء وحيدا وسكن في بيت طيني صغير بالحكروب، شاهد "وداد" في مدرسة "المنشية" وشيئا فشيئا تعلق قلبه بها وطلبها للزواج، وكانت "وداد" خارجة لتوها من أزمة جوازها الأول الفاشل، والذي دام - متعرقلا - لمدة عام ونصف العام تقريبا ثم طلقت، وعلى ما يبدو، كانت هي أيضا تحتاج لأن تنسى، فرضيت به زوجا جديدا، ولأن الناس هنا تخشى الغرباء ولا تستريح كثيرا "للبحاروة" القادمين من الشمال، رفضت الأم وكذلك مسعود، هذا الغريب الذي جاءهم ليطلب يد ابنتهم للزواج، لكن تحت إصرار "وداد" وكفاحها ضد مخاوف أسرتها، رضخ الاثنان

لمطلبها على مضض، وتزوجا، كان مستقيما وبغير عيوب واضحة وكان مثلها مأزوما بشدة ويريد أن ينسى، الاثنان كانا يبحثان عن نسيان بعمق حياة جديدة، وكان "محسن راتب" مثل جميع الذين يهاجرون من موطنهم الأصلي ليستقروا في الأماكن البعيدة، ظل منطويا على نفسه، وشعور الغربة يضطهده، ويجعله ملتويا على ذاته، وحريصا في كل تصرف يأتيه، وتقريبا لم نكن نحن - أنا ومسعود - في مستوى الفهم البليغ لأزمة "محسن" لا على المستوى التكويني الشخصي له، ولا على المستوى المأساوي الذي ألم به وهو بالقاهرة..

جاء من القاهرة إلى "الحكروب" رأسا بسبب حادث مأساوي هز أركانه وجعل الشروخ تسرح في جميع ثوابته، في لحظة واحدة ضربه القدر بأقسى ما عنده، مات أبوه وأمه وثلاثة من أشقائه دفعة واحدة، وبقي هو وحيدا يقاوم صرحا شاهقا من الحزن، تهدم بيتهم في زلزال القاهرة سنة 1992 ومات جميع من فيه ونجا محسن فقط، كره القاهرة والمدرسة التي يعمل بها وأراد أن يعاقب نفسه لأنه استمر على قيد الحياة برغم موت أعزائه، وجاء إلى المنفى، في جزء يسير من الوقت تيتم محسن من جميع أحبائه المقربين، وواجه وحدة ثقيلة والوطأة وأسئلة، ودام يسعى بيننا وهو قريب من حدود الصمت الكامل، ولم يعلن تبرما في يوم أو حزن ما، كان حياديا وفقط..

ولم ألحظه يوما، يتورط في مثل تلك الخطبة التي قالها لنا منذ أيام وخص بها الناس، والرب والسياسة، ما هو الوجع الذي ألم به وجعله يغلي ويطفر ويتجاوز كل محظوراته السرية الخاصة؟!! ليس عندي إجابة محددة، لكنني أتذكر أنه قال لنا قديما، في بداية تعارفنا به، إنه

أقلع عن عادة التدخين من زمان، وقال مازحا أيضا، أنه في ذات الوقت أقلع عن التفكير كذلك، لكن الأيام مرت بنا، ولم أشاهده يدخن بالفعل أو يدلي برأي مهم في حادثة ما، ولما داست السنين بقدمها الثقيلة فوق علاقتنا عرفت أنها لم تكن مزحة، وعرفت أنه كان صادقا في الأمرين، التدخين والتفكير، لم يكن غبيا بل كان حاد الذكاء، لكنه كان يخزن كل آرائه في داخله ولا يعلنها لأحد، وأحيانا تغلبه جملة أو كلمة من بنات أفكاره، فتقفز فوق متاريسه الشخصية ورقابته الصارمة وتطلع رنانة إلينا وتدهشنا وتجنح بأفكارنا إلى نواحٍ مجهولة، ثم يصمت، ويتابع الأمر بوقار العارفين، ويتركنا نحاول استفزازه ليكمل استرساله معنا لكنه لا يفعل، يسكن تماما، لم يكن يدعي الرزانة أو يتدلل علينا. لدواعٍ مرضية، أبدا، هو كان يصنع معنا ذلك بعفوية، وعن اقتناع ورضا، بل أحيانا ما ينسال الندم على ملامحه من جراء ما أباح به لنا، ونظرا لما مر به من تجربة فقد مريرة، كنت أقدر تحفظاته وعقده، والتواءاته النفسية الحادة، لكن "مسعود" كان باستمرار ينسى ويعامله بجفاء، ويرد وموقفا بموقف..

– معلش يا جدعان الكورة مستديرة، خيرها في غيرها، ربنا عاوز كده..

بعد أن شاهدنا مباراة في كرة القدم، في حانة "آمون" المشرفة على شاطئ النيل، تناثرت منا ومن بقية المشاهدين التعليقات ومبررات الهزيمة لفريقنا القومي وإخفاقه في الصعود إلى تصفيات كأس العالم، هنا رأيته يكسر صدفته الناشفة بيده ويطلع منها قدامنا ونحن جالسين على المائدة وأمامنا زجاجات البيرة الساقعة، عاد من وراء

ظهر العمر الفائت كسيل هائج جسور ليس له من أرض تحكمه، ولم أجد من المناسب أن أقاطع شخصا ظل صامتا لأيام وسنين كثيرة، أيضا لم أجد علة في كلام هذا البار الذي بدأت أعماقه السحيقة تتكشف لنا أخيرا، واستمر جسمي يسح بعرق مالح غزير غامض الأسباب، هل هي سخونة المفاجأة، فها هي إحدى المعجزات تتحقق أمامي، ومن قطع رأسه قديما، أراه يرجعها إلى بقية جسده بنفسه وبدون مساعدة من أحد؟!!

أم هي جرأة وجسارة ومعارف المتكلم؟!! كنت كيسا مملوءا بالسوائل المالحة، راح ينثر عبر ثقوبه الكثيرة ما به من ماء معكر، وأنا أتابع كلامه باهتمام، كنت من حين لآخر أرفع كم قميصي، وأمسح بلصوصية وكبرياء جبهتي ووجهي من العرق الذي تفجر بغرابة من كل أنسجتي، وجعلني كلوح من الثلج يذوب أمام الجميع، كنت مكسوفا من نفسي تقريبا، والجروح الغائرة التي فتحها محسن بحديثه، جعلتني أشعر بضعف ونقص وانسحاق وضآلة، كانت كلمات "محسن" المندفعة كدانات المدافع المتفجرة، تكشف رضوضا وجراحا قديمة في الواحد كنت أظن أنها اندملت وطابت، رأيته مثقفا أكثر من اللازم ويحتفظ لذاته بآراء مغايرة وحاسمة في كثير من الأمور، وكيف احتمل كل هذا التنسيق والنظام في مخه ولم يمرض بداء الصمت الذي اختاره لنفسه منذ أعوام طويلة مضت؟!! للمعارف صياح وزئير واصطكاك، كيف احتمل كل هذا الدوي في أعماقه، ولم يطلقه في الرحاب ليثمر في الأرض، وينال هو حقه في البوح والمشاركة؟!

وبناء على مواقفه الحيادية السابقة، سمح لنا بإطلاق النكات

المستهزئة به، ولم يعترض، وتركنا نرسم له بورتريها لا يخصه تقريبا، ويبدو أنه كان مستمرا في تعذيب نفسه، لأنهم ماتوا، وهو عاش، أظنه كان يستمتع بهذا الظلم الذي تعرض له منا..

كنت غاضبا جدا من صديقنا "محسن"، وما هذا الصمت المميت يا رجل!! وكيف احتملت حمقنا، واعتداءاتنا المغلفة في صورة هزار مقيت..

يقابلنا أو نقابله، يأتي إلينا أو نروح إلى عنده، يهاتفنا أو نهاتفه، وهو في جميع الحالات، هادئ، وقريب من حدود الصمت الكامل، لا تفجره قضية، لا تحركه كارثة وقعت هنا أو هناك، يطلبني بالتليفون ليقول لي كلمة أو كلمتين، "أزيك، أنت فين يا ابني، عاوز أشوفك.."، وحين نتقابل ونجلس في مكانه المفضل على إحدى أرائك كورنيش النيل، يظل صامتا، وسارحا في عتمة الماء البعيدة، والمراكب والقوارب السياحية العابرة من أمامه كوهم لا يراه، يظل هكذا حتى نقوم منصرفين، أصبح لقاؤه بالنسبة لي عبئا ثقيلا، فإلى متى سأظل أفتح شوارع ممهدة للكلام وهو يسدها، وأقيم مناسبات للحوار والمشاركة وهو يتجاهلها؟!!

بدأت علاقتي به منذ تسع سنين، بعد خطوبته من "وداد" مباشرة، قابلته مع "مسعود أكثر من مرة وتعارفنا، ولأنه قارئ نهم، مهدت الكتب - التي صرنا نتبادلها - العلاقة بيننا، في البدء وجدته قليل الكلام ويدفع الدم في صميم صداقتنا الجديدة ببخل وتلكؤ، لكنني اعتقدت أنها المحاذير الأولى التي تنتاب أي علاقة في طريقها للقيام،

openkan.com

أو هي نوع من التلصص على الآخر، إلى أن يجد فيه مواصفات مقبولة وآمنة، لكنني وبعد مرور كثير من الأيام، أدركت أن ذلك طابع أصيل فيه، ولما كنت قد عرفت فيما بعد، تفاصيل مأساته وجدت له العذر الذي جعلني أحتمله نسبيا..

يأخذ الرواية أو الكتاب من أحدنا، ويعيده بفتور، ولا يعلق، أقصى ما يستطيع قوله، حين نضغط عليه ليقول رأيه، "لا، كتاب حلو" أو، "كتاب مهم"، ويسكت..

وكنت تعبانا من الدنيا ذاتها واحتاج لأحد ليصوبني ويعطيني الدليل والبشارة، وقلت في نفسي وأنا أنظر إليه صامتا، "أين كنت من زمان يا محسن ولماذا لم تلحق صاحبك وأخوك؟!"..

..وتضايقت من مسعود الذي راح يقابل "محسن" ممتعضا مستنكرا، وكأنه يستكثر على زوج شقيقته كل هذه الرجاحة الهادرة التي خصنا بها..

وازداد شعوري بالوحدانية المفرطة لحد النقص، أنا قليل وناقص، وأحتاج لحسنة الاكتمال يا جماعة..

وكم أحتاج إليك الآن يا امرأة، كنتِ قد تركتيني نائما في سبات عميق، وطلعتِ متسللة من بين ضلوعي، خرجتِ هاربة بمفردك، تاركة لعزلتي أن تستمر عهدا جديدا معي، ولم تأخذينني معك، لتنقذيني من عصر الجاهلية الذي لا يبغي أن ينصرم، أين أجد منديلك الصغير المطرز؟ في جيبي وبجوار "الموبايل" ومطواة القرن غزال، التي أحملها في تجوالي تحسبا للظروف المباغتة؟ أم نسيت المنديل، وتمسكت فقط

obeikan.com

بالمطواة هذه المرة، اعتدت نسيان أشيائي الصغيرة، اعتدت إهمال أشيائي البسيطة!! منذ متى لم استحم، منذ متى لم أحلق ذقني أو أبدل ثيابي الداخلية؟ ولماذا باستمرار لا أحمل كبريت لسجائري، ولا أرد على "تليفونات" ورسائل الأحباب حين يهموا باشتباك ودود معي؟ ودوما لا أعرف كم بالضبط عدد الجنيهات التي أحملها معي، فأتورط في مآزق تميتني بالحرج الكبير، إلى متى سأستمر أأجل توقيع الكشف الطبي على عيني لأستخرج نظارة جديدة عوضا عن هذه التي فوق أنفي وتزغلل على الرؤية الدقيقة؟ متى سأقبض بذاكرتي بجدية على أسماء الكتب الكثيرة التي قرأتها؟ وإن عرفت بعضها لا أستطيع تذكر أسماء الذين ألفوها!! هي أشياء بسيطة ومهمة، لكنني دوما لا أعتني بها كما يليق، فمثلا من الممكن أن يقهرني الأرق والشعور بالخيبة، بسبب عود ثقاب حقير، غير موجود، أو أقع في مطب عبثي لمجرد عدم تذكري لاسم شخص ما، لم أهتم بتدوينه بجدية في رأسي، وكم من مشاكل كان يمكن أن أحلها أو مكاسب كان يمكن أن أحصل عليها برقم هاتف ما، لكنني حين أبحث عن هذا الرقم اللعين، لا أجده، وبعد فوات الأوان أعثر عليه مركونا في أحد الكتب أو ملقى علي قارعة طريقي، ولكن لعدم جدية البحث، أيضا، لم اكتشفه في مكانه وحينه، كلنا مدانون، كلنا نصنع، على الأقل، نصف أحزاننا الصغيرة، وأوجاعنا الكبيرة، والبقية الباقية تأتي إلينا من المتسع الخارجي، مستغلة غفلتنا، وتأخرنا في إظهار الغضب العظيم..

وإلى الآن لم أدرك أن لهذه الدنيا مفاتيح ضرورية صغيرة، لهذه الدنيا أشياؤها البسيطة التي لا تستطيع التحرك باتجاهنا إن لم تكن تلك

الأشياء بحوزتنا، ولماذا نتفه الأمور لحد حذفها من فهمنا؟ هي لن تقبل ناحيتك إن لم تشخشخ لها بمفاتيحها المهمة الدقيقة، هي مثل امرأة، فقد تجن بأصبع أحمر شفاة، أكثر من أي شيء آخر حتى ولو كان هذا الشيء لقاءً حميما معك، تصدق!!

للدنيا أشياؤها الدقيقة البسيطة التي تبحث عنها، صدقني..

إذن غير اتجاه السير قليلا، واعرف أن العالم يدار بأزرار غاية في الدقة والصغر، ولماذا أنت مولع بالكتل الجهمة، وتلغي من حسابك تلك الرقة المفرطة للأشياء؟!!

وهل ستحتملين ثقل رأسي حين أحطها برفق فوق صدرك؟!

هل تقبلين المكوث قليلا مع واحد متعب يريد أن يثرثر معك، ثم يمنحك قبلة صغيرة خاطفة فوق خدك، خدك فقط، يريد أن يعطيك قطعة صغيرة من نفسه، ويمضي، يمضي مكتملا، يريد أن يجرب معك تلك الأمور الغاية في الصغر والدقة.

.. آآآه من ألم الكتف..

..آه من صليل الرقبة، والركبة اليمنى، آآآآه...

..آآآه من كل ما أحمله من جسد آآآآه...

..آه من الروح حين تعاني من الاختناق، آه...

- آآآه أنا تعبان يا جماعة، بس يا ريت والنبي ما تقولوا حاجة لـ"وداد"..

ولماذا أرفض أن أفتح مشاعري على الضلفتين، أمامهما، وأمام كل

من بالحانة الضيقة؟ لماذا لا أعلن شكي ويقيني اللذين يتعاركان في أعماقي ويضربان بغبار صراعهما كل شيء؟! لماذا لا أبوح وأشكي؟! ألم يبك الخال "وصفي" أمامي في قديم الزمان، ألم يبح لي بأحد أهم أسرار حياته، حين خانته زوجته "هنية" وسلمت لحمها للغرباء، البكاء والبوح ليسا وهنا وذريعة للضعف.. بل شيء من نظافة، وطرد لمقومات التعفن بالداخل العميق، ونوع أيضا من المقاومة والرفض، وأليس "محسن" راتب، يفتح بوابات البوح المرير أمام الجميع الآن، أنه يبوح شاكيا وباكيا، هو فقط قد اختصر وخلص بكاءه العلقمي هذا، من الدموع، فأصبح بكاؤه ناشفا وبغير ماء لزج يسقط من أماكنه الخفية في الدماغ، بكاؤه ومن شدة نقائه، صار كامل الدسم، ومنزوع الماء، بكاء خام كحليب البودرة الجاف، لكنه بالحقيقة، هو صار يبكي أمامنا بكلمات ساطعة طويلة النغمات، من فرط صدقها، كنت انظر إلى أسفل الترابيزة، حتى لا أكشف تهدجي وضعفي، ومائي السري الذي بدأ ينداح بكرم أمامهما، كان كل جسمي يدمع وينتفض تقريبا، إنه بكاء كلي، لكنني الحق أقول لكم، كنت سعيدا بـ"محسن"، وكل حين كنت أمضى سريعا إلى جسمي وأجفف الآتي بكم قميصي، وبدأت أشعر ببعض الإفاقة..

..وتأوه محسن فجأة وأمسك ببطنه للحظات، ثم تماسك وعاود كلامه الناصع الأبيض، وتذمر مسعود، وطرح إلى الأمام ملامح غير مرتاحة لحديث "محسن"، بل بدا عليه، عدم الارتياح لـ" محسن" ذات نفسه، وارتجل كلمات متداخلة في بعضها ومتحفظة ومحلاة ببعض المصطلحات الكبيرة، مثل "الأيديولوجيا" العالمية، والعولمة،

والميتافيزيقا، والأستطيقا، ورفض أن يشاركنا شرب الجعة طوال فترة جلوسنا، شاهد المباراة وطلب لنفسه "عنابا" ساقعا مرات..

كل هذا الاجتهاد المعرفي المشكور عليه، من قبل "مسعود" وكل هذا الغضب المجهول، تجاه زوج أخته لم يجار نبرة المرارة الصادحة في صوت "محسن"، ولم يوقفا صراع اليقين والشك القادمين من أعماقه، تجاه كل شيء..

ذلك المردود الاجتهادي من ناحية "مسعود" لم يصمد كثيرا أمام الانفتاح الفكري الذي صدمنا به صديقنا "محسن"، الذي انفكت عقدة لسانه فجأة تحت إلحاح لحظة استفزازية نتجت من مباراة كرة قدم هزمنا فيها، "محسن" أطاح فينا، نفض عن روحه ترابا قديما عطنا وفضفض معنا بعذاباته النفسية والعقلية الكثيرة وانتقدنا جميعا بقسوة وفسر لنا لماذا جاءت تلك الإصابات القاطعة في أعماقنا أنا ومسعود، وفتش في أنحائنا بعين بصيرة، وكشف لي أنه لم يكن يهملنا، لم يكن غير مهتم بنا، مما اضطرني لأن أتعاطف معه من جديد وأوافق على الجزء الأكبر من كلامه، وتحت إلحاح شهوة "محسن" في الكلام، اضطر "مسعود"، لأن يطوي لسانه أسفل جوانحه، ويسكت، ليستعيد "محسن" ثانية زمام الحديث، ويفجر في أنحائنا لحظة توجس، وحيرة، وربكة، وكلما أغال فينا بكلامه الذي فاجأنا به، كلما ازداد غضب ونفور مسعود من "نسيبه" وتداعت مني أحاسيس متناقضة تجمع بين الحزن والنشوة والفرح، واستمر انفلات العرق الغزير من كل جزء في جسمي، كانت له رائحة منفرة، على ما يبدو كنت أفرز قاذوراتي الجوانية، أرمي إلى الخارج بكل ما هو آسن ومالح، أو غير

قابل للإذابة والمحو..

وهو في ذروة هياجه المنطقي، انحرف "محسن" عن اتجاه حديثه السابق، ودخل في منطقة عمياء مسدودة صدمتنا..

ضرب، وجه المائدة الصغيرة المستديرة، مما جعل زجاجات البيرة الفارغة تحتك ببعضها وتحدث رنينا صلبا أفزعني، ووجه كلامه إلى مسعود مباشرة، وبطريقة تؤكد أنه عانى زمنا، قبل أن يقول هذا الكلام، كان يجيب عن سؤال، يبدو أن "مسعود" طارده به آلاف المرات، كان "محسن" يعترف بسر أضناه كثيرا، كان مثل متهم يعترف بجريمته من تلقاء نفسه وهو مقتنع بها، وأصبح الآن لا يخشى عقاب أو مقصلة، خبط المائدة بعنف، ومال بجزعه ورأسه إلى أن اقترب بعينيه من مسعود تماما، وقال صارخا بجملته القصيرة الممطوطة ورجع ببطء إلى مكانه وهو ينظر إلى مسعود بتحدٍ وثبات، رجع ساندا ظهره بالمقعد غير عابئ بنا وعانق سكونه الأليف، وتركنا في حقول من الذهول الممتدة بلا نهاية أمامنا، قالها مصرا أن يدخلنا إلى متاهته الأخيرة وصمت..

- أيوه يا مسعود أنا ملحد، جوز أختك ملحد، ارتحت، عندك مانع، فرجني بقى حتعمل إيه..

وعاد يقبض بعنف على معدته ويعصر لحم بطنه بأصابعه وهو يحاول أن يقبض على مكان الوجع بالضبط، ويبدو أنه نجح وتماسك أمام ضربات الألم القوية، التي أثرت قليلا على ملامح وجهه المحتقن، استمر متماسكا حتى يستطيع أن يؤكد اعترافه لـ"مسعود"، وحتى لا

تؤثر أوجاعه المباغتة على مصداقية جملته الأخيرة، كان يطرد ألمه بعيدا عن حدود هذه الجلسة المستديرة، حتى لا يؤثر على أهليته ورجاحة عقله في الاعتراف الشجاع الذي أقر به، ولم ننبس، وكان الغضب يكسب المساحات داخل مسعود ويلقي بدخانه الغامق إلى فوق، وألسنة الحرائق تتلظى في عينيه الواسعتين، ومع ذلك لم يتكلم، جميعنا لم ينبس..

(19)

في الأيـام الثلاثة الماضية، كنت أفيق من غيبوبتي الاختيارية على فترات، حين يأتي ضيف طارئ، أو حينما تأتيني صينية الطعام التي كانت تدخل بها أمي وتضعها فوق كومة الكتب المتراصة قبالتي على الترابيزة، تضعها وترمقني بغضب ثم تخرج وتقفل الباب خلفها بعد أن تتمهل قليلا أمام بركة المياه النتنة التي صنعتها مثانتي بجوار عتبة الباب من الداخل، تخرج وتقفل الباب خلفها وهي لا تصدق جنوني، وأحيانا كنت اضطر للذهاب لـدورة المياه، قليلا ذهبت إلـى دورة المياه..

.. في الأيـام الثلاثة الماضية، كنت أطلع من تحت ركام الماضي، بأقدام توحلت في طين الذاكرة، لأقضي فترات قليلة في واقع تاهت عني ملامحه، آكل وأشـرب سريعا، وأتكلم باقتضاب مع أمـي أو الضيوف الذين حضروا، ثم سريعا ما أدخل إلى متاهتي الشخصية، واستغرق باستمتاع في تأمل الزمن والوقائع القديمة التي حصلت، وحين يداهمني احتباس البول، ينتابني الكسل، وأتهيب من فتح باب غرفتي، فأتعرى وأصوب مسدس الماء الدافق على الحائط بقرب الباب، وأترقب بقلق بركة الماء الصغيرة حتى تجف، وكنت أطرد زفارة البول التي تفشت في الغرفة بالدخان، أدخن بعنف..

obeikan.com

في الأيام الثلاثة الماضية، كنت اضطر لمغادرة الماضي، لأمارس عادتي السرية وأنا ممدد على السرير، رغبة جنسية عارمة كانت تتألق في عروقي فجأة وتعبئني، وهوس النكاح يؤجج أعضائي بألم مبرح، وكانت "بسمة أنسي عبد الملاك" إحدى ضحايا فحولتي، أستحضر صورتها في رأسي وأمارس معها جنسا ذهنيا حوشيا، كنت أتخيلها في أوضاع مثيرة ومذلة..

..ثم أعود إلى الماضي، بعدها تخبو شهوتي، ويذبل هياجي، فأدخل ثانية بقامة منحنية إلى عزلتي، وما هو الحب بالضبط؟ هو اختيارنا الصميم، نحن نحب لأننا نريد أن نحب، نوع من الاختيار، ولماذا لا أختار الخروج من قصة البنت القديمة "هالة"، يعني كما اخترت الدخول إلى القصة، لماذا لا أطلع منها شخصا سليما، واتجه لواحدة غيرها، مثلا اختار بسمة بجمالها وفتنتها، وحين أحلل هالة في دماغي أجدها عادية، لم تكن استثناء إلا في لحظة اختيارها لهجري، ما هو الحب؟ هو "الدراما" الخاصة التي نؤلفها لأنفسنا ونخلطها بالواقع ونتعايش معها بإمتاع، هو الحكاك المعذب اللذيذ، هو هرش المشاعر المحبب، وجرح عميق في القلب نحتاج لأن نعيش به دوما لتنضج أحاسيسنا وتصرفاتنا، جرح نتمسك به ونرفض الشفاء منه حتى إن غادرنا المحبوب..

وعدت أشعل سيجارة أخرى واشفط الدخان بحيرة..

obeikan.com

(20)

(لديك رسالة)

(عملت إيه في الموضوع يا جمال؟ دبرت المبلغ ولا لأ؟ جرجس، 30/10/2000)

..وهذا ما حدث بالضبط حين جاءني "عبد الوهاب السماك" وقال لي: يا جم... اال.. ي... ا .. ج.. م... ااااال، أنت فين اللّه يخرب بيتك، يا فقري؟

..يا ولد يا مؤدب، تعال نعمل الواجب مع "جرجس النقاش" صاحبنا الذي تورط في أزمة منتصف العمر، غير الرائعة، الأخ جرجس وقبل إقباله على الخامسة والأربعين من عمره، أخيرا يخرج غشيما من وحدته، ويجرح عزلته بواحدة من بنات حواء، كان ينقب لنفسه عن علل جديدة ليستمر في حياته، فوجد "أم حسن" في وجهه، فأحبها، وهي أيضا أسرعت، ومسحت ذكرى زوجها المرحوم "الضمراني" من رأسها، ومنحته ما تستطيع من ترحاب، فأحبته بنية خالصة، "النقاش" حين نشط في بحثه، ليجد لنفسه مبررات أقوى كي يعيش، وقع في غرام المرأة المجربة "أم حسن" وها هو قد أحب عن طريق الخطأ، عشق غلط.. ومشى حاملا حبه الأول في سكة مقفولة، في واقع جلف لا

obeikan.com

يلين لصيحات العاشقين الكبار أمثاله، مشكلة كبيرة "جرجس"، قلبه أخيرا تحرك باتجاه واحدة من بنات حواء، لكنها ليست من نفس دينه أو طبقته، وهي أيضا ليست من نفس ميوله التي نعرفها عنه، لكنه هكذا فعل، دخل إلى ضلالات العشق ولم يرجع برغم هتاف المقربين له، بأن يقلع عن المرور في ثقب تلك العلاقة الضيقة الأفق والملتبسة شكلا وموضوعا، ودام لا يستمع لأحد، ولم يقلع عن حبه لـ"أم حسن"، ومضى عازما على تلبية متطلبات قلبه العاشق، برغم كل المحاذير، وأسقط من حساباته كل الاحتمالات الخطرة التي قد تنجم من تورد ونضوج مثل هذه العلاقة في أرض جبلية خشنة كتلك التي نمشى عليها، صار عاشقا مسكينا ومعاندا لاحتمالات العنف الطائفي، التي قد تتفجر مطلقة شظاياها في الاتجاهات إن تمت هذه القصة، متحدية رغبة الأغلبية هنا، وفيما اعتقد الكل يريد لهذه القصة أن تنتهي عكس رغبة العاشقين نفسيهما، خصوصا بعد أن نجح "جمعة الأعور" وأمثاله، في جعل الأجواء ملتهبة، والأرواح محتقنة بنفور ومعادة لا تحتمل أي تفسير يدعم التقارب مع الآخر، صحيح أن "الأعور"، وأعضاء جماعته الأصولية، كانوا قد تركوا "الحكروب "وكل البلد وهاجروا إلى المتسع الجهادي، لكنهم برغم هذه المغادرة القسرية للساحة، هم تركوا منهم ملامح بين الخلق، وأطلقوا أيضا على الأرض أذنابا غير قصيرة منهم، يمكنها أن ترعى بهمة وتأجج حاسة الإيمان المأزوم الملتبس، وتنفث بخار الغلظة والحدة في أشياء يومية صغيرة، لا تحتاج لكل هذا الجفاء منهم، وهم تركوا كذلك شروخا وقروحا عميقة، في النفوس صعب أن تلتئم بتصريحات المسؤولين السطحية الساذجة، بل عسير على الزمن ذاته أن يجهز تلك النفوس للشفاء في فترة قريبة، وكما هاجر إلى وسع

الخرائط "جمعة الأعور" ولاقى ترحابا وبشاشة ممن استضافوه، مثله فعل أيضا كل من "منصور" و جماعته، و"دجلة" وجماعته، والدكتور "طلحة" وجماعته، وآخرون كثر، ممن انفتحوا على البلدان بهجرات متتابعة، وكل تلك الهجرات لهؤلاء المتشددين، لا تعني فراغ الساحة، من آخرين متساوين معهم في الاعتقاد، والأيمان بالعنف والتشدد، بل هناك من أكثر منهم تزمتا، وأكثر منهم فقها وتأويلا للعنف الجهادي المجيد، لكن اليقظة الأمنية المتأخرة لجهاز الشرطة ومبادلة العنف بما هو أكثر منه، جعل الجهاديين، يلبثون تحت الأرض قليلا حتى تروق الأحوال فيما هو قادم من أيام، يعني ما هي إلا هدنة استراتيجية من قبل "الجماعات الدينية الأصولية" ريثما، يتدبرون حالهم، لكنهم من حين لآخر يجاهرون في الظهور في موقف ما، أو يحمحمون، ويصهلون وقت أن يتطلب الأمر إثبات الذات وإعلان التواجد، وها "جرجس" وعشيقته، يعطيان لساكني الجبل من الجهاديين الخاملين، إذنا بالزئير والصهيل والحمحمة والتخلص لبعض الوقت من الهدنة الخططية التي كانت تمثل إحدى دفعاتهم..

هو هناك عند أطراف الجبل، ومحتميا بعزلته، ويفكر في مغادرة الجبل، إلى مكان آخر، ويعاني من مرض عضال لن يميته، ومن أماته العشق من قبل إلا في أساطير الحكايات التي تسردها الكتب العتيقة؟

(مثل هذه العلاقة ربما تقتلك يا صاحب، وقد تقتلكما معا صدقني!!) هكذا قلت في سري، وأنا استمع لكلام "عبد الوهاب" عن العلاقة التي تسري ما بين "جرجس النقاش" و"أم حسن"، سرهما اتفضح، "وإن لم نداوي الأمر قبل أن يفلت زمامه، سيروح الاثنان في ستين داهية،

هناك عمى يا جماعة، عمى، وعتم يعشش في زوايا المشاعر"..

- وكيف ننقذهما من بعضهما البعض؟ وكيف ننهي هذا الغرام الموقوت، قبل أن يفجّر نعرات نارية وعصبيات فيروسية كامنة في صميم الصخر الجبلي الذي نعيش في تفاصيله الوعرة؟ كيف نساعد الاثنين، على أن يتبرأ كل منهما من الآخر، كي يشفى "الحكروب" بأكمله..

.. وكان عبد الوهاب، يتفكه على العلاقة العشقية، التي تجمع أم حسن، بجرجس، كان يأخذ الموضوع ببساطة، ليت كل الناس بسيطة مثلك يا "سماك"، فقط كان متضايقا جدا من صديقنا "النقاش"، وكيف يحب امرأة كانت في الزمان الغابر "مومس"، أو بمعنى أدق كانت في السابق عاهرة محترفة، وكلنا - نحن أصحابه وآخرون - نط فوق لحمها، وذاق منها اللذة، وارتوى بغنجها المدرب الكريم، وتساءل "عبد الوهاب": كيف لـ"جرجس" أن يحط عينه في عيوننا، إن تم المراد، وارتبطوا ببعض؟! هل سيقطع صلاته بنا، حتى لا نذكره بالماضي العاري لامرأته، وحبه الوحيد، حقيقة لم نلحظ على "جرجس" ولو لمرة واحدة - وهو أكبر واحد في شلتنا - أنه مال لامرأة ما، ولم نشعر به، عبر صداقتنا المزمنة معه، بأنه يعاني من امرأة ما ويتأجج من لوعتها، كان يقضي حاجته، الجسمية، بإلحاح وكفاءة، وصمت، وخصوصية لا تتجاوز المعتاد، ونحن أحباؤه والمقربون إليه كنا نستفيد من حكمته في مثل هذه الأمور، وكان هو لا يبخل علينا بدافع الصداقة والهم الواحد، كان أفضلنا في صيد النساء الراغبات في المتعة، أو الراغبات في تأجير أجسادهن لبعض الوقت، نظير حفنة فلوس معلومة ومتفق عليها، لكننا

وعبر تاريخ عريض وطويل من الصداقة المتينة، والممارسات النسائية السرية، كنا نلحظ عليه رقة مفرطة أثناء تعامله مع المومسات، وحين يدخل إلى المخدع ليجانب صاحبة النصيب، نسمعه وهو يهمس إليهن بكلمات دافئة لطيفة المأرب خالية من التعالي أو التقليل من قيمة الإنسانة التي تبيح أسرارها الأنثوية أسفله، وكان يدافع عنهن أمام فحولتنا، ويوصينا خيرا بهن ونحن في انتظار أدوارنا، وقبل الدخول إليهن للتعبير عن رجولتنا الحبيسة، المعوزة للتخلص من فحيح الرغبة الحارق، وكان بمفرده يتفرغ لتخليصهن من سخفنا واستهزائنا بهن، وبوفاء شديد يحاول أن يصد عنهن فجاجتنا واستخفافنا بهن، ويقاوم بدون استعراض، معاملتنا لهن بسلوك بذيء فيه الكثير من الإيحاءات التحقيرية.

-- .. واللّه غلابة.. يا جماعة عيب كده..

.. وكان يوصينا بعدم فضح أمرهن للعامة أو للخاصة، وأن نتكتم على ضعفهن،

- .. يعني قوموا من عليهم، واحلفوا عليهم..

___ أي لو قابلنا شخصا ما عن طريق العمد أو المصادفة، وسألنا عن سلوك، واحدة مما نستعملهن، في فك زنقاتنا الذكورية، فعلينا ألا نسلمهن ليد الحكم، بل لزاما علينا أن نحميهم، ونبرأهن من التهمة الجسدية الباهظة الكلفة، وكان يقول لنا عليكم فعل ذلك حتى وإن اضطررتم لأن تقسموا على أنهن أبرياء وبغير دنس اقترفنه معنا، وعليكم أن تأكدوا، أن تلك المرأة أشرف من الشرف نفسه، في حين

أنها قد تكون مازالت مبلولة بماء دافئ سكبه عليها، أحد المناضلين في سبيل الخلاص من أوجاع اللحم الفائر.

..وقديما لاحظنا أنه يطيب له المقام بالداخل طويلا، لذلك كنا نجعله آخر من يدخل إلى الوليمة المفرودة بعريها في ظلام الغرفة، يفعل تلك الإقامة عندهن، حتى بعد أن يقضي فترة لذته، مما كان يدفع أحدنا، لأن يقتحم خلوته عنوة، ويخرجه بالزعيق، والسباب، كنا ما نصدق أن نخلص أنفسنا من عبء الشهوة، حتى نسرع ونسرب السيدة المستأجرة لأجل هذا السبب، كنا نحرص على ألا يحس بنا أي أحد، وكان هو بتأخره المريب بالداخل، يعطلنا عن التخلص من جسم الجريمة..

..ولأن الجنس هنا، قليل ونادر، ومثله مثل الأكل والشرب والفلوس، والفرح، والتوفيق، والإنجاز، لأجل ذلك يكثر الشمامون والمحرمون وقليلو الحيلة، ومن الممكن أن يفتكوا بأي وليمة إن لم يطالوا قطعة منها، أضعف التقديرات، أنهم يقدرون أن يصنعوا لنا جرسة قد تكلفنا الكثير، وتترك العلامات البارزة على أبداننا، والكل معذور، الكل من حقه أن يلبي نداء الحياة وفق المعايير، لكن لو كانت تلك المعايير أصعب من أن نحققها، فمرحبا بهدرها وتخطيها، في البداية أملأ بطني طعاما ثم حاسبني أن سرقت الخبز من جاري أو اختطفته من قارعة الطريق، أعطني مالا يقضي حاجاتي الملحة، ثم سن القوانين التي تحرم خرق القواعد، ماذا يستفيد الغلابة إن كان صميم وجودهم يتمثل في تنفيذ المعايير فقط،؟ ماذا ينتفع الإنسان، لو ربح كومة من المعايير، وخسر نفسه، كله معذور، وكله يبغي أن يسكت ضجيج الجسد

سواء بمعايير، أو من دون..

..وفي مرة كنا في بيت "مسعود" بعد أن ذهبت أمه إلى بيت أخته "وداد"، ولما أطال "جرجس" الإقامة بداخل الغرفة، وكنا نريد الانصراف، تسحب "مسعود" متضايقا إلى باب الغرفة، وفتحه بحذر ليستطلع الأمر الذي دعا "جرجس" للتأخر بالداخل كل هذا الوقت، وأطل برأسه لحظات، ثم عاد إلينا، وهو يرمي بنفسه على أقرب أريكة، ولم يستطع إخبارنا بما كان يجري بالداخل من شدة الضحك والاندهاش الذي تملك كل جوارحه، ولما أفاق، وأخذ سيجارة "بانجو" مشتعلة من "عبد الوهاب" حكى لنا ما رآه بالداخل، وهو مازال يقهقه ويضرب كفا بكف..

- .. البيه نايم جوه!!

- نايم؟!!

- .. وعرفين نايم إزاي؟

- ...؟؟؟؟

..ولما دخل مسعود برأسه إلى عتمة الغرفة المحتملة، وانتظر، حتى هدأت أعصابه البصرية، وتكيفت مع جو الغرفة العبق برائحة جسدين عريانين، وجد "جرجس" قد أراح رأسه علي صدر وليمتنا الجنسية، وغط في نوم عميق، وكانت السيدة، بمهل تمشط له شعر رأسه بيدها، ولما نظرت "مسعود" تبسمت له، ولم تغير من أدائها الحميم قيد أنملة، بل أحس أنها كانت مبسوطة تماما من الذي تعمله لـ"جرجس"..

ـــــ ..شوف الواد الخايب، يصوم يصوم ويفطر على بصلة، وكمان دي مش بصلة خالص، دي ش-؟!!!

كان "عبد الوهاب السماك" يرنو للأمر من جانب، وكنت، أرنو له من عدة جوانب، فجرجس وهو مقبل على خروج جريء من انكماشه الطويل، ها هو يتعثر في مشكلة كبيرة، أقرب للكارثة، لكنني وبأمانة شديدة، وبعيني اللتين سيأكلهما الدود رأيت حبهما الحقيقي لبعضهما البعض، حب نابض برغبة الاكتمال، والتدفق ناحية الآخر، رأيت هذا بعيني في أكثر من موضع من العلاقة، التي نمت، وكبرت، وانكشف سرها تقريبا لأغلبية من يسكنون الجبل..

..وبسبب(الـ 1000) جنيه التي أدين بها لجرجس وتعثري في سدادها، كنت أتهرب من لقاءاته، وبالتالي لم أستطع نصحه، ودحض عشقه، وهو في أول درجات الصعود، ألف جنيه حولت صديقين إلى قناص وفريسة، وأنا الفريسة بالطبع، كنت طريدته في الشهور الماضية، وأنا أهرب إلى المتسع، الاحتياج يمهد الطريق ليجعل من الشخص طريدة مستهدفة مهدرة الكرامة، كرامتي تتجسد بالنسبة للآخر في مدى حفاظي على تخومه من الاعتداء، وأنا اضطرتني الظروف إلى الاعتداء على تخوم جرجس الخاصة، أنت ذو مهابة وكرامة كلما كنت مجتهدا في عدم اقترابك من حصون من تربطك به معرفة ما، وهؤلاء لا يعرفون أنهم هم الذين اعتدوا على خصوصيتك حين اقتربت، أنت نزفت كثيرا قبل أن تقصدهم، وأنت واقف أمامهم لتلبي مطلبك يكتمل ذبحك وهم لا يشعرون، فقط يغتال سكينتهم القلق وحيرة المنح أو المنع، وأنت تكمل مشوارك في صمت إلى السحل النفسي، هم يغضبون

لخسارة مادية تقاس باللتر، أو الكيلو، أو المتر، أو بالجنيه المصري، أما خسارتك الفادحة أمامهم فلا يمكن قياسها بأي مكيال أرضي، هنا روحك تنكس، وأي مقياس أرضي يثأر لها، ويعيد لها جسارتها القديمة؟ الموضوع غير سهل، نفس الأمر حدث معي وأنا أقترض من جرجس هذا المبلغ، إنه يطاردني الآن بغير كلل، وله كل الحق.

قال لي عبد الوهاب:

..تعال يا صاحبي نعمل الواجب، والأصول مع واحد صديق لنا رفصته أرجل الحب القوية، فورم قلبه بالتهدج والآهات الطويلة، ونالت منه الحيرة أقساطا، وأقساطا، و"حسن" ابن السيدة العاشقة، والمعشوقة، أكال له ضربات مبرحة وسط ناس "الغرزة" وبطحه في وجدانه، وشج رأسه بكوب الشاي وكاد أن يقتله، تعال نسأل عنه، ليعرف أننا لم نتأخر في تسديد ديون صداقته المعلقة في رقبتنا، كذكرى حلوة قضيناها معا..

– هذا ما كنت عامل حسابه!

حسن الصغير كبر يا رجال وطالته الرجولة بمطالبها الباهظة..

– وكم (حسن) في الجبل وفي انتظار الدور ليردع الحب الجاري بين إنسانين مسحوقين بعزلة ما، ولا يحس بهما أحد..

-– نحن قساة جدا، دهسنا في سيرنا المكدود أشياء وأشياء، ولم نلتفت، أو نبالِ، وسواء كنا نقصد أو غافلين، فلنا ضحايا، وينبغي أن يقع علينا قصاص، كنا نصحن أشياء رهيفة، ما تحتمل منا كل هذا الجفاء والإهمال والغلظة!! ترى هل يتذكر الولد الذي صار رجلا، أفعالنا

ضده في الزمان الغابر، الزمان البعيد، البعيد لحد لم نعد نستطيع أن ننساه؟ حتى الخطايا الصغيرة تكون في بعض الأحيان أصعب من أن تغتفر، أكاد أيقن أن الولد الذي كبر لا يتذكر أحدا منا، لكنه بالحقيقة، يتذكر جسم أمه الذي كان يرتع عاريا في الغرف المغلقة، آخر مرة رأيت "حسن" كان يعمل فاعلا في إحدى عمارات "الحكروب"، التي تحت التشطيب، كان يحمل "شكاير الأسمنت" ومقاطف الرمل والزلط وهو يعلن العصيان على والدته، ترك الغرزة متمردا، وذهب ليستقل في تحصيل رزقه، ووجهه أخشوشن.. وبرز الشارب بوضوح أسفل أنفه، وفي عينيه غضب ضد الجميع، ولا فكاك منه.

obeikan.com

(21)

ــــــ كل دي سجاير؟!

..ووجدتها تزيح متاريسي الكثيرة الموضوعة خلف باب الغرفة، وتتخطى الأيام والسنين التي استحضرتها وخلقتها في فضاءاتي، وكانت كمارد جبار استطاع أن يلتقطني من بين أكوام التراب، والطين، والزحام والفوضى وصدأ العمر الفائت، وفتحت الباب، وصنعت ثغرة كبيرة في غيابي الذي بصقت به في وجه الخارج منذ أيام مرت، وأحدت النظر في غيمة الدخان المحبوس في الغرفة وهي واقفة لا تزال عند فرجة الباب، ثم خصت لحيتي التي استطالت كثيرا، بأكبر قدر من اهتمامها، ثم دققت النظر في أعقاب السجائر الكثيرة الملقاة على أرض الحجرة، ومصمصت لأجلي شفتيها، كان جو الغرفة مختنقا برائحة الماضي، والسجائر والبول..

..وبدأت تأتي إليّ متخطية أكوام من المواضيع والحوادث والذكرى القديمة، ودخلت عليّ بعود مائل للأمام ويأز كليلا مع كل خطوة تخطوها، وفتحت الشباك بقسوة، ضلفتا النافذة، ارتطمتا بالحائط من الخارج، وأصدرتا صوتا مؤقتا أربكني..

..كل هذا الوهن الذي تمكن من جميع زاويا جسمها العجوز، كان

رفيقا بها وهي تأتي لعندي، في مشوارها القصير هذا، رأيتها تعمل بهمة من أجل إنقاذي، تفتش في مكنوني السري، وتقلب في محتوياتي وترص الجيد منها في ناحية، وترص التالف مني في الناحية الأخرى، وتمد يدها وتختطفني من بين كل هذا الماضي الذي دفنت نفسي في ترابه، وأخذتني إليها بإصرار المحب، وحنو القديسين، وطبطبت عليّ، ونفضت عني غبار الأيام الماضية العالقة بي، ونظفتني من رجع التذكارات، وصدى التواريخ التي وطأتني بغلظة، وتركت علامات غائرة في لحمي، وأتت بي من الخلف القصي، ووضعتني في الأمام القريب، ومنحتني نسيانا مؤقتا راح يعالج أعطالي الكثيرة التي سببتها لنفسي، وأنا في وحدتي تلك، وضمدت الجروح التي منحها لي الخارج الفسيح، وأعطتني نغمات صوتها الرصين الواطئ وأرجعت إليّ إحساسي بالوقت، وجاءتني بنعناعها الهائج كحياة واسعة، ووضعته بقربي على الفراش، الشاي الممزوج بالنعناع يدفع ببخره إلى فوق ويأتيني محتما، على الدخول إلى جوفي، ليستعيدني ثانية إلى هذه الدنيا، رفعت الكوب الزجاجي إلى أن واجهني بسائله البني الغامق، وكان قد تعالى في صالتنا الواسعة، صياح الديكة وقأقأة الدجاج وهديل الحمام، الذي تربيه أمي في عشتها الصغيرة، ووصل إلى الغرفة واستباحني وأسعدني، مثلما استباحني الشاي الممزوج بالنعناع، وأسعدني أيضا، وأطلت حمامة وحيدة من الباب وتطلعت لنا هادئة، ثم راحت تخطو للداخل، وتوالى دخول الطيور المسالمة إلى الغرفة ببطء وتردد وحذر.

..ولماذا تأخرتِ بشايك ونعناعك كل هذا الوقت؟ مرت أيام، يا أم وأنا في هذه الحالة ولم تهتمي بعزلتي التي خضت فيها، كنت فقط

تفتحين الباب وتطلين برفق وتنصرفين بدون حتى إن تلقيني بكلمة، تدخلين عليّ بصينية الطعام وتضعينها بقربي وتمضين بغير محاولة من أجلي، أي حكمة هذه التي أراها فوق احتمالك؟! ومن أي بقعة فوق الأرض تستوردين هذا الصبر الطري المنقوع!! ألا تخشين على ولدك وضناك من هذا العزوف الذي جاءه؟ وكم يا أمي تكونين قاسية كصخر الجرانيت أحيانا، ولم تسقيني في الأيام الماضية نعناعك الحبيب، ولماذا تمنحينني نسيانك عندما أدخل متاهتي الشخصية، ولا تأتين لنجدتي، إلا حينما تكونين قد تأكدت أنني صرت جريح المعركة الوحيد التي لها خضت؟، الجريح الوحيد الباقي والمحتاج لسرعة إنقاذك، عندها فقط تدفعين الباب بمهل، وتعملي على مسح نزفي من فوق الأرض، عندها فقط تشرعين في لملمتي، وقفل جراحي، وعلاج الجسد والنفس، أين كنتِ يا شيخة كل تلك الفترة الماضية!! يا أم، لا تجيئيني إلا حينما تسمعين صياحي وأزيز الأسلحة الغبية وهي تقطع في الأنسجة!! لا تدخليني إلا حينما تستمعين لبقبقة الجروح وهي ترمي بدمائها إلى المتسع!! أتدركين أنني لن ألقي حتفي الآن، أبداخلك ذلك اليقين الغامض، الذي يؤكد لك أنني سوف أظل ماسكا بمقاومتي إلى غير المنتهى!! لكن إلى متى يا ست هانم، سوف أكون مستمرا فيما تعتقدينه، وهذا التناقص، كل وقت، يقضم من نفائسي شيئا، انظري إلى الخارج، ولماذا نروح بعيدا، تطلعي إلى كفي اليمنى، وافهمي لما أقول، يا أم...

واللّه العظيم بحبك يا امرأة...

...وحياة النعمة، أحبك كثيرا، حتى وأنتِ تمارسين تأخرك معي،

تأخرك الهادف المقصود، الصادر عن سيدة تخضرمت بفعل التجارب، وفهمت، وتفعل ما يجب أن يفعل في الساعة والدقيقة الحاسمة..

.. وقربتني منها، شتمتني وشمتنيّ لتتأكد من أنني مازلت كما أنا، ولم يتلفني تماما إبحاري في رأسي المقفل، وعرفت أنني مازلت حيا، وأنني منها ولها وعليها، عرفت أنني قطعة منها ولم يبدد اتصالي بها كل هذا العنف الذي دلفت إليه منذ أيام بعد خروجي الأخير من المصنع الذي بيع لأغراب، ولكي تتأكد من أنها وجدتني حقا، وأنا الضال في غابات الماضي الكثيفة التي استحضرتها في عزلتي، غاصت فيّ بعينيها، حدقت، وحدقت، ولم تكلمني بكلمة، وحدقت حتى أحسست بنظراتها تضيء بشدة في أعماقي وتدفئني، وتزيح أكوام الثلج عن عاصمتي الداخلية التي أطفئ نورها وُطرد منها المارة والمتسكعون، وأغلقت حاناتها ودكاكينها ودور السهر، وتناثرت بشوارعها المظلمة الكئيبة، الجثث والنفايات والسيارات المعطلة، كل ذاك النور نهض وزحم أنحائي من جديد حين وضعت يدها على كتفي الملتهب بالألم المزمن، ثم شتمتني بلفظة جارحة أسعدتني كثيرا ومدت يدها إلى صينية الشاي وأتت بكوبي وجاءني النعناع حاميا ونشطا ودخلني بغير استئذان، ليتصاعد من أعماقي البعيدة نفير السيارات وصياح العابرين وموسيقى القاعات الراقصة..

– يا بهيم، ولا يهمك، يغور المصنع..

– ...!!!؟

– ..خد، اشرب الشاي..

..صدقيني بحبك يا أم، كما مازلت محتفظا بحقي في حب أشياء أخرى..

...ولا شك، أننا، حين نخوض ببله في غمار الماضي، الماضي يبدلنا، ويستعمر حدودنا حتى يصل لاحتلالنا الكامل ويسخط فينا ملامح الغد القريب، ويشوه فينا صفاء البصيرة، ويأسرنا بقدسيته الزائفة، لابد أن نتعامل مع الماضي ونحن نحمل مناعة ذاتية تحمينا من إغوائه المبهم، جلالة الزمن تضفي على الماضي نوعا من القداسة، أيضا الحنين الجارف هو أحد أهم الأشكال التي يفضلها الماضي، حين يجدنا ننجرف نحوه، الحنين المرعب أمام هذا الانصراف الذي حدث في الزمن، إنه هول كبير أن ترى نفسك كنت واقفا في منطقة زمنية بعيدة، في حين أنك الآن هنا!! أنت تكاد ترى ذاتك، الواقفة مازالت هناك، هناك في الزمن القديم، وتوشك أن تلمس الوقائع والظروف المحيطة بك، وتوشك أن تغيرها، لكن في اللحظات الأخيرة لا تقدر، والسبب هو مسافة الزمن الشفافة التي تفصلك عن نفسك القديمة، يحدث هذا في حين أنت هنا الآن، وما بين الماضي والآن، مسافة من عجز، جرعة من مستحيل، إنه ذلك الزمن المنصرف..

..الآن تجد ذاتك تبدلت وتغيرت مثل "الحكروب" يا عم السبع.

..وربما يكون هذا الانصراف الذي وقع وتحول إلى ماض، ما هو إلا محض مرارات ووقائع تصل لحدود الكارثة، ورغم ذلك تشّرع لنا القداسة طريقا واحدا لنصل إلى الماضي، وما هذا الطريق إلا الحنين الجارف المقدس، وكل ذلك يحدث لأننا لا نتعامل مع الماضي

الذي يخصنا بمناعة النقد الذي يحفظ لنا حيادية الجدال، وسلامة التلامس معه..

.. وأنا والحمد للّه، كنت أتعامل مع الماضي - منذ ثلاثة أيام - بكثير من الحنين المقدس..

..وملعون كل الماضي البغيض الذي يعطل مسيرة ما هو آت من آفاق الغيب!!

..وإن كان اجترار الماضي قائما في تلك اللحظة علي إنجاز ما قد وقع، فهذا يجعلنا نتذوق طعم عظمة قديمة لا تمد الحاضر بأسباب كافية لارتقائه، وكل ذلك يعود لحاسة البله التي تكبلنا بالزهو والمفاخرة، فحين نتعامل مع الماضي بمثل هذا الأداء، هنا نكون قد سجدنا أمام طغيانه وحنينه المقدس وما يحمله من تواريخ، هنا نكون قد ركنا إلي إنجاز كان، ولا نخطط لإنجاز يجب أن يكون، الماضي سهل بأفراحه وأتراحة، أنه قطعة من الزمن مرئية وماثلة في أعماقنا الكسولة، أما المستقبل فهو كون غامض يحتاج منا لجهد جهيد حتى نستطيع تشكيله وخلقه، الماضي سهل، أما المستقبل فهو الأصعب، لذلك تذهب إليه العقول التعبة، المأزومة، المريضة بعجز في ملكة الخلق، أنا أذهب إلى وجبة الماضي الجاهزة لأنني متحير في ماذا أطبخ اليوم وبأي المقادير أصنع وجبتي المستقبلية..

..ترى إن حدث هذا وتعاطينا الماضي بمثل هذه الطريقة، من يكون المسؤول؟، هل هي أمراض نفسية، وذهنية قابعة في رأس الشخص فقط، أم إلى جانب العوامل الشخصية لكل منا، توجد أيضا عوامل

عامة، جعلت الشخص مغرقا في العيش من الذاكرة، ومدفوعا للدخول إلى متسع الماضي الرحيم؟! نحن حين ندخل الماضي ببله، نتعامل مع انتصاراته، كحدود عظمى، ونهايات قصوى يصعب علينا "الآن" تكرارها أو تحقيقها للمرة الثانية، لذلك يظل الماضي مصدرا أخيرا للمباهاة والفخر، بل هو يصبح قرارا بعدم التجاوز، والسجود أمام ما تحقق فيما هو خلفي..

..أيضا نحن حين ندخل الماضي بطيبة، ونجده مكدسا بالنكسات، والهزائم، والألم، تجدنا نجتر أحزانا قديمة مفزعة، تعطل فينا شهوة الوثب فوق إخفاقاتنا، والتطلع، إلى الأمام، لنظل ركوعا سجدا لصنم الماضي، ونستمر في تجرع مراراتنا لمرات عدة، وكلما تسنى لنا الحنين إلى لذة الألم!!

..وكنت ساجدا أمام تمثال الماضي المبجل، وكانت الست الوالدة تحاول بصدق أن تمحو المسافة المباعدة ما بيني وبين الحضور، وتحاول أن تنهي ركوعي الطويل، كانت تريد بحق أن تثبت أنني مازلت موجودا قدامها ولم أتغيب بعد، كانت تمسح بهمة، كل ما تستطيع من مسحوق الخفاء الناعم، الذي كنت أضعه فوق ملامحي لأتخفى، وأختفي في جمجمتي، كانت تفعل كل هذا ببطء وعناية وحب و هدوء..

- ولا يهمك يا جمال يا ضناي..

..وضعت صينية الشاي بجواري وقالت ينبغي أن نركب في هذا المساء، ونذهب إلى "الكارور" لنقابل الخال "صالح"، وذكرتني بإرثها في بيت أبيها الذي يريد أن يأكله أخوها الكبير "صالح"..

..هي طبعا، وكعادتها ستنجح في إيجاد الأسباب القادرة على إخراجي من غيابي الذي أدخله اختياريا كلما قفل باب الخارج على أحد أصابعي الثمانية المتبقية من غير قطع، هي طبعا وبعد أن أمنحها موافقتي على المشوار المقبل الذي تريده، لسوف تنتابها قوة خفية، ولسوف ينعدل عودها المتآكل هذا، وتسبقني في المشي، فهي أمي، وأنا أعرفها، أكثر من الجميع..

..وهذه الأيام صار الحر والبرد يتقاسمان جسمي، يهزني الصقيع ويدخل تجاويف عظمي، بعد دقائق يذهب عصر الثليج إلى حاله، ليتلقفني حريق من القيظ المهلك، أسرع إلى مروحة الغرفة المعلقة في السقف الجريدي، وأشغّلها، تلف وتدور وترمي عليّ ضجيجها وهواءها الساخن، فيسرع إليّ الإحساس بالبرد ثانية، أطفئ المروحة، وأتكتك بأسناني، وأرتجف في بعضي..

..الوقت غروب، أنا الآن حريقة كبيرة ناشبة في الغرفة، بقايا قيظ النهار المنصرم، تنفخ في لحمي العاري وتشعلني أكثر، أسرعت وأشعلت مروحة السقف، لفت ودارت حول نفسها، ورمت عليّ أرتالا من الهواء الساخن، خرجت أمي لتلبية نداء أحد الزبائن الذي يريد سلعة ما من دكاننا الصغير، وجلست على السرير متحصنا بنفسي وبالغرفة، وريح عفية أسمعها، وهي تزوم وتدمدم في الخارج، ومن النافذة المفتوحة رأيت وجه العالم المعتم، أنا بردان، وأشعر بخواري وألم حاد يفتك بمفاصلي، أنا لازم أنام، وتمددت على الفراش ولففت أعضائي بالبطانية، كان جسمي العاري فيما عدا "السلب" يرمي إلى الخارج بالعرق، هذا هو جسمي كلما توتر أفرز من أنسجته الماء

المالح، ولا يفرق معه بردا أو حرا، وذلك ساهم في سهولة إصابتي بألم في الأعصاب والمفاصل، كانت حالتي لا تسمح بعقد صلح مع أحد وكنت أحس بجسمي وهو يتسلط عليّ بأمراضه المزمنة، وكانت عفونة الغرفة تطلع بهوادة من حولي..

-..لا، لا، لا...

..لا ينفع أن أستأنف حضوري إلى الأرض، وأنا بهذه الحالة من الضعف المسيطر على كل ما أملك، لا ينفع، ولا بد أن تستجيب أمي لضعفي وخوفي الجاثمين على كل قراراتي، ولا تفعل معي مثلما يفعل "الحكروب" مع الناس الغلابة، فهو دائما حنين ومتسامح ويستر عورات الخلق حين يكون مسالما، وفي أحيان أخرى اضطرارية أجده يحب نفسه أكثر منا، فيظهر لنا عيونه الحمراء، وطبعه العدواني، فيلقي بسيوله الجرارة فوق أبنيتنا الطينية الضعيفة ويهدمها بجرأة وصلابة وإصرار، وبإصرار أيضا نعيد ترويضه، ونصالحه ونتمسح به، ونمحو من فوق مزاجه شرا تقرفص فوق صلابته، على حين غفلة منا، فنعيده للتهذيب، ونطرقه بالحياة مجددا، حتى يطرى صخره ويرضى، ونهذب ما نقدر من أفعالنا حتى يسامحنا، ويتركنا نعيش في كنفه وفي أنحائه الوعرة، كثيرا ما يتعارك معنا، ونتعارك معه ويبغضنا ويهاجم أفعالنا وقت أن ندخل الخيانة في تصرفاتنا ونحن نعيش فيه، وأحيانا أخرى يخوننا من تلقاء نفسه، ويضربنا بالمتاعب بلا سبب، ليصير ابنا بارا للطبيعة وعنفها غير المبرر، يصير مثل حبيبتي القديمة "هالة"، التي تعملقت فوقي في سالف الزمان وتنبأت لي بتاريخ مديد من عدم الاكتمال، تحولت إلى جبل عظيم من الصخر وتركتني خيطا

أخيرا من ماء بارد، ياه بارد، هي في سالف الأزمان تركتني ناقصا وذهبت عازمة، وخانت وانقلبت من لحم لين نابض، إلى جماد صغير بحجم موت كبير، وهناك، هناك ليل أسود سخيف يرتفع فوق الدنيا كبحر بلا ضفاف أو نهاية!!..

- يا جمال، إحنا مش مقسومين لبعض يا حبيبي..

- أيوه، عارف يا حبيبتي..

..وفي دائم الأيام هو معتدل الأفعال معنا، وأضراره عادية، ومقبولة لدينا، ومحتمل، ومدربون على كيفية دفعها ومعالجتها، حين تمس أحدا منا بسخطها العارض، فنحن نعرف كيف نلجم شروره العادية وقت أن يسربها إلينا، ونفهم كيف نتشبث بالخلاص،

..الجبل، على فترات متباعدة يضعنا في امتحان، فيبعث إلينا بوفود تؤرق حب المواصلة في أعماقنا، فمثلا، تزحف إلينا بخبث ودهاء، ثعابينه وعقاربه السامة وصهده الصيفي الحارق، وصقيعه الشتوي الكاسح، وبمشاغبات طفولية، غير بريئة يؤرقنا بحكاياته الخرافية وعفاريته وأشباحه ولصوصه وقاتليه وقطاع طرقه، ومعاركه، ومع كل ذلك، لا يتشرد منا عشقنا للحياة، فسريعا ما نسترضيه ونحاول التصالح معه، ومع ذواتنا، ونمهد الفهم بداخلنا لنخلق حيلة تكفي لتصغير كل هذا المكر الشرير الذي يشاء إيقاف مسيرة عشق، تريد الاستمرار كهدف..

..يا جماعة لابد أن نعيش ونضع إمضاءاتنا فوق وجه الصباح المقبل، ولابد أن نطلق صيحة الألم عالية حتى تسمعنا السماء الصاعدة فوق

كل بيوت الجبل، لازم نحط الدنيا في صدورنا ونمد في أعماق الأرض جذور البقاء، ونناادي للفرح المقبل حتى يأتي بغير شروط ويمسح منا وسخ البلادة، حتما القادم لن يكون شجيا ومؤسيا أكثر من تلك الليلة، تلك الليلة التي أخذت فيها استمارة ستة من المصنع، الشرور الكبيرة التي يصنعها "الحكروب" ضدنا محتملة ويمكن معالجتها، أما ما يأتي من شرور يصنعها الإنسان هنا أو هناك، فهي كثيرا ما تستعصي على التداوي والعلاج، الإنسان أقوى من شرور الطبيعة وبطشها، أنه حاذق وقت أن يغرس الأذى في لحم الآخر، هو مدبر وحكيم وقتما يخطط للمعارك المهلكة، "الحكروب" رغم كل بأسه وسطوته، يصبح غلبانا، أمام أفعالنا الشريرة، وطيب القلب، وأهبل في غضبه، وأهوج.

..مصنع الثلج باعته "الحكومة" تبعا لبرنامج حكومي صارم وغامض، حتما لن تباع أشياؤنا الجميلة في الغد القادم، ولربما تلمس المحبة جهامة "الحكروب"، وتدهنه بالزيت فيطرى الصخر ويستجيب لنا، حتما في نهاية الأمر سوف ينمو التصالح بيننا وبين الجبل وكل الدنيا، وسنتوافق، حتما، "الحكروب" يا جماعة دنيا صغيرة، ونموذج بالكربون للبلد الكبير الذي نعيش فيه، هو دنيا مغلقة علينا، ومفتوحة على كل الاحتمالات الكبيرة.

(22)

(23)

..وأنا أحيطه بذراعي لأسنده حتى لا يسقط، شعرت به يرتجف، ولما حدقت فيه وجدته كائنا رخوا، يود أن يتخلص من خوف عظيم يعذبه، في تلك الأثناء، جاهد ببسالة حتى يخفي الكم الأكبر من جزعه الغامض، وكان مصدوما من نفسه ومكسوفا، ويحاول أن يصل إلى حياده البارد المعتاد، لكنه لم ينجح، وكرر أسفه لنا ونحن نغادر العربة، أكثر من مرة، وكان "مسعود" غاضبا وغير راض عما حدث، ويفرد حيزا من الامتعاض على وجهه، ويرد بغير مبالاةً على أسف "محسن" المتكرر، ولم ينظر إليه لثانية واحدة، وكانت خطواتي أنا ومسعود تضرب الأرض الناشفة بقوة، ونحن صاعدون إلى منطقة "المحمودية"، تلك التلة الصحراوية الشاسعة، التي ازدحمت بالعمارات السكنية الجديدة..

- سامحوني يا جماعة..

- .. على إيه يا جدع، ألف سلامة عليك يا محسن..

- ...(مسعود في صمته الجاف غير الإنساني)..

- بس متقولوش أي حاجة لـ"وداد" عشان خاطري..

..هكذا أقول لنفسي دائما: "الصخر يكون مسالما أكثر منا أحيانا..".

..ومدينتنا الصغيرة المفتوحة على آفاق الدنيا شتاء وصيفا، هي

obeikan.com

محض اختبار للعزيمة بداخلنا، وما الجبال، والرمال، والهضاب، والقحط، إلا لجنة اختبار صارمة تمتحن حبنا لله العظيم، فإن كنا نحترم الله ونحبه كحفنة من الخيرين، فعلينا، أن نمحو كل هذا الظلم الصحراوي، ونضع مكانه نتفا من النور تكفي لأن تكون إجابة شافية، توضح مدى استمساكنا بقرار الرب، وحرصنا على تنفيذه، والرب قرر أن نعيش، لذلك يجب أن نستمر في الدنيا ونؤكد ثبوتها، لنحيي في أمخاخنا وصايا السماء..

..الحياة ليس معناها أن نعيش فقط، بل إن نبدد ونبدّل الظلم الأرضي أيضا، ونحيله إلى ألوان فضفاضة، وأشكال من العمار، لتعم نعمة العدل أرجاءنا الإنسانية الضيقة، ومن هنا يتاح لنا أن نعيش، وأن ندوم محترمين لروعة الوجود، الحياة في حقيقتها، هي قرار حاسم بالصراع، الصراع بين كل ما هو قاسٍ وجامد، وبين كل ما هو يميل إلى أن يكون لحما وروحا واتساقا جميلاً..

..وكلما نظرت من فوق إلى أنحاء المدينة القاحلة، أجدها محاطة لا تزال بحيز كبير من الرمال والصخر والجبال والهضاب والخرائب، كل هذا المكر الأرضي يحتاج منا صفوا أكثر ونظافة أكثر مما هو متوافر في ضمائرنا، يحتاج تقربا حميما ومثقفا للرب، حتى يمكننا أن نمحو هذا البأس، والجبروت المحيط بنا، هذه الأرض صنعها النيل، سيدنا النيل، المقاتل الأسطوري الأول ها هنا، هو أول من حمل سيفا ودافع عنا، ببسالة دلف إلى حمية الصراع وخلق من أجلنا مدينتنا، ومن يفهم ومن يعي..

obeikan.com

حتما من يقاتل مثل ماء صافٍ، لسوف يجد بركة ونعمة في عين الرب، حتما..

..لكن من منا يشبه الماء في شيء؟ من؟!

..وكنت قد شردت عنهما للحظات..

- بوظت عليكم الليلة، متأسف يا جماعة..

..وكلما نظرت إلى جيل من العمار تم إنجازه سالفا، فوق فوهات الجبال الوعرة، والرمال المعزولة، يساورني الأمل في إضفاء مزيد من الإضاءات، التي ينبغي أن نعلقها، هنا، وهناك، وهناك، لكننا نتأخر كثيرا، هذه الأيام يمسك بعزائمنا مرض التأخر، واللكاعة المفرطة، وسكن في أعضائنا البطء، ولم نعد نناقش الدنيا، ونفسرها، بمعانٍ رحبة..

جديدة، تحض على نثر بذور الخير في الأماكن القاحلة، الآن صارت المواضيع الغبية، تعطلنا عن بلوغ تخوم الإنجاز، وفقه العطاء..

..ومن يفهم، ومن يعي..!!

..ومن له أذن فليسمع، ومن متاح له أن يشاهد، فليرى..

...وقبل أن ينهار "محسن" ويسقط على الأسفلت فجأة، كان قد أحتد معنا في الجدال، وخرج عنوة من حياده، وقال الآتي بصوت عالٍ ولم يأبه باكتظاظ حانة "آمون" بالعديد من الزبائن:

-- أيوه أنا كافر يا مسعود..

ووقف ووجه صوته العالي إلى جميع من بالحانة، قائلا: "أنا كافر يا جماعة صدقوني.. ".

..ودق على "الترابيزة" بقوة وأكمل وقال الكثير عن مراراته الدفينة، وعاد يضرب بيده عدة مرات على وجه المائدة، وسقط أحد الأكواب وتشظى.

- هذه كلمات "محسن راتب" بالتفصيل:

..ولأننا نحب الرب بالمقلوب، وبطريقة عقلية مصابة بالصرع الفكري، صار الرب ذاته يعطلنا عن نشر فتوحاتنا الجديدة في فهم أنفسنا وتقديم خطاب مغاير، يستطيع أن يتوافق وصيرورة الزمن، وقل منسوب البهجة في دمائنا، وتفشي فيروس العداء بين كل من كان يختلف في شيء مع الآخر، صار الرب عقبة في طريق ما هو قادم، الرب العظيم صار موسما للقحط، وإجازة رسمية طويلة، كل منا فسر ربه وفق مبتغاه الخصوصي، نحن صنعنا الله بمقاسنا الخاص، من هو الله؟ أهو جمع من الآلهة؟

..كل حفنة من العشائر اختارت ربها، وحاربت به الأرباب الأخرى التي عبدناها جميعا، ونشرنا شرعها المغلوط في الآفاق، فأعتمت الأيدي والعقول، ومرضت الأرواح بالالتباس الكثير، وإن كنت أنا أعلن الحادي أمامكم بشجاعة، فأنا أعلن كذلك أنكم جميعا وثنيون أغبياء..

- بالذمة يا جماعة أوعوا تقولوا حاجة لـ"وداد"!

..صدقوني يا جماعة، من المفروض أن يكون هناك إله واحد، ويتمنى

لنا كل ما هو رائع، ويدعو لتقدير الإنسان للإنسان، وتقدير الكل، لروعة هذه الدنيا الجميلة التي خلقها لنا، هو فقط يمتحن أفعالنا فوق الأرض، ويسمح للحروب والسياسة، والنزاعات، والفساد، والظلم والاضطهاد، بأن يوجد، من أجل أن يعضددنا، ونثبت فيه، ويثبت هو فينا، ونقوم من أجل أن نذكي روح الفعل، وليس العكس، وهو يحيطنا بالخير، والشر لكي يؤكد فينا قيمة الاختيار..

(ولم أستطع من كلامه أن أصدق أنه ملحد حقا، بل كان كلامه في بعض الأحيان يثبت العكس، يثبت أن "محسن" إيمانه قوي وعميق ومحزن في نفس الوقت، وصرت محتارا في كلامه الجميل الثائر..).

- ..بالذمة مش عاوز "وداد" تعرف حاجة عن اللي حصل، علشان خاطري..

..هناك من يسعى، ويشيد طابقا جديدا من النور ليمحو آخر قديم، من الدنس الشرير، وهناك من هو يتلاطم، مع الخيارات الكثيرة، وهناك، من حدد لنفسه خيارا واحدا هو أن يحب نفسه فقط، وترك الناس والحياة، والرب البعيد هناك في الأعالي، لماذا جعلنا من الله التباسا مضنيا، وأولناه وفسرناه بمزاجنا، وتبعا لمصالحنا؟!! كل ما يحدث في الأرض من عهر سياسي وفساد، هو حدث بالفعل من قبل قوم مؤمنين، ضد أقوام مؤمنين آخرين، وتحت مظلة الكلام المقدس!! كل العنف الذي يأكل العالم ويمصمص عظامه، حدث، ويحدث تحت تأثير المقدس والطاهر، والصالح، والإلهي؟!!

___ آه والله، بداية من جريمة "قابيل"، ونهاية بعاصفة الصحراء

وحرب الخليج وحصار العراق واختطاف فلسطين وتطاحن الفصائل في لبنان، إلخ...!! اقروا التاريخ كويس..

- ...!!!(مسعود).

- ..!!! (أنا).

..أي إيمان هذا؟ وأي الله هذا الذي تعتنقه يا "مسعود" انظر إلى نفسك يا عم "جمال" وإلى عمر أيامك، وشبابك، وأصابعك المقطوعة، كل هذا ذهب بلا ثمن، كل هذا يحدث لكم وفق إيمان كامل، ويجيئكم من أشخاص يحترمون إلههم ويحبونه، ويقدمون له ذبائح الطاعة والشكر، أتصدقان هذا الهراء؟!!!

..وصمتَ "محسن" وكنت أفكر في رد ثقافي يبرزني في الجلسة الثلاثية هذه، فلم أجد أي ثغرة لأخرج من صمتي، ولم أجد أيضا سببا يجعل "محسن" مستوجبا حكمي، أو الاعتداء على وجعه الدفين، الذي ظهر وبان أمامنا على حين غرة، لم أره مشتعلا هكذا من قبل، بل كان نقيا جدا في تلك اللحظة، وأبيض كالثلج، كان يجلس أمامنا نظيفا، وغير متسخ بأي غاية وضيعة، تجعلنا نقتص منه نحن الاثنين - أنا ومسعود - أو نعاقبه علي انفجاره في وجوهنا هكذا وهو الهادئ دوما والمستكين لمجريات الأمور بشكل مستفز، والمرتبك الأفعال في كثير من الأحيان، أراه الآن ثابتا ويجسد كلامه قدامنا بمنتهى الصدق، هو الآن لا يريد أن يتمنظر علينا بمنطقه الراجح الذي قلما أظهره وكشفه لنا، كان "محسن" يحترق من أعماقه ويصهل من صدره بدخان غامق كثيف لا ينتهي، كانت الحرائق تؤجج مقلتيه وتغطيهما بألسنة حمراء،

وكان حانقا جدا ويكاد يتفحم قدامنا من فرط الغضب، وكان صادقا، صادقا كما لم أعهد من قبل، وإنسانا نبيلا وجميلا، جميلا بحق.

- بس بالذمة أوعوا تجيبوا سيرة لوداد، هي تعبانة ومش حاملة.

obeikan.com

(24)

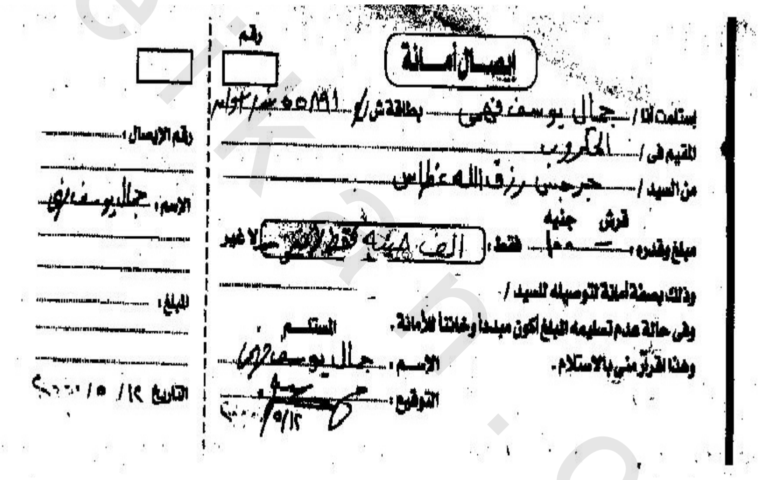

إيصال أمانة

رقم

يستلمت أنا / جمال يوسف فهمي بطاقة ش رقم ١٩١ [illegible]

المقيم فى / الحكروب

من السيد / جرجس رزق الله عطاس

مبلغ وقدره جنيه قرش فقط الف جنيه فقط لا غير

وذلك بصفة أمانة لتوصيله للسيد /

وفى حالة عدم تسليمه المبلغ أكون مبدداً وخائناً للأمانة.

وهذا اقرار منى بالاستلام.

المستلم

الاسم : جمال يوسف

التوقيع :

رقم الإيصال :

الاسم : جمال يوسف فهمي

المبلغ :

التاريخ ١٢ / ٥ /

(25)

(لديك رسالة)

(أرجوك كلمني، شكرا، جرجس، 21/6/2000)

..وهذا إيصال الأمانة الذي جعلني "جرجس النقاش" أوقع عليه باسمي الثلاثي كاملا، في مقابل أن يمنحني مهلة جديدة، حتى أستطيع أن أسدد دينه عليّ، بصراحة، وأنا أمضى له تلك الورقة، كنت متحرجا منه، ليس منه بالضبط، لكن كان المنبع الأصلي لهذا التحرج، تلك الصداقة القديمة التي بدأت في الترنح والسقوط..

..في الأول، بدأت أتلكأ قبل أن أضع اسمي الثلاثي فوق الورقة الصغيرة، لم أكن بذلك التلكؤ أريد التهرب منه، بل كنت أريد فقط أن أمنح لصداقتنا لحظات جديدة لتعيش، كنت فقط أحاول أن أمنحها أكبر قدر من الوقت لتستمر، وربما كنت ألقي النظرة الأخيرة على تلك الصداقة الطويلة التي بدأت تتهدم وتعصف بها الأحوال، وربما كنت أعطي "جرجس" فرصة أخيرة ليتراجع عن قراره ضدي، لكن، ولأنني كنت قد بدأت أفقه أشياء وأشياء عن التحول والتبدل الذي يصيب الشخص وهو يجابه أزماته، ولأنني أيضا عرفت عن طريق الصدفة، أنه كلما كان الإنسان واهنا من داخله، هزيلا من أعماقه، كلما أفرز

obeikan.com

الواقع القذر الذي نعيشه، أسوأ ما في ذلك الإنسان، أنا أعذره، لكن أنا لم أسكر بفلوسك يا جرجس، لم أذهب بها إلى الخمارة مثلا، أو إلى غرزة "أم حسن" لأحشش، لم أشتر بها حذاءً أو قميصا جديدا، أنا فقط سترت البنت "صبحية"..

..بمبلغك التافه هذا، وبجزء من معاش أمي وجزء من راتبي، وجزء من جسدي جّوزت أختي إلى ابن الحلال "مقبل"، سامحني يا صاحب على التأخير، سامحني لأنني امتطيت صداقتنا القديمة لمسافة لا تحتملها، وصار مخولا لك أن تسلمني ليد العسكر..

..كان يقف خجولا أمامي ومسحوقا أكثر مني ويهرب بعينيه إلى الاتجاهات البعيدة، طاردني لمدة ثلاثة أيام ولم أكن أهتم، ولم أكن أتوقع منه هذا التصرف، أخيرا عثر عليّ وفاجأني بمطلبه.

– طيب مدام معاكش فلوس، خد امضي على دي!

– ...!!!!؟

– معلش، أضمن حقي يا جمال.

..واقتحامه، الذي كان باديا ومجلجلا في أول اللقاء، أخذ في التهادن تدريجيا حتى انطفأ، وجرأته التي بدلته إلى شخص غيره لا أعرفه، انحصرت تماما وباتت لا تبين في مقلتيه، وتبخر الغل ومشاعر الانتقام والغضب، وبدأت إجراءات صداقتنا القديمة تطفو على السطح وتحل مكان المعاني الجديدة الثائرة، التي قابلني بها وأنا أعبر في شارع "الحدادين"...

..مثل مخبر نظامي مدرب طلع لي من إحدى زوايا الشارع الضيق المزدحم، وسد عليّ الطريق وقال بصوت متربص به خليط من معانٍ مبهمة "أزيك يا أستاذ جمال"، لكن نبرة الاستهزاء، كانت واضحةً في صوته ونظرة الغضب الواصل لحدود الانتقام، معنى لا يحتاج إلى تفسير، فقط حيرتي المعاني الدفينة الأخرى، التي كان يختزلها في صوته ونظرات عينيه، كل ذلك كان في بداية اللقاء، وتدريجيا بدأ يستفيق، وتدريجيا بدأ ينتبه إلى عمر عدى من المشاركة والمكافحة معا، وشباب أنفقناه سويا في سكة واحدة، وأيام حلوة وأيام مرة شربناها وأكلناها معا، ومازال كل منا يضربه الإخفاق في الصميم، ومازلنا نعافر لنستمر واقفين، وكل المسافات التي خسرناها لم تعد تعنينا في شيء، بل الذي صار يهمنا حقيقة أنا وجرجس ومسعود وعبد الوهاب ومحسن راتب وغيرهم من الأحباب، هو ألا نخسر مسافات جديدة، أن نستمر واقفين في أماكننا ولا نتراجع أكثر من ذلك، كل منا يهاب خسارة أمتار أخرى من الأرض الواقفين فوقها، الفزع الأكبر ليس من الثبات والوقوف في أماكننا القديمة، الفزع النهائي يدخلنا من تلك الأحوال التي قد تضطرنا وتجبرنا على الركوع الصريح، والامتثال لمن هو قادم من خلف هذا الدخان..

..وفرضت العلاقة القديمة شروطها على اللقاء، فانتابه انكسار واضح مضنٍ جعلني أشفق عليه، ما هذا يا "نقاش"؟ ما هذا، يا صاحب؟!! ملعونةً هي الأيام، وصيرورة الزمن التي تبدل الإنسان وتضعه في امتحان، يا جرجس ملعونة من أجلك كل أجنحة الفساد التي تضرب خافقة في حياة الناس وتلوث الأرض بالخسة والنذالة والألم، وطوبى

لكل من يسمم صداقة قديمة أو يعتدي على روح إنسان ويضع في داخلها ذلك الندم الكبير، الذي تحسه وأنت وأقف قدامي، طوبى له، لأنه لن يجد غفرانا بحجم دنسه، وكيف يا رجل لم تنتبه لمكر الدنيا وحيلة الزمن؟!!! ولماذا يا رب نسى الناس صوت الأنين ولون الصياح؟! لماذا يا رب صار الناس يخطئون في تصويب غضبهم وبدلا من أن يرموا به في الاتجاهات الدخانية القابضة، الموحشة، صاروا يوجهونه لبعضهم، مما جعل لحم العلاقات يتهتك ودم المحبة ينزل ساخنا، ليعطي لتلك النكسة مصيرا كالمستحيل ذاته..

..وكاد أن يأخذ مني الورقة ثانية قبل أن أوقع عليها باسمي، فأبعدت يده بخشونة، وأخرجت القلم من جيب قميصي والبطاقة الشخصية من حافظة نقودي، لف بعوده الطويل واندفع هاربا كثعبان مسالم بين البشر، كان يريد تقريبا أن يتخبأ من خبطات عيني اللائمة، كان يحاول أن يعتذر بذلك الفرار المباغت، شارع "الحدادين" المخصص للحام الأشياء التالفة بمادة القصدير، كان في أوج زحامه، كل من له وعاء نحاسي أو "ساجي" أو "قلب شيشة" تالف، يأتي إلى شارع "الحدادين" ليلحمه، كل ما هو مفصول لاثنين أو مخروم، يأتي إلى شارع الحدادين ليُلحم ويعاد إلى صورته الأولى، وكنت قد أتيت إلى هذا المكان لألحم "قلب شيشة" قديم، بعد أن سيطرت على فكرة إقلاعي عن السجائر وتدخين "المعسل" لترشيد النفقات، وأنا طالع من الورشة الصغيرة بعد أن أصلحت "القلب النحاسي" رأيته يقبل نحوي بهمة وجرأة لا تقبل مساومة..

- أزيك يا أستاذ جمال!! فينك يا باشا!!؟

..وها هو بعد أن مد لي يده المعروقة بالورقة، لأمضيها ضمانا لحقه، أسرع وحاول الهرب، بعد أن قسمني لنصفين، بادر وتركني وهو أشد حزنا مني، شطرني ومشى مسرعا نادما علي فعلته، إلى أي ورشة صغيرة أذهب ليعيدوا لصقي من جديد يا جرجس، لكن نظارتي الطبية استطاعت أن تصيده من بين أكتاف الناس، أسرعت خلفه بالشريحة الورقية المستطيلة، وانعكس الموقف وبدلا من كونه يطاردني ملحا للعثور عليّ، أصبحت أنا الآن الذي أطارده وأحاول قنصه من بين الزحام.

..الآن، ولحد ما، كنت قد تقبلت فعل "النقاش"، عادي يعني، الفجاجة الحقيقية لا تتمثل في فعل صاحبي معي، تلك الفجاجة كانت سوف تتمثل فيّ أنا نفسي، إن لم أتوقع هذا الأمر، هذه الفجاجة الصرفة، كانت ستتجسد في داخلي حقا، إن لم أتوقع الأمر وأتقبله، وأمشى راض إلى إنهائه، لأتمم ملهاة كبيرة، بحجم صداقة طويلة على وشك أًن تسقط وتتفتت تحت أرجلنا، برغم كل المعارف السابقة، ظل تصرف "جرجس" تجاهي يؤلمني كثيرا، يبدو أننا لن نفلت من الخسارة المحتملة القادمة، في نسيج الواحد الجواني، سيظل جزء مشاعري خالص، لا يقبل المساس، لا يقبل تأويلا أو تفسيرا، أو أي مبرر عقلاني يحاول تفعيل الموضوعية في هذا الأمر أو ذاك، ستظل تلك القطعة الخام من المشاعر، غير قابلة للاعتداء، وأن جرحت ستستعصي على الالتئام، هذا القطعة المشاعرية الدفينة الملقاة على رصيف مجهول في أعماق الشخص، ستستمر رافضة لأي تبريرات أو أعذار، تحاول الوقوف في صف المعتدي، ولم ولن تقبل أي مساومة أو تسويف سخيف.

..ركاكة الفهم والعبط القح، كانا سيصيبانني حقا، لو لم أكن أتوقع في مثل تلك الحقبة من الأيام، مثل هذا الفعل من صديق عزيز وطيب ووحيد مثل "جرجس النقاش"، هنا تكون الطامة الكبرى لغبائي، أنا الحمد لله تلوثت بكثير من المكر، وتفقهت في أمور الدنيا لحد الوجع، ولم أعد أبدو غلبانا كما رسمني صلاح في الصورة السابقة.

..لذلك لحقت به وأوقفته وشددته من ذراعه بعنف وطلعت به إلى الطوار ووقفنا بجوار إحدى الورش الصغيرة، أنتبه صاحب الورشة لحركتنا العصبية وتهيأ للدخول وفك الاشتباك إن لزم الأمر، كان ينظر إلينا مستعدا وهو يمسك بمقبض "كاوية اللحام" النحاسية المتوهجة، كان الرجل يشرع "المكواة" باتجاهنا بحركة عفوية، وكأنها بندقية صيد صغيرة يريد أن ينهي بها الحدث القادم، وظلت جبهته السمراء ترمي بقطرات لامعة غزيرة من العرق، وكانت، عيناه تحدقان فينا وتنتظر.

وقف مخذولا أمامي كامشا في بعضه وهو يردد بصوت خفيض "خلاص يا جمال، خلاص".

..الحق أقول، سيظل كامنا في أعماقنا جزء بعيد تماما عن العقل والمنطق والحصافة، جزء لا يحتمل مجرد اللمس، جزء دائما ما يصيح فيك صيحته الأخيرة قائلا: لا تستسلم، أرجوك لا تؤذيني، أرجوك، لا تستسلم لشروط الخارج، من أجلي أنا لا تستسلم، والحق الحق أقول، كان جرجس في طور استسلامه الأخير!

وبعد مرور فترة صامتة بيننا، كتبت اسمي الثلاثي فوق الورقة وأنا ألعن الظروف التي لم تتح لي فرصة كاملة حتى أرمي بنقوده في وجهه،

اقتربت منه خطوة جديدة وأنا أمد إليه يدي بكبرياء المهزومين، وعندما لم يتجرأ ويأخذها مني، طبقتها طبقات صغيرة ووضعتها في جيبه ببطء وعناية، وحينما كان محتارا في نظراته وإلى أين يتجه بها، كنت قد تركته بصمت مهيب وانصرفت.

..وكنت وأنا سائر في الشارع، أنظر كل حين إلى "قلب الشيشة" النحاسي الذي أعيد إلى الحياة من جديد، كنت أقلبه بين يدي وأنا أجزم أن في هذه الدنيا أشياء، إن انفصلت عن بعضها، يصعب على أمهر الصناع، أعادتها إلى طورها الأول، يصعب لحمها بنفس الصعوبة التي فكت وكسرت بها.

..وهكذا كتبت في الورقة..

- جمال يوسف فهمي..

- بطاقة ش رقم/ 55891

obeikan.com

(26)

(ألو، أزيك يا أستاذ أنسي، أنا كويس الحمد لله، أنت ظروفك إيه النهارده، فاضي؟ لأ بس كنت عاوزك في موضوع كده؟).

بعد أن شربت الشاي معه ومع ابنته "بسمة" الصامتة دوما، قابلته في "الحكروب" مرات عديدة، لكن توثقت معرفتي به عن طريق المصادفة، رأيته في الزحام وهو واقف في الطابور ليقبض معاشه الشهري فعزمته على واحد قهوة، في المقهى القريب من البوستة القديمة.

..في البداية أعتقد أنني قدمت إلى هنا لأقبض معاش أبي، وحين أخبرته إنني آتي إلى هنا مع بداية كل شهر لأقبض معاش المرحوم والدي، ومعاشي الشخصي أيضا، اندهش ولم يصدق، وقال هازئا: "واحد زيك في عز شبابه ويطلع معاش ويقابلني هنا في المعاشات، متأخذنيش دي حاجة تحزن يا "كمال" يا ابني!!".

ومقهى "العروبة" القديم يقع بجوار مكتب "البوسته" العمومي، أمامه تماما شارع الكورنيش، ومن ورائه شارع السوق السياحي، وعلى مبعدة منه من جهة اليسار يقع شارع "عباس فريد" الصاعد بحدة إلى منطقة "الطابية"، في تلك البقعة العريقة من المدينة تتناثر الدكاكين القديمة، ومحال "باتا للأحذية" ومحال "سينجر" لماكينات الخياطة،

obeikan.com

وشركة "بنزيون" وبنك القاهرة والإسكندرية المطلين بواجهتهم الجرانيتية على الكورنيش مباشرة، وعلى مقربة من المقهى محل وحيد لبيع الأسلحة والذخائر، ومعدات الصيد..

وكنا لحين انصراف الزحام، نذهب إلى تلك المقهى ونشرب القهوة المضبوطة وندردش، كنت كل حين أذكره باسمي،"اسمي جمال يا أستاذ أنسي، مش كمال".

وكنا نتكشف بعضنا بمهل، كانت لقاءات عابرة سريعة في البداية، ثم بدأت تجنح إلى المكاشفة والحميمية ووجدت فيه مشاعر واسعة الضفاف، ومعارف ليس لها من سواحل، وعنده ذوق إنساني يتخطى ما هو متعارف عليه، وحسه المرهف يذهب إلى جوانب تخص كل شيء في الحياة الواسعة..

ومن أصابع يدي المقطوعة بدأ يدخلني برأفة ودفء، ومن انحداره من مركزه الحكومي المرموق ونزوله إلى "الحكروب" دلفت إلى عالمه بفضول، وباح لي وانفتح كل منا على الآخر، واحتواني، وكنت ضئيلا أسبح في أبويته الرحيبة، ومثل قناة انفتحت على نيل كبير عذب، وظهرت شخصيته الفريدة العالمة ببواطن الأمور، وكنت أستفيد.

مع بداية كل شهر كنت أمر عليه في البيت ونذهب معا إلى "البوستة" لنقبض المعاش الخاص بكل منا، ولم تعد تلك المقابلات كافية لكلينا، فبدأ يدعوني للشاي والكيك في منزله، وبدأت أتلمس عالمه الخاص، ومدنه وأطلاله وآثاره ومقتنياته الروحية النفيسة، ولم أرغب في أن أفشيه لأحد من أصحابي حتى أستأثر به لوحدي، أيضا لربما هو لا

يروقه هذا فصارت علاقتنا مقفلة على كلينا، وكل منا يبدو أنه سعيد بالآخر ومكتف، وكانت عينه الشمال بيضاء تماما، وغير صالحة، والعين الأخرىً تتسلح بزجاج طبي غليظ..

في البداية كان ينسى اسمي بغير قصد فأذكره به، وكنت لا أمتعض أو أتذمر، وذلك يرجع لصدقه المفرط في هذه اللحظة وتلك النظرة الودودة الطيبة التي يسكبها عليّ من عينه السليمة، والتي لا تحمل أي تجاهل مفتعل نحو شخصي، إنه نسى اسمي وفقط، أي أنه صادق حقا، وبلا أي أمراض نفسية مركبة يقصد افتعالها وتصديرها تجاهي.

..وبعد انصرافي كنت أراهن نفسي على أنه لن يتذكرني أو يتذكر اسمي في المرات القادمة، لكنه غافلني في الأيام التالية وبدأ يتذكر اسمي كاملا، وكان يعاملني بأبوة مغدقة، واحترام..

- حضرته الأستاذ جمال يا بابا..

- أنا فاكر، فاكرك..

- ولا يهمك يا أستاذ أنسي..

- متأخذنيش هو الاسم كان بيضيع مني.

- عادي، ولا يهمك.

كنت أنبسط وأبتهج بهجة اللقاء الأول كلما سلمت عليه أو قابلته وقعدت معه، وشعرت مبكرا إنني أمام شخص مغاير، وفي البداية كان العامل المساعد على سرعة كشط ملامحي وشطبها من ذاكرة الأستاذ العريضة، هو مكوثي أمامه في صورة مستمع فقط، كلما تقابلنا، كنت

أحترم حكمته فأصمت وأستمع لفيض من المعارف الجارفة المدهشة، منذ لحظات التعارف الأولى أدركت أن هذا الرجل في اشتهاء تام للتحدث مع أحد ما ليضرب عزلته في مقتل، كان محتاجا للتواصل، وتغلب عليه حالة تأمل وتساؤل متواصلة، حتى وهو يسير في الطريق العام، أو حينما يستريح بجوار ضريح الشيخ "لولو"، الكائن في بداية سفح "الحكروب"، قابلته بجوار الضريح مرتين، كان ببذلته الكاملة ويحمل في يده سلة خضار، مكدسا بداخلها أنواعا شتى من المأكولات، وزجاجة مياه غازية كبيرة الحجم تطل برقبتها وغطائها الملون، من حافة السلة الكبيرة، كان يستريح على ديوان الضريح قليلا حتى يحتشد ببعض القوة ليكمل مشوار الصعود، المرة الأولى تجاهلته متحرجا من اقتحامي لخلوته التي كان يصنعها لنفسه وسط زحام الجبل، وبرغم توافد المريدين إلى الضريح، الجالس بقربه رأيته سارحا في الملكوت البعيد، في المرة الثانية - وبعد رفض - أخذت منه حمله وطلعت معه الجبل، وكان هو بجواري ينهج وكل حين يدعك بيده مكان القلب، وضعت السلة أمام باب الشقة، وقبل أن أهم بنزول درجات السلم، كان قد قبض على معصمي بقوة، وكلمني حاسما وهو يتنفس بصعوبة "مش ممكن لازم تتفضل معايا"، وقد كان، بعد هذا الموقف جاء لقاءان أخيران متباعدان معه، ثم توالت اللقاءات العابرة التي فيما يبدو كانت تهيئ لجذور العلاقة لكي تمتد في العميق.

مشاويرنا إلى "البوستة" كان فيها قدر من التروي والتلاقي، في مثل هذا المشوار الشهري، يكون معتدل المزاج ورائق السريرة وبصحة جيدة، وبدأت تتهدم بيننا أسوار عالية من التحفظ والحذر، واندفعت

ناحيتي أحاديثه ومشاعره، كقطار سريع يحمل بين جنباته أجناسا من المعارف العديدة، كان يدهشني بذاكرته العتيدة، وبكيفية ترتيبها وتنظيمها، ويملك الحوادث بأيامها، والوقائع بتفاصيلها الصغيرة، كان يحب أن يذهب إلى البوستة سيرا على الأقدام، كان يقول مازحا إنه وقبل أن يمرض بداء القلب كان مشاء قديما، وفي طريقنا نفتح المواضيع وسيرة الأمور وندردش، وأحيانا يستشهد على صحة ما يقوله بالشعر، فيلقي على مسامعي قصائد طويلة من الشعر القديم، كنا نذهب إلى المقهى أولا لشرب القهوة حتى يخف الزحام من أمام شباك الصراف..

وبعد أن يكون قد تناول حدثا سياسيا أو اقتصاديا بالتحليل والفحص، كنت أقوم وأنا أحمل بين جوانحي توجها جديدا قد يغير بعضا من الثوابت التي كنت أظن - قبل قليل - إنها حقيقة مطلقة، وهذا حدث معي كثيرا عندما بدأت أزوره في بيته وأقعد معه بالساعات، أيضا كانت ابنته "بسمة" تعمل معي في خلفية المشهد، وتزيد من ارتباطي به، وإلى الآن متحيرا في تصنيفها بالنسبة لي، فهل هي الحبيبة القادمة، أم الحلم المؤجل وصعب المنال، أم الجسد الأنثوي الطاغي، كما أتمنى أن يكون؟!!

- إنت نقصاك حاجات كتير يا جمال يا ابني..

إنه لقادر وهو جالس بجواري، أن يهز أبنية راسخة في جوفي لا لشيء، إلا، لأنه لمح بروحه الشفافة، أن هناك شيئا غير متوافق في أعماقي الداخلية، لذلك أجده بحواره الذكي غير المباشر يلوّح لي تلويحا رقيقا بوجوب إعادة النظر فيما كنت أظنه تمام التمام، وأثناء جلوسي معه،

إن لم يقدر على أن يهدم الجزء العشوائي المعتم بداخلي، فهو على الأقل يلقي على هذا الجزء بصيصا من نور، ويتركني دائخا بالسؤال الجديد الذي يبحث عن إجابة، كان حكيما وماكرا، وواسع القلب، ويعاملني كابن لم يسافر بعد..

ولاحظت شجاعته، فإن وجد الأستاذ (أنسي) في الشخص الجالس بصحبته، كما وافرا من الصلف، عندها - وهنا فقط – يجاهر برأيه واضحا ويتخلى عن رقته، ليخط بمشرطه المعقم النظيف، علامات حادة نافذة، تحدد موقع الإخفاقات المزمنة التي تعمل في الأحشاء الخفية وتحد من لمعان الشخص المسكين الجالس بقربه، لذلك اتصلت به على الموبايل، وقلت له:

(حضرتك فاضي النهارده؟ أصلي متضايق شوية!!).

الأستاذ "أنسي" هذا الفاهم، له حزنه الخاص، له مجموعة من الهموم الكبيرة، مثل قلقه على ابنتيه، "بسمة" "وكرستين"، ابنه الكبير "جورج" الذي هاجر إلى أمريكا بعد أن كبّره وعلمّه، فها هو الولد يتركه بمفرده ويسافر، ما هذا السفر الذي توغل فينا يا رب؟!! ما تلك المغادرة التي تصيب عبادك وتحط بينهم المسافات الفاصلة؟!! شيء مريب!!، أيضا توجعه سمعته التي تلطخت، بعد أن أدار زملاؤه في العمل مؤامرة مضبوطة وأطاحوا به لا لشيء إلا لوقوفه كحجر عثرة لأجنحة الفساد المرفرفة في المصلحة التي كان يديرها، كذلك سياسة الأمور الجارية في الخارج الكبير تتعبه، وتؤرقه وتمنحه قلقا أكبر مما يحتمل، وقلبه المريض بدأ في خيانته في الفترة الأخيرة، له

حزن رهيف، وحلم كبير برد الاعتبار لنفسه، بعد أن أحالوه إلى المعاش بمهانة، وكنت بالنسبة له ولأسرته، الشباك الصغير، الذي منه يطلون إلى عالم "الحكروب" الغامض، كانوا يتقصون مني عن أمر الناس هنا وأمر الجبل..

ثم ما هذه الموهبة في الحكي وأنا جالس بقربه، يأتي من الشرق، ليذهب غربا، من السياسة إلى الأدب، إلى الفلسفة والتاريخ، إلى أوجاع الناس وأحلامها، وكله ممنطق وجميل، وبدون هرجلة أو نتوء، قماشة حديثة الزاهية الألوان، منسجمة وناعمة ومستوية، وكان قد بدأ يفهمني الأستاذ (أنسي) ويربت عليّ بروحه الوقورة وبكلامه العذب، وبمحبة دخل في تفاصيلي الشخصية، كان يفعل هذا معي بالراحة، وبغير إقحام، كان يريد أن يعالجني، وكنت أريد أن أحبه، وأن أبوس ابنته "بسمة" في حنكها إن تمكنت من ذلك، وكنت أجاهد حتى أجد لها خانة فارغة تسعها في داخلي، وكانت هي تعاملني بلطف غامض وصمت لا يمكن تفسيره على أي مستوى، كانت تكلمني بالقطارة، نقطة، نقطة، وبحرص، لكنها دائما متبسمة في وجهي، وفرحة بوجودي، وفاتحة دفئها ورقتها لي، وكنت في أوقات كثيرة أصاب بالجزع والقلق، خوفا من أن يكون هذا اللطف الصامت، هو نوع من العطف والشفقة، قد تكون مشفقة علي كواحد "حكروبي" مسكين خارج لتوه إلى المعاش وعاطل وصاحب عاهة صغيرة مستديمة، والسؤال: لو ثبت عكس ذلك – هل أنا صالح لعلاقة جديدة سواء لبسمة أو غيرها، كانت "هالة" قد هجرتني من زمان، هجرتني بعدما جرّفت المشاعر وجعلت القلب قطعة لحم باردة، غير مستعدة للنبض الحي مجددا، لكن في أعماقي

كنت مبسوطا من "بسمة"، شغوفا بها لحد الإثارة، ولها حضور أنسوي ناعم ومميز يغويني ويهدد تماسكي أمامها، فاتصلت به علي "الموبايل" وقلت له محتاج أقعد معاك شويه".

...(إزي حضرتك، إنت إيه ظروفك النهارده، أصل مخنوق شوية).

obeikan.com

(27)

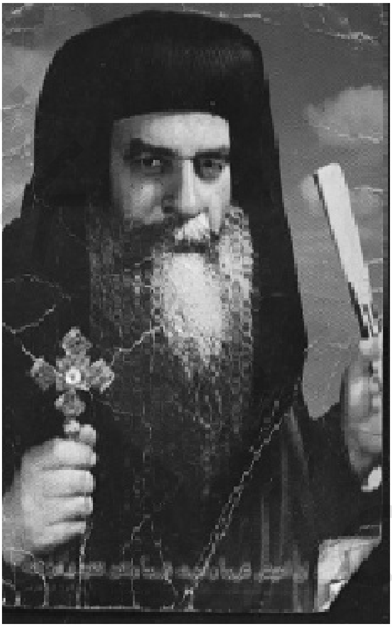

البابا كيرلس السادس

obeikandl.com

(28)

في السابق لم تسنح لي فرصة لأقول لكم إن تلك الصورة حيوية جدا، في بيتنا، يحين لي الآن أن أوضح ذلك، هذه الصورة الوديعة عاشت تاريخا من التبجيل والفخامة، أنه "البابا كيرلس"، أنه شفيع لأمي، هذا القديس المبجل، تحتمي به الست الوالدة، حين يعتريها قلق ما على مصير العائلة، أو حين تصدمها فكرة وجودية ملحة، كذلك هو يعالجها من الروماتزم، والمغص الكلوي والسعال الديكي، وضعف السمع والبصر، وينجيها أيضا من المصائب المداهمة وقت أن تحل، أمي تحب كل القديسين، وتضع صورهم على الحيطان كلما قدرت، لكنها تخص "البابا كيرلس" بخشوع مخصوص وتعطيه قداسة لا تحتمل، وحنين غير متاح لآخرين مثله، لكنها دائما تقول - حتى ترفع عن نفسها هذا الانحياز"، كلهم بركة يا أولاد، كلهم نعمة ورحمة لنا"، لكنها تحبه أكثر منا تقريبا..

أمي تحب "البابا كيرلس السادس" جدا، تضع أمامه الشمع المشتعل، وتطلق أمامه البخور، ثم تختلي به لتصلي معه، مرت سنون وهي تفعل هذا الفعل الكريم معه، تقف ورعة وتصلي أمامه وقتا طويلا، هو شفيعها، ومن بديلا عنه، يقدر أن يساعدها في الوصول إلى الرب العظيم من أقرب طريق؟! كانت تقول لمن يعترض، إنه قام بمعجزات

كثيرة، مؤثرة في مشوار حياتها، ومن يعرف مقدار البابا كيرلس؟!! والذي لا يعرفه فقد خسر الكثير من البركة والحماية والشفاعة.

وفي يوم من الأيام أصرت أمي وألحت على" صبحية" وجعلتها تحبه أيضا..

وفي يوم من الأيام تخاصمت أمي معه..

طلبت منه أن يأتي بالعريس لأختي "صبحية" فلم يأت ذلك الفرح كاملا، كلما كاد أن يتم، لا يتم، يخبو الأمل، ثم يضيء من جديد، ليخبو ثانية، فاغتاظت، وحين داهمتها فكرة العنوسة التي قد تصيب ابنتها الصغرى، وحين جلست لتفكر في كيف تكون أما لبنت عانس، حدث تغيير المسار والتحول الثوري من الست الوالدة..

أمي أصلها تحب أن تنجز، وهي تتمنى أن ترانا مرتاحين فوق الأرض حتى يتاح لها ترك هذه الأرض والطلوع لفوق، أمي قرفت، لكنها تحبنا مثل أم رؤوم ليس لمثلها وجود..

..لذلك هي لا تتوانى عن ترك القديسين، حين لا يقدمون لنا خدماتهم، لا ترحم أحدا منهم لو تلكؤا في فعل الخير المنتظر معنا..

تنازلت أمي عن "البابا كيرلس السادس" بالتدريج، وحاولت إخفاء هذا التحول عنا، وبادرت بالتمهيد للأمر بخبث من صارت في السبعين، وكانت تضطر حين تجدني ساهرا حتى الفجر، لأن تقف أمامه لتهمهم، وتضطر لأن تطيل الوقوف قدامه، وتمده بالبخور والضراعة والورع المعتاد، وقبل أن تعلن مباشرة أنها حولت نشاطها الإيماني إلى قديس آخر عظيم، هو"الأنبا موسى الأسود"، قبل هذا بقليل، مهدت لنا لنقبل

الأمر وقالت إن "الأنبا موسى الأسود" جاءها في المنام وطلب صلواتها وتضرعاتها وطلباتها، فقالت صبحية "كلهم بركة يامه، كلهم رحمة لينا" وقلت في سري وماذا أفعل أنا؟! أمكث هاهنا أم أذهب لهناك، أم أستمر في حيادي المألوف، وحتى ترضيني ولا تشعرني بالوحدة، وحتى تنتشلني من ورطتى المقدسة، صارت تمنح بخورها العابر، وصلاتها القصيرة لسيدنا "البابا"، وتغدق بوقتها وشموعها وبخورها علي أيقونة "الأنبا موسى الأسود"..

من جانب "صبحية" وبرغم تمردها، لم تتأخر وجمعت أشياءها وملحقاتها الإيمانية، وذهبت مثل أمها، للجانب الآخر من الحائط، عند صورة "الأنبا موسى الأسود" توقفت، وراء أمها ثبتت وأخرجت خشوعا، أكثر في المقدار من أزمتها الشخصية، ورنمت وقامت بصلاتها، كانت "صبحية" وبرغم تعليمها العالي، تثق في خيارات أمي السماوية ولا تنبس ببنت شفة، ولا تناقش..

- كير يا ليسون، كير يا ليسون، يا رب ارحم..

- كير يا ليسون، ، اسمعنا وارحمنا يا اللّه..

وفي يوم..

بالضبط في ليلة عيد "الغطاس" في 18 يناير سنة 2000، وقفت أمي تصلي متضرعة أمام اكتشافها المقدس الجديد، وأطالت في الصلاة، كانت صائمة صيامها الانقطاعي القاسي فداخت وسقطت وشجت رأسها ثم فقدت وعيها، كان الجو باردا، وليل يناير يملأ الدنيا

رعدا وبرقا ومطرا، كنت بالصدفة قادما لأحتمي بالبيت من سخط هذا المناخ المضطرب، ركنت السيارة "البيجو" عند الكوبري الضيق، وقصدت البيت، رأيتها واقفة تصلي، وقعت منكفئة على وجهها، في المستشفى العام، خيطوا لها الجرح بخمس غرز كاملة، في البيت وبعد أن شفي الجرح، أعلنت عودتها إلى "البابا كيرلس" ثانية، بعدما أتاها في المنام وأخبرها أنه رماها بهذا العقاب الخفيف حتى ترجع له، صارت تقول كل حين، "ومين في قداسة وبركة البابا كيرلس؟!!".

وبذلت محاولات مضنية لتنقل ابنتها "صبحية" مرة ثانية إلى قداسة "البابا كيرلس"، وإلى الآن لم تنجح..

وإلى الآن أرنو حائرا للاثنتين..

obeikan.com

(29)

– النقاش كان حيموت إمبارح، لولا ستر اللّه،

–..جرجس...!! ليه خير؟

– ..حسن لم جماعة صيع وطحنوه..

– عرفت من فين.

– أنا كنت في الغرزة إمبارح بالليل، وشفت اللي حصل.

شربنا الشاي بعجلة، لبست هدومي وتممت على أشيائي الصغيرة، المنديل القماشي المطرز، المطواة، مفتاح بيت نادية، ثم علقت في حزام البنطلون هاتفي النقال الذي طالما رن البارحة ولم أرد على من يهاتفني لمعرفتي مقدما أنه "جرجس"، صار يصطادني في الفترة الأخيرة من خلال "الموبايل"، وكلما رددت على الهاتف جلدني صوته الغاضب بالتأنيب المر، منذ مدة جعلني أمضي على "إيصال أمانة"، وبرغم هذا لم يتركني في حالي وظل يطاردني بالرسائل القصيرة عبر الموبايل، بعد أن جعلني أوقع على "إيصال الأمانة" تحرج مني لبعض الوقت ثم عاود مطاردتي، وكلما ذهبت إلى البنك أنا وزملاء العمل القدامى قالوا لنا الشهر القادم سيتم صرف تلك الشيكات، ويمر الشهر تلو الشهر ولا يتم الصرف.

جاء لأمي أول أمس ثلاث مرات ليسأل عني، في المرة الأخيرة، هدد أمي بأنه قد يضطر لأن يقدم "وصل الأمانة" للنيابة، طعن الغالية، بهم مدبب، ومضى، وقضت أمي ليلها تتدبر الأمر معي، وتفاضل بين زواج "صبحية" وبين تخليصي من بين يدي صديقي "النقاش"، الذي سيسلمني بدوره إلى يد العسكر، ولما ترهقها الحيرة، تعود معاتبة إليّ "جرجس" وتطلق نحوي سؤالها الجارح، وهل "جرجس" من الممكن أن يفعل هذا، ويقدمك للقصاص، ليد الجند ليعبثوا بك؟

وحين نويت أن أرحمه من الرسائل الكثيرة التي كان يرسلها لي في الموبايل، وفتحت له السكة، وجدته يهينني بقسوة وجرأة، ولم يحتملني "جرجس"..

-- حقه يامه، حقه، وهو مزنوق.

-- بس مش لغاية كده يا ضناي!

في "الموبايل" شتمني أكثر من مرة، ثم قفل السكة في وجهي بغير تحية، أو سلام، فقط قال التليفون الصغير في أذني، طيط، طيط. طيط.

– ودي جزاتي علشان سلفتك يا جمال، أنت إيه ما بتحسش، مش كده يا أخي،

– صمت وإحراج يمزقان شهامتي..

– خلي عندك دم يا أخي، أنا مزنوق يا عم جمال، طيط، طيط، طيط طيط.

وقفل السكة في وجهي.

- متخافيش يامه، بكرة حابيع الموبايل..

- وده حيجيب كام يعني؟!

وفعلا عرض فيه ثمن بخس لا يغني ولا ينفع فلم أرض ببيعه وأستمر الموبايل مناخا مناسبا لتنامي وتكاثر رسائل جرجس..

ولما عرضت عليّ إيراد الدكان ومعاش أبي رفضت بشدة وقلت لها سوف اتصرف وخرجت..

وحين أخبرت أمي، بما قاله "عبد الوهاب" ضربت مفجوعة على صدرها الضامر، وقبل أن تحاصرني بأسئلتها، أسرعت وكلمت "مقبل" مستأذنا منه في الانصراف وأنا مازلت أسرح شعري بأصابع يدي اليسرى، فأحسست أنه يقابل مشروع انصرافي القادم بترحاب، وأنا موشك على الخروج وراء عبد الوهاب الذي سبقني للحارة، استدرت فجأة وأعدت الاستئذان مرة أخرى من "مقبل" كنوع من إبداء التقدير، والاحترام لشخصه، كانت في يده زجاجة "ساقع" فأنزلها سريعا على الصينية التي بالكاد تفصل ما بينه وبين شقيقتي وهما يجلسان سويا على الكنبة، وقال لي ببهجة، "اتفضل اتفضل"، ثم استطرد مجاملا، "في حاجة؟ طب آجي معاك يا استاذ جمال؟ وكنت أيضا أنوي التأكد من ظنوني، فوجدت شكي في محله، كان الاثنان يواجهان تغيبي ببشاشة، وأنزلت "صبحية" من ملامحها بعض ارتباك، وغطت وجهها الأبيض تلك الحمرة التي تسبق الخوض في الأسرار الدفينة للشخص، هذه الزيجة بإذن الله سوف تتم، الولد يريدها بقوة، وهي أحبته، هي

اقتنعت تماما به كرجل يليق بها، متعلم وسيم، وحلو اللسان، ومستور الحال، وجاهز، أحبته العفريتة ودخل دماغها، على خيرة اللّه، وما العيب في هذا، ها أنا سوف أتخلى عن رخامتي اضطراريا، ولن أربط لهما في الصالة كخفير حكومي يقظ، مثل كل مرة جاء فيها "مقبل" لزيارة خطيبته، وهما كانا يستعدان لاستثمار تغيبي عنهما أفضل استثمار، الحب حلو، وحين تتاح له الفرصة للظهور، يفضح صاحبه، لن أسامح لآخر الزمان، من قطع منى نصفي الحميم، ولن أسامح ماكينة التشفية أيضا..

في الطريق ظهرت نذالتي وتراخت عزيمتي في الذهاب إلى "جرجس "خوفا من أن يطلب منى سداد دينه الذي في رقبتي، كنا في بدء صعودنا إ"لى فوق، و"السماك" بخفته وجسمه الصغير يتدبر أقرب الطرق المختصرة للوصول إلى بيت "جرجس" الساكن تحت قمة جبل الحكروب" بقليل، وكنت أتدبر علة تثنيني عن الذهاب إلى صاحبنا المصاب إصابات بليغة في كرامته وجسده معا، توقفت بغتة، وأمسكت برأسي بعصبية، وقلت عاليا، آآآه، التفت لي "عبد الوهاب"، منشغلا ومستفسرا، وكنت أميل برأسي إلى تحت، ورأيته وهو يرفع طرف جلبابه بيده، ويهم ناحيتي، منهيا بخطواته القصيرة المسرعة، المسافة التي كان يسبقني بها إلى فوق..

فكرت، ثم فكرت، ولما فكرت وصلت إلى مبرر قوي قد يعفيني من الاستمرار في المضي لنهاية هذا المشوار، وظهرت نذالتي بقدر ساطع، أمام نفسي، وحاولت مجتهدا إخفاءها بشتى السبل، عن صديقي القديم "السماك"..

توقفت وملت بجزعي قليلا وأمسكت برأسي، وقلت: آه..

تعللت بصداع مفاجئ أمسك بدماغي، حقيقة كنت لا أريد أن أقابل "جرجس" لسببين، الأول، لأجل الـ1000 جنيه وما فعله معي منذ أيام، كان قد إهانني، وأوجعني بتصرفه غير المتوقع معي، والسبب الثاني، حتى لا أشاهده وهو في هذه الحالة التي حكى عنها "عبد الوهاب"، وهو جالس معي في البيت، كان قد أخبرني أن "حسن" بعد أن شج رأسه بكوب الشاي، أكال له هو ومن معه اللكمات المدربة حتى أسقطوه أرضا مفارقا الوعي سائح الدم، كان الولد يثأر لشرفه على الملأ، قال "عبد الوهاب" إنه شاهد "حسن" بعينه، وهو يستل خنجرا من سيالة جلبابه الأبيض، وكاد يقضي عليه، لولا أن عبد الوهاب لحقه في آخر لحظة وأمسك بيده، ثم ارتمت عليه الأم متوسلة نائحة، مما أعاقه من توصيل طعنة النهاية إلى "النقاش"، بعدها رنا حسن لأمه بحقد، ثم صاح صيحة عظيمة، ونتر أمه بعيدا عنه ثم انصرف، "الواد ماكنش عارف يعمل إيه، أنا في لحظة كنت خايف يخلص على الاتنين، تصدق!! والمصحف الشريف زي ما بقولك كده يا جمال".

- أنا خايف قوي على جرجس يا جمال.

- جرجس لازم يسيب الجبل يا "سماك"!!

- حسن مش حيسيبه، الواد مبقيش حسن بتاع زمان!!

تعاطف معي، عبد الوهاب، وأجل حماسه في الذهاب إلى أعالي الجبل، وسندني واتجه بي إلى "غرزة الضمراني" القريبة منا في هذه الأثناء، وكان يقول لي بحسم "حاروقك دلوقتي"، قالها وهو يفرد عنقه الطويل

عن آخره، وبيديه الصغيرتين، أطبق على رأسي برفق، وأمالها لجهة اليسار مرة، ولجهة اليمين مرة، وغرس نظراته الواثقة في عيني، وبدأ يتفحصني بعينيه الضيقتين المتعبتين، وصار كخبير في الجماجم المتعبة، وأنا أبعد يده بعيدا لأنصرف، قال بثبات وتلقائية، "بسيطة، لا مفيش حاجة تقلق، تعال"، وشدني من يدي وأعادني للثبات ثانية.

– ضربة شمس خفيفة يا بطل.

--...لا، لا أنا حارجع البيت، مش قادر يا عبده.

..وأدخل يده في جيب "الصدار" الداخلي وأخرج شريط برشام لا أعرف نوعه، وقال لي افتح يدك، فمنحته كفي السليمة مطيعا وفردتها أسفل الشريط، المليء لنصفه بالدوائر البيضاء البارزة، وبيد مدربة، جعل "برشامة" دقيقة تقفز وتستقر في باطن يدي، وأمرني ببلعها، ورأيته يفتح حنكه عن آخره. ويضغط برشامة أخرى فتخرج من جوار زميلاتها وتستقر في حلقه ويسرع بابتلاعها، وحتى أسبك دور من أتاه الصداع المؤرق ويبحث عن حل لتشفي دماغه سريعا، اضطررت أن أوافقه، وأبلع "الحبة البيضاء" على الناشف، وبغير ماء يسهل مرورها في حلقي، أخبرني بيقين، أن كوبا من الشاي سوف يجعل "البرشامة" تشتغل، لتأخذني إلى راحة لم أحسسها من قبل.

-- ترى، وماذا يفعل "مقبل" بخلوته التي منحتها له اضطراريا هذا المساء؟ في كل زيارة له إلى بيتنا، كنت ألبد لهما في الكنبة المواجهة لمجلسهما، وأتشاغل بأي شيء لأغطي على حالة مراقبتي لهما، فمثلا، أقرأ الجريدة للمرة الثانية أو الثالثة، عين تقرأ، وأخرى تتسل من تحت

لتحت وتتجه ناحيتهما، أو بأذن واحدة أتنطع بلا رغبة على أخبار العالم من خلال ريموت "الدش" وبالأذن الأخرى أتجسس على ما كان يدور بين مقبل وخطيبته، وبين فترة وأخرى أقطع حديثهما الهامس بجملة تؤكد أو تنفي كلام أحدهما..

وأحيانا ألغي كل المشاوير البيتية الملحة أثناء وجود "مقبل" عندنا، مثل ذهابي إلى دورة المياه لإنهاء وجع طارئ يكاد يفتك بمثانتي، وكنت أشعر "بصبحية" والضيق يفرد مساحاته فوق ملامحها، احتجاجا على اقتحامي لخلوتهما وعدم وثوقي فيها لهذه الدرجة، وكان "مقبل" دمثا وبه من التعقل والحكمة ما كان يجعله يصد غزواتي القليلة إليهما، ببسمة واسعة مرحبة بقدومي إلى سواحلهما المعزولة، وأخيرا يعقب على كلمتي الواحدة، أو جملتي القصيرة، باهتمام واحترام كبيرين، وأحيانا يتواصل معي في الحوار ويترك أختي لفترة قد تطول، لتتحول "صبحية" شيئا فشيئا إلى كتلة وارمة، يملأها الغيظ الأنثوي الذي يشق طريقا واضحة نحو عنف قريب معه.

..وكيف تتقبل "صبحية" عطايا حبيبها؟ وهل تتعاون معه مثلما كانت "هالة" في القديم، تتعاون معي، وتمدني برفض وتمنع وحياء، يكون، أكثر تحفيزا لقدراتي، من موافقتها الصريحة وغير المشروطة، مما يجبرني للدخول إلى فردوسها وملامسة الحياة النابضة في حناياها باشتياق لا ينصرف منى حتى بعد أن ينفك عناقنا وانصهارنا ببعضنا للحظات قليلة، منه لله الانقسام والتفتت وعدم الاكتمال، أيضا لازم أمي من حين لآخر تترك البيت لهما لدقائق لتلبي طلبات الزبائن، حين يأتون إلى دكانها ليشتروا شيئا، حتما يقولون لها من الخارج

وبصوت مرتفع "يا أم جمال، يا أم جمال"، فتضطر لأن تترك حراسة الضيف الوله، وتخرج لتلبي نداء الرزق القادم من عند اللّه، حتى يعينها في الصرف على أحوال بيتنا، ويساعدها كذلك في ترتيب لوازم الفرح الذي سيكمل مهمتها فوق الأرض، ربما بعد زواج أختي الصغرى "صبحية" تتركنا أمي وتسافر إلى الأمجاد السماوية، هي فيما أعتقد، رتبت نفسها على هذا، وضبطت ميعاد الفرح على ميعاد الموت، ولضمت الأيام والحوادث معا وحطت الجميع في صرة واحدة لحين ميعاد نثرهما في الفضاء البعيد، احتمال!! هي تقريبا زهقت من الدنيا، احتمال!! الآن يجب عليّ ترك عبد الوهاب، و"الغرزة" ومشوارنا إلى "جرجس" وأعود فورا إلى البيت، فماذا يكون الوضع لو امتدت يد الذكر العاشق الجالس الآن في صالة بيتنا بمفرده، وعبثت بأسرارنا المقدسة؟!

- ..حتنبسط خالص دلوقتي، (كخبير في الأوعية الدموية وجراحة المخ، هكذا قالها "السماك").

-...!!(ورنوت إليه مفكرا، كيف أخلص نفسي منه، واكتأبت).

- يا اخوانا إحنا معانا الحل لكل حاجة، الدنيا فري خالص.

- ...؟؟

- بس إنتو اللي مش واخدين لبالكم، كبر الجمجمة يا جيمي ومتفكرش، ملعون أبو الدنيا، استني بس، استني، ونط بجسمه القصير إلى فوق ولكم الهواء، وانحسر الجلباب عن نصفه السفلي وبان وركيه المعروقتين النحيفتين المشعرتين، طار لفوق مرتين ولما استقر أخيرا

فوق الأرض أدخل يده في سيالته وعبث بداخلها باحثا للحظات، ثم أخرج كتلة من الأوراق المطبقة، والكروت و"الموبايل" الشخصي، وحافظته السوداء الضخمة، وفتش بهمة.

- ..آه، هأ هأ هأ، الحل لكل حاجة!! ههه، كهكهكه، (وأردت أن أشاركه بهجته العفوية التي تنساب من أعماقه بغير كلفة).

- ..آه والله، وعاملين فيها مسكفين!! الدنيا سهلة ولونة ومية مية، استنى بس استنى بس، خد، خد بلبع دي كمان، (نعم، كان يؤمن بما يقول، كان سعيدا).

- يخرب بيت ناسك يا عبد الوهاب، كهكهكهكه، (وبدأت أساريري تنفك قليلا من جراء تفكهه وروحه المرحة، ومسحة من الكآبة مازالت تعلق بقلبي المنقبض وأقاومها، بات محتما عليّ أن أشاركه عبثيته وبهجته)..

- ..أيــوه ومـش عــاوزة كلكعة، كبـر الـدمـاغ تـرتـاح، ابلـع يـا عـم، متخافش،(وبلعت برشامة أخرى حمراء اللون، مثلثة الشكل، ولم أخف).

كانت "أم حسن" شرسة، وهي تؤدي عملها من خلف "النصبة، تميل على الأكواب بغضب، وتملأها بالمشروبات الساخنة المختلفة الألوان وتتفوه بكلمات حانقة لا أسمعها جيدا لارتفاع وشيش "بابور الجاز" المشتعل بقربها على "النصبة"، والأبخرة تتصاعد بكثافة من البراد الضخم الممسكة به، وكلما عبأت كوبا زادت الأبخرة من حولها وتهادت نحو وجهها الأسمر، تبدو لي من بعيد مثل قطعة كبيرة من صخور الجبل

البنية المتطرفة، تفاصيل الوجه القمحي، انطمست أسفل سطح قاسٍ من الضيق والملل والحيرة، وكانت عنيفة وهي هناك، وصارت بدينةً، ولها كرش عالٍ لم أره يبرز منها من قبل، وانصرفت الوداعة السابقة إلى حالها، وتكسر نظام الجسد السابق، وحلت مكانه فوضى من البروزات الدهنية المقززة، ومتى أصبحت هكذا، تلك المرأة؟ كم من أشياء أخرى منسقة، تبددت ولم ألحظ غيابها، وأغط في غفلة، قديما كانت لا تصل للنحافة، وأيضا لا تُعد بدينة، كانت دائما في حالة اتزان جسمي يغادر النحافة، ولا يمسس البدانة بشيء، ومن من الصحاب لا يعرف جسد "أم حسن"، في الأيام الخوالي كنا نلوك كل موضع في جسمها بأصابعنا ونستمتع بصلابة أعضائه، انهار اتساقها الجسدي، إنها عوامل الزمن الذي مضى، وتفشت في أنحائها بدانة ملحوظة، أصبح لها أكتاف ضخمة، وأوركت وأردفت، يبدو أن القلق على حبها وحبيبها فتك بنظام جسمها الكبير، كانت "أم حسن" في الزمن الغابر إحدى ثوابتنا حتى نستمر مقيمين ولا نغادر، كنا خطاة صغار، ونبحث عن حلول لأسئلة كثيرة، ومنها أسئلة الرغبة حين تحتشد في ثنايا الدم ولا تجد منفذا للخروج، وكانت "أم حسن" في تلك الفترة البعيدة بليغة في هذا التخصص، وكثيرا ما عاونتنا حتى نجد الحل المفقود لعفريت الرغبة الحبيس في قمقم أجسادنا الشابة، كانت تقدم لنا علاجا شافيا لأوجاعنا الغريزية عندما تسخن وتفور، قديما كانت تقدم لنا منحا ضرورية، وعلاجات كافية تبعا لنشاطها السري الذي كانت تقوم به في غفلة عن زوجها "الضمراني" قبل أن يقتل ويرمى في ترعة "كيما"، حقيقة كانت تصفّينا وتنقينا من هموم اللحم حتى نتفرغ للبحث عن

إجابات لهموم الروح، ومازلنا خطاة كبار، ونعتني بتوصيل ضرباتنا المتقنة إلى بعضنا البعض، ولا نرحم، ولم نتعلم بعد ولم نصل إلي إجابة شافية لأي شيء، كلنا يدهس بعضه، ولا يؤجل، كلنا مجرمون صغار يا جماعة، كلنا، كلنا أميون جهلة، وقليل القليل منا الذي بدأ باستحياء يتهجى اسمه، واسم النهار الجديد القادم من بعيد، قلة، قلة قليلة منا صارت تفعل ذلك، قلة، قلة قليلة، وها هو الزمن اللص صار يسرقنا أيامنا ببطء وثبات ومحبة..

وها عبد الوهاب يتلقى ضربات الزمن فوق رأسه الصغير، ياه، ياه يا عبد الوهاب ما كل هذا الشيب الذي تحمله فوقك يا رجل، ومتى ومن أين جاءك!!، والجبهة تحمل من الخطوط المتعرجة ما يدل أننا في حقبة الشباب الأخيرة، أو على وشك أن نغادرها، نحن نًصب علينا يا جماعة وتبدد الجزء الأكبر والهام من حصتنا بلا طائل، انصرف الوقت من حقائبنا بأسلوب عبثي وغير مبرر، ولم نستطع أن نستغل تلك الحقبة المنقضية في قتل حقيقي، أو صلاح حقيقي، أو صلاة حقيقية، لم نستطع أن نكتفي ذاتيا بالغضب والفرح والألم والحزن والحب والعنف والصفح والشفاء الكامل، ومازلنا صغار يا جماعة، مجرد خطاة صغار لا يستطيعون أن يتهجوا أبجدية القادم من خلف جدار الأيام الآتية، خسارة، ويا ألف خسارة، ياه، لي كثير من الوقت لم أدقق في تفاصيلي الخاصة، وحين أنظر في المرآة لا أنتبه، من المؤكد أن شكلي تغير مثل عبد الوهاب والست "أم حسن"، وإن كنت لم أنتبه لانصرام الأيام وانقذافها إلى جبانة الماضي، فحتما الزمن لم يفعل ذلك وظل حريصا على التربص بنا ومعاملتنا بمنتهى العدل،

obeikan.com

ذلك العدل الذي يخصه، وراح ينفذ أحكامه القاطعة على كل ما نملكه من لحم، وحدها المشاعر ستستمر خبيئة سامية، وقادرة على الإفلات من هذا العاتي الجبار، بدليل أنني مازلت أملك مشاعر طيبة وسيئة، لأشياء كثيرة، ولم تتبدل ولم يتم تحريفها برغم انقضاء كل هذه السنوات الكثيرة، تلك أشياء لا تخضع لرقابة الزمن، وتتحرك وتتغير وفق منظومة أخرى، ليس لدقات الساعات أي سلطان عليها، هي تتنامى بمفردها، و تتكاثر أو تقل تبعا لمجريات داخلية وخارجية محددة، نعم، تلك أشياء لا يكون لمنطق الوقت عامل أساسي في تكاثرها أو اضمحلالها، وحدها المشاعر، وحدها..

...ومسكين الجسد، سيظل دائما طريدة طيبة مستسلمة، للسنين القادمة والماضية أيضا، الجسم يعتبر هو القنص الحلال لكل تلك المداهمات العرضية أو المرتبة، وكما قلت سابقا اللحم خلق من أجل أن يتم الاعتناء به من قبل مجموعة من المفتريين الأشداء الظالمين، أنه قاعدة نيشان للطعن والدهس والحرق والغرق والمرض العضال، وإن نجا من كل تلك الكوارث الحتمية، يأتيه الزمن برفق ويقلل من إمكانية نجاته المقبلة، ويجرده بتُؤدة من صلاحه وسلامته، إلى أن يدخله إلى النهاية برفق، وكأنه الراعي الصالح الذي يسعى وراء خرافه حتى يقودها بمحبة مفرطة إلى الذبح النهائي.

أم حسن منكبة على العمل هناك، قصدت أن تكون، أول من أنظر إليه وأنا أدخل من الباب الخشبي الضيق، وجلسنا على "المصطبة" المفروشة بسجادة مهترئة، وطلب منها "السماك" كوبين من الشاي، وهو يكلمها اهتم بأن يكون صوته ناعما أكثر من اللازم وبه نوع من

الترجي وطلب العفو، وكأنه اكتشف مثلي احتياجها للانفجار، فجنح للتلميس عليها، واستئناسها وتعطيل نمو واكتمال هذا الشر العفي البارز من قسماتها، برفق طلب لنا كوبين من الشاي، كان يتمسح بها حتى لا تفرقع في وجهه وتؤذيه بحريقها الداخلي الصامت، قبل أن تأتي إلينا بتثاقل وعدم مبالاة بصينية الشاي، وتلقي بها جانبنا، مال عليّ هامسا، وطلب مني أن أدفع ثمن كوبين الشاي، ولما نظرت له مستغربا قال إنه مفلس ولا يملك حق علبة سجائر، أو تلقيمة من "البانجو"، وأخرج شريط "البرشام" ثانية من "صداره" وقال وهو يشير إلى الشريط، الذي بدأ ينحاز قليلا لناحية التلاشي بعد أن قفزت منه حبتان أخريان إلى فم "السماك".

-أمال باستعمل المحروق ده ليه دلوقتي.. (وضحك).

- ليه يعني؟ (وكنت في أول درجات الضحك المنطلق).

- عشان رخيص بعيد عنك، وبرضه ميجيش حاجة في اللي بالي بالك،(وغمز لي بعينه اليمنى حتى أفهم إنه يقصد البانجو والحشيش والماريجوانا، ففهمت، وأكملت ضحكي بأداء مبالغ فيه).

-- للدرجة دي يا عبد الوهاب؟ ...(وغمزت له باليمنى أيضا كنوع عن عدم تصديقي لما يقول، فهل يعقل أن عبد الوهاب المعلم الكبير وابن المعلم الكبير، أوشك هكذا على الشروع في التسول!، هل هذا يعقل؟ وهو الذي كان يتكفل بنصف مصاريف حفلاتنا السرية، بل في أوقات كثيرة كان يقيم لنا تلك الاجتماعات، مجانا وبدون طلب إعانة أو معاونة من أحد منا، وكان أيضا يمد يد المساعدة لمن تفتري عليه الأحوال وتذله بالفلس، أنا حاليا كنت أرتب في داخلي، أن أقترض من

obeikan.com

"السماك" مبلغ ألف جنيه، تبدد الأمل..

-- وأكتر يا جمال يا خويا، وأكتر، أصلك مش عارف القصة، (وانشرخ صوته بنبرة حزينة، لأول مرة أسمعها منه، ومال ناحية الأرض، اتكأ بكوعيه على وركيه ومال برأسه إلى تحت أكثر من اللازم، وكأنه يبحث عن شيء دقيق سقط منه على التراب، وبين المساحة المباعدة ما بين قدميه، كان جلبابه أنيقا ونظيفا، ومكويا، لكنني لاحظت أن حذاءه متسخا، وبه شق طولي يفصل الجلد عن النعل، وبدأت أصدقه، وأنا أقهقه قليلا ثم أصمت ...).

-- قصة إيه؟ (قلتها ضاحكا).

-- البحيرة مقفولة، واقفة باقلها ستة شهور، مفيش صيد، وأنت عارف فلوسنا كانت رايحة فين، يعني مطلعتش من الدنيا إلا بالبيت الملك أبو دورين، اللي اشتراه أبويا الله يرحمه ويسامحه. (وعاد بالتدريج إلى فوق، وقابلني بوجه تجاوز الهم سريعا وابتسم مخففا من وقع كلامه).

-- بحيرة ناصر؟ (هنا تعطل ضحكي الأبله، واستطردت، لأتأكد من صحة ما سمعته، ضاع حلمي في الخلاص من دَين جرجس الذي يطاردني في كل مكان من أجل تسديده، عبد الوهاب أفلس يا جماعة، و"جرجس النقاش" منذ شهور عشر عليّ، وأنا في شارع "الحدادين" وقدم لي الورقة ثم ندم، ثم عاد يطاردني.. يبدو أنه كان يتربص بي.

- برضه كده يا نقاش؟!

كان مجهز الإيصال في جيبه ومؤرخه بتاريخ قديم، حتى تسهل

محاكمتي لو قدمه للعسكر. النذل.. أخرج من جيبه الشريط الورقي بحرص، وهو يقول لي، "معلش يا جمال، متزعلش مني، محدش ضامن الدنيا من حيا أو موت، أمضي هنا، حاجة روتين يعني". وأشار إلى الموقع الذي ينبغي أن أكتب اسمي فوقه، تحرج قليلا ثم مضى حريصا على اسمي الذي وضعته فوق الورقة الصغيرة.

(أوعى تكون زعلان مني، إحنا برضه أصحاب وحبايب، بس، كده يعني، "وانصرفت مفجوعا في صديقي القديم"، ماشي يا عم، ماشي، سلام يا، تصبح على خير، عادي، عادي!!).

-- أيوه بحيرة ناصر، أُمال يعني بحيرة قارون!! أصلهم أجروها والصيادين عاملين إضراب...(قال الجملة الأخيرة بزهو).

- ولن أذهب إلى "مرتضى"، لن أطلب منه المبلغ مهما حصل، هو حتما لن يتأخر، أعرف ذلك، لكن كسر النفس صعب، وكلما ذهبت إلى البنك لصرف المكافأة، قال لي الموظفون هناك، إنه لا يوجد رصيد، وعليّ الانتظار لبعض الأيام، وأيام تجر في ذيلها شهور، وها تمر سنة كاملة منذ غادرت المصنع، ولم يتم صرف المكافأة بعد.. براحتهم..

-- بحيرة ناصر اتأجرت؟!

- هي قصة يا جيمي ولا إيه؟ أيوه أتقندلت يا عم الحج!! وظل يبحلق فيّ بضيق لبعض الوقت، وكررتها في دماغي مرات وأنا مازلت متحرجا من استنفاره مني واتهامه لي بالغباء، واستمر ينظر لي مستغربا من بلهي.

--، طب ليه؟ ثم تركني وذهب بوجهه إلى هناك، وتعلقت بعينيه اللتين

obeikan.com

خرجتا من الباب ولم تعدا بعد، ثم جاء داخلا عليّ بحماس جديد وهو معبأ بنشوة من جاء من سفر طويل ويعرف أن الجميع ينتظر منه هذه الأوبة الغانمة، ولم يلتفت لي، أو لسؤالي، بل ذهب مباشرة لكوب الشاي، وعانقه بكفيه معا ورفعه بتأنٍ إلى فمه، وشفط منه شفطة واحدة طويلة، أنهت على نصف ما يحتويه الكوب من الشاي، ولم يجب عن سؤالي، وكأنه لم يسمعه واتجه بنظرات لامعة إلى منطقة جديدة في حكايته.

-- لأ وإيه، عاوزينا نشتغل، ميص ميص، قال إيه نشتغل باليومية في الشركة الجديدة اللي أجرت البحيرة، ومصمص شفتيه بتعجب.

-- واسمها إيه الشركة دي؟ قلت ببعض الخوف، وأخرجت سيجارتين:

-- مش عارف، أصل اسمها تقيل قوي كده، بس بيقولك إن صحاب الشركة دي أجانب!! وأحس بحرج لأنه لم يعرف بعد اسم من أسرع وداهم بالاعتداء عليه وعلى بقية الصيادين "ببحيرة ناصر" وانكمش ثانية، وعادت عنقه لارتخائها، ودخلت بلين فيما بين أكتافه، وترك مرحه الذي كان مجلجا منذ قليل، ورجعت جميع تفاصيله لحجمها الطبيعي، وأسقطت عيناه فيما بين قدميه نظرة كسيرة حائرة، وبعد فترة تكلم وهو يحرك تراب الأرض بقدمه، وكأنه أراد أن يمحو الانكسار الحارق الذي سقط منه على الأرض سهوا منذ لحظات قليلة.

-- والنبي يا جمال يرضيك أنت إن ابن المرحوم المعلم "تقي" على سن ورمح، يشتغل أجير بعشرة ولا عشرين جنيه في اليوم؟!

ورجعت عنقه للاستطالة من جديد، ونفش جسمه وهو يكلمني، وخب جلبابه هواء ساخنا ناحيتي، وبعضا من رائحة عرقه.

-- بحيرة ناصر خلاص اتأجرت، طيب ليه؟!

وجريت وراءه بنفس السؤال السابق الذي أهمله وهو في حمية إحساسه بنفسه.

-- قلت واللّه في سماه، ورحمة أبويا الغالي في نومته، ما ارمي شبكة في البحيرة تاني إلا إذا.

-- اتأجرت اتأجرت؟!!

-- اللّه بقى!! بقولك أيوه.. اللّه!! هو البرشام اشتغل عليّ أنا ولا إيه!!

-- وإنتو سكتوا!

-- ..ده حصل فيها ضرب نار يا عم الكومندان.

-- ..طيب وبعدين؟ وبعدين؟!!

..بعد منتصف كوب الشاي مباشرة، شعرت بخدر خفيف، يدخلني، ونعاس رائق يتخلل أعصابي ويريحني من حالة اليقظة التي كانت تسيطر عليّ، كنت محتاجا فعلا لأن أتغيب لفترة عن الحضور، سوف أعتدي بعنف على كل أمر يريدني أن أفيق من غفوتي الجميلة تلك، من له حاجة عندي فلينتظر ريثما آخذ حقي من الغياب المريح، حلو جدا أن تكون فارغا من أي شيء وغائبا، وبهيما في تذوقك للأحداث، إن تحقق لك هذا، كم هو أمر جميل بحق، وتسلل يا جمال من الأمر الراهن وأذهب إلى مكان غير مفهوم غير معروف، روح إلى اللا شيء، وأصبح صايعا نفسيا، أو "ثور اللّه في برسيمه"، كم هو موضوع مبهج وهادئ أن تكون حمارا كبيرا، حلوة حالة المسح والإزالة تلك

حين تجريها على أجهزتك الداخلية المعقدة لتعانق في نهاية عملية التنظيف هذه التي تجريها على نفسك، فضاء يساوي ما تشعر به من ظلمة وبرد وعطش، أنا بردان يا جماعة، بردان وعطشان!! يا أيها الولد المؤرق باليقظة المستمرة لاتفق لبعض الوقت، أغمض عينيك وادخل إلى نومك المطلوب وسوف يتدفأ قلبك ويرتوي، حلوة الحياة بدون حسابات أو خطط، حلوة الدنيا حين تعاملها بفوضى واستهزاء بعد أن تكون قد فشلت في معاملتها باحترام لم تقبله أو تقدره منك، تلك قد تكون حيلة دفاعية ملحة، بعد أن نفدت من جعبتك كل الخطط والترتيبات والأنساق الذكية، ياااه، الراحة حلوة يا أولاد، الخلاص من وجع الدماغ شيء ثمين وممتع ومؤثر، إنه نوع من الخلاص المؤقت، وربما يحميك لفترة، ويجعلك تنال قسطا من راحة، أن تكون حمارا محترما فهذا معناه، أنك سوف تنال قسطا محترما من الراحة، أن تكون لجوجا مستفسرا متأملا، فهنا سوف يكون لك معاملة خاصة من العالم، معاملة تكفي لإسكاتك وطرحك أرضا بغلظة وركلك ولطمك حتى تأتيك الغيبوبة المنقذة، إذن أنت يا صديقي في الحالتين ستفقد اليقظة، إذن خذها من قصيرها وأصبح ثورا، أو حمارا أو كلبا أو قطة لا تصدر مواء، وها أنا سوف أمدد، وملعون أبو العالم، وملعون أي أحد سوف يدعوني لليقظة، إن غلبني النوم، ونمت فسوف أنام كما ينبغي..

وتمددت بطولي على السجادة المتسخة بأنواع عدة من المؤخرات، التي سبقتنا، وفردت جسمي على المصطبة، وهناك نوع من الانبساط غير المبرر يحتشد في نفسي، فوجهت لروحي سؤالا مباشرا، لماذا كنت كئيب المزاج منذ دقائق؟ لكنني نسيت العلل المؤدية لتلك الكآبة

الثقيلة الظل، فلم أجد إجابة، شافية، وكنت أتهته بالأفكار، بل لم أجد رأسي، والرؤية غامت أمامي، ونسيت من أكون، وأحببت هذه الحالة، وعشقتها لدرجة، دفاعي عنها، فحين هزني "عبد الوهاب" وطلب مني أن أحترم نفسي، وأتعدل من استلقائي، وأقعد على حيلي بأدب مثل بقية رواد "الغرزة" القلائل، شتمته بلفظة جنسية جارحة، ورفصته بقدمي، وسمعته، وهو يسبني متوجعا من ضربتي المباغتة، فضحكت بنشوة عارمة، وأنا أتخيل قدمي، وهي تضربه في مكان حساس من جسمه الضئيل، وكنت أسمعه، وهو يهزأني بسباب مكتوم، كان يهمس به في أذني حتى لا يسمعه أحد.

- ..قوم يا جمال، الله يلعنك يا شيخ.. حبايتين يعملوا فيك كده..

-، ..هههههها ها..

- ..أمال لو ما كنتش صايع قديم كنت عملت إيه..

- هههه.. أمشي يله يا تعبان..

- قوم يا جمال الناس بتتفرج علينا!!

..ولما قمت، وجدتني مبللا بماء بارد كثير، ومصابا بنوبة ضحك ممتع أسعدني، ولم أستطع البراء منه لفترة، ومن حولي جمع غفير من الناس "وأم حسن" بيدها "كوز" كبير به ماء، تأخذ منه جرعات كبيرة، وترميها على، وجهي، فيزيد تهيجي بالضحك الهستيري، غير واضح الأسباب..

..وكانت تقذفني بالماء وهي وتكيل لي ولـ"عبد الوهاب "الشتائم

المفضوحة، كانت قد لقيت سببا مقنعا لحريقها كي يشتعل ويتأجج في الهواء الطلق، كانت شرسة بما يكفي للفتك بإنسان، وأحدهم مال على أذني، وهو يزعق مكبرا باسم اللّه..

-- ..بسم اللّه الرحمن الرحيم..

-- اللّه أكبر، اللّه أكبر..

وكان "السماك" محتارا، وواقفا في وسط الجمع يرقبني بعينيه الضيقتين، وتفترسه مشاعر عدة تجاهي تجمع ما بين الإشفاق عليّ والجزع، والغضب، الذي تمادى في سيره إلى أن وصل لحافة الكره..

-..اللي يقعد هنا يقعد باحترامه، بلاش قلة أدب..

- احترام، هأو، أبقيى سلميلي على الاحترام لما تشوفيه..

- لم صاحبك واتكلوا لأحسن العفاريت شيفاها قدامي دلوقتي..

- جرى إيه يا أم حسن الجدع مبسوط شوية..

- غوروا انبسطوا في حته تانية، داهية..

- ماشي يا أم حسن، بس اللي مايندمش..

..أخذني من يدي وطلعنا إلى خارج الغرزة، وهو يتوعد "أم حسن"، لم تبال، واستمر سبابها النابي يتطاير مستشيطا نحونا، ويعرقلنا ونحن نستأنف الصعود إلى هامة "الحكروب" الشامخة، كنت قد رجعت لتماسكي وانضباطي، كانت تستنكر ما وقع مني في "الغرزة"، أين كانت تخبئ مثل ذلك الوجه المكفهر، وهذا الحقد؟!!

..والنهار مات، لم يبق منه شيء، والناس هجعت في بيوتها الطينية الضيقة، الليل أستوطن الحارات والأزقة، ومحى آثار النهار تماما، وأمسك بزمام كل الجبل، وأدخل الناس إلى سكينتهم، وهش العيال وأسكت ضجيجهم ولعبهم البدائي الفقير، وعم سكون جليل من حولنا، كنا مجموعة مشاغبة من المخلوقات تعتدي على هدأة هذا الليل الشاسع، كان صوت "السماك" المرتفع، والمعاتب يسرح ويرن في الفضاء الليلي، ومن حين لحين، تنطلق من أحد البيوت المغلقة، صيحة ألم مفاجأة، أو زغرودة ممطوطة تعلن عن فرح حان ميعاده، لكن نباح الكلاب البعيدة أبدا لم ينقطع ونحن نصعد إلى فوق، وصفعات الهواء تحتد كلما ارتفعنا في دروب الجبل، ونفير، وحمحمة، وعواء، ومواء، ونهيق.

..الأغلبية من أهل الجبل نامت بعد أن شاهدوا المسلسل التليفزيوني المسائي، كدوا وناضلوا من أجل أن ينجوا من أخطار النهار الذي مات، ثم تعشوا واحتفلوا ببقائهم ليوم جديد، بالشاي الثقيل، والتربع أمام سيدهم، التليفزيون، قدامه خروا قاعدين، وتقبلوا منه هباته الدرامية السخية بامتنان، تفرجوا على التليفزيون لبعض ساعات ثم ناموا، المشاهدة أصبحت أفيون الشعوب.

..ونتف النور الخجول، تنتشر متراقصة علي جسم الجبل، تخبو لحظات ثم تعود للنبض، والأضواء الضعيفة المرتعشة، تمدنا ونحن طالعين نحوها بقدر من الخشوع والرهبة، ثم شعور غريب بالخجل، لا أعرف لماذا اجتاحني، أو لماذا داهمني الآن، وكانت السماء قريبة منا ومبسوطة أمامنا، وكنت طوال المسافة التي قطعناها صاعدين،

أحاول إقناع "السماك" بأن الذي حصل مني في غرزة "الضمراني" لم يكن أبدا بسبب البرشامتين اللتين تناولتهما، بل لأسباب أخرى، أجهلها، وكنت أحلف له، بأغلظ الأيمان، وكان لا يصدقني، خصوصا حين هاجمتني مرة أخرى، نوبة جديدة متقطعة من الضحك، ونحن نوشك على الوصول إلى قمة الجبل التي يقطنها "جرجس"..

- أنا مش عارف عملت كده ليه، صدقني يا سماك؟!!

..لما قربت الحارة التي يقطنها "جرجس"، هنا توقفت برهة ثم استدرت مقررا أن أعود من حيث أتيت، وبلا استئذان، ورحت أهبط الجبل ثانية، كانت معاناة الهبوط أكثر وعورة من الصعود، كنت مبللا بالعرق والخجل يملأني ولا أعرف سببه الحقيقي..

..بصقت بقسوة على الأرض وزحفت بنظري على التراب الناعم، وقررت الفرار، وكنت أشعر بفضيحة ما غامضة، وظل صوته من ورائي يمارس اعتداءه الوحشي على سكينة "الحكروب"، التي ازدادت غلظة مع صعودنا إلى فوق، لكنني لم أستطع مقاومة رغبتي في الفرار، وحين انطرحت فجأة على الأرض الحجرية بفعل سرعتي وانقذافي باتجاه العودة، وبفعل الجاذبية، قمت سريعا من سقطتي ولم أهتم ببنطلوني "الجينز" الذى قطع قطعا نافذا، أو بركبتي، وهي تعطي دما قليلا للأرض، لم أبال بيدي اليمنى التي تحملت الجزء الأكبر من سقوطي، ولخلوها من العدد الكافي من الأصابع آلمتني ألما يتجاوز الجرح النازف في ركبتي، التقطت نظارتي من فوق الأرض ومسحتها بجزء من قميصي ولبستها ثانية، الانتقاص من كمية العظم واللحم لا شك أنه

يؤثر في كيفية حماية الشخص لنفسه، الانتقاص يجعل من رد الفعل غير مساوٍ للفعل ذاته، لتختل ميكانيكية البدن ورياضة الروح، ولم اهتم بشيءٍ غير استئنافي الركض وانبثاقي لتحت، ناحية السفح، كنت أجري، أجري، أجري، وصوت "عبد الوهاب" من ورائي يكاد يمسكني من كتفي..

- يا جمال، ده مجنون يا خوي ولا إيه؟

..وهل للروح أصابع يمكن قطعها؟ وهل للروح نوع مخصوص من ماكينات التشفية؟

obeikan.com

(30)

(لديك رسالة)

(كل سنة وأنت طيب، معلش أنا آسف على الغلط اللي غلطه فيك في التليفون، لكن أعذرني، بس أرجوك أنا محتاج الفلوس قبل عيد الميلاد، متجبرنيش أعمل حاجة مش كويسة معاك، كلمني، شكرا، جرجس 2001 / 1 / 4).

اضطراريا فصلت نفسي عن البنت العتيقة، اعتنيت بشخصي قليلا، وتعمدت أن أكون أنانيا في هذا الوقت، نظرت إلى نفسي وأنا مضروب بدرجات البني الغامق، ومغرسا كنت في لحم الحكروب المتيبس، وطالعا إلى السماء كقذفة أرضية موجهة إلى الفضاء الأزرق الممتد، كنت واقفا في المكان ذاته الذي حطني فيه "صلاح محمد اسماعيل" منذ أعوام عديدة، في نفس المكان ولم أبرح بعد، "إلى جمال يوسف فهمي" نظرت وسرحت..

ولماذا تعطلني دوما عن الوصول إلى اتحاد يجمعنا معا، وتؤسس بطيبة صاخبة لعوامل الفراق؟!! في حين أننا ملاصقان لبعضنا البعض كلعنة، سلمني نصيبي في القيادة، وراقب ماذا سوف أصنع لأجلك،

obeikan.com

لأجلي، نحن بهذا الاشتراك القميء لا نصل لما يريد كل منا، بل نفسد بدايات التحقيق والتشكل، ليتأجل في نهاية الأمر وصولنا لما نرغب أن نكونه، فلا تصبح أنت ما تسعى إليه، وأنا كذلك يفقس الإخفاق طيورا جارحة في أعماقي فأضطر لأن أمقتك، وأسعى للخلاص منك!! لكن كيف؟ كيف ونحن الشيء الذي يستحيل أن ينفصم أو ينفك أو يذوب أو ينفصل، أنت ماسك بي كخطيئة أزلية، يصعب أن ينساها الرب الذي سوف يحاسب المجرمين والخطاة الأكابر، برغم كل تناقضاتنا، نكاد أن نكون حقا حقيقة واحدة لا يمكن قسمتها أو تجزيئها إلى أجزاء محددة، جربني يا أخي مرة وسلمني عنادك مرة! ولا تدع لاشتباكاتنا ضد بعضنا، تفشل اتفاقنا على شيء واحد يجمعنا، يجب أن نتجادل بما يكفي حتى نتسق معا، صدقني أنا ليس بالشرير الكامل كما تظن! أنا مجرد توجس يحاول أن يلوث هدأة ليلك الداخلي، أنا محض ركض إلى اتجاه ما لا أعرفه، مثلك أنا، طيب لدرجة الغضب، أسكبني منك لو تقدر، امحوني من عميق نفسك لو كنت تعرف!! امسحني تماما من خصوصية حضورك حين أقحم نفسي عنوة عليك لو تستطيع!! كيف تحتملني يا صاحبي كل هذا الزمن ولا تجادلني مثلما أفعل معك؟ أنت، أنت لم تزل كما كنت في السابق، ومجروح بكبريائك والألم القديم، وبما تصنعه الرداءة في فضائك، لم تتغير فيك إلا ملامح تضخمت بالانتظار الطويل، فصرت عمرا تجاوز حد البراءة، واهين بالأمنيات الذليلة، فعلا أنت هو ذاتك ولم يتبدل فيك استمساكك بالحياة، فقط أصاب نفسك شيء من التماسك والجلال، وقدر لا يستهان به من الصمت وبوادر عنف ركيك توشك أن تستعمله، وشيب قليل لطخ

رأسك، يذّكر الطفل الراقص فيك، أنك كبرت، وصلاتك تحتاج قدر أكثر من الخشوع حتى تقبل منك، لكنك لم تعد تبذل مشاعر، تتساوى والذي يجابهك، كنت يا ولد يا مكافح، أكثر بياضا، ومدرا لنقاء أبيض كحليب الرضاعة، ملعون من أطفأ في قلبك دفء التواصل مع غيرك، وحطك في متاهة، ملعون هذا الزمان القاسي، إنها الحرب المتصلة، لا تنقطع منها صلصلة الأسلحة، وصياح القتلى، ملعون هذا الزمان حين يعشق تلوين المباني والشوارع بلون الموت والأدخنة الكثيفة، ملعون هذا الزمان، وقت أن يمجد ذبح الإنسان، وتقطيعه، وإلقاء لحمه في الطريق العام، ومبارك هو من لم يوافق علي هذا الشر الكبير، مبارك في السماء والأرض، كل من تنصل من هذا الجنون، وتجاوز صمته، وطوبى لمن يفسح المجال لهذا الحريق حتى يمتد ويتسع، طوبى لهم لأنهم لن يعاينوا مجد الله فيما هو آت..

(وسكت تماما).

(31)

- تركبها ياد؟

- أركب مين؟

- مين يعني!!

- ..هها، هأو، هأ، ها..

- العربية، التاكسي بتاعنا.

- افتكرت حاجة تانية، ههها!!!

- افتكرت إيه يا روح أمك؟

- وجوزك، عبد الكريم!! حيوافق؟

- أنت ماليكش صالح بعبد الكريم..

- معييش رخصة يا نادية..

- ويعني العربيات اللي مالية السيل والحكروب سواقينها معاهم رخص!!

- مش القصد..

obeikan.com

– يعني موافق يا جمال؟ أهو بدل ما أنت صايع كده!! ههها هههه هأ..

وضحكت بغنج، وأسرعت وكتمت تداعيات ابتهاجها، بأن غرست شفتيها في كتفي العاري، وكنت أشعر برجع الضحك الكتوم وهو يرجها بجانبي، كان الباب مقفولا علينا بأحكام، وضوء اللمبة "السهارى" الصغيرة بالعافية يبينها لي، ويبين مكونات الحجرة المزدحمة بالأثاث، والكراتين الكبيرة المتراصة على بعضها، "كل هذه "الكراتين" يا عبد الكريم!! اللّه يسامحك يا شيخ"..

..كانت شبه عارية، وترمي بفخذها المستدير الأبيض، فوقي، وتحتضني بكلتي يديها، وتندفع فيّ بقوة وسخونة، وسرحت، "لو طلبت منها الألف جنيه بتاعة جرجس ممكن تدهاني؟"، كنت معطيا ظهري لها وأرنو لعمق الغرفة، وكلما كلمتني، كنت ألف برأسي إليها، ثم أعود، وكانت تحتضني، بجميع ما تملك من لحم، ولكي تراني، كانت تضع أسفل ذقنها على كتفي وهي تكلمني، كنت قد حضرت إليها ليلا، لأطلب منها نقودا لغاية ما أقبض مكافأة نهاية خدمتي بمصنع الثلج والأسماك، وكنت أعرف أنها سوف تطلب مني حقها مقدما، وكنت كالمعتاد سوف أدفع لها من جسدي ما تريد، منذ فترة كبيرة لم أعد أرغبها كما كنت سابقا، بل صرت أتعامل معها جسديا بروتين ممل، وكانت هي تشعر بذلك وتعنفني، وتعاقبني في نهاية الأمر بأن تؤجل طلبي، أو تقلل من أهميته، تمهيدا لعدم الوفاء به، وكنت أنزل من عندها مفلسا يابس الروح منكمش الجسد وهزيل، وكانت تهجم عليّ بلسانها الطليق، وتتهمني اتهامات تجرح رجولتي، فأسبها وأنصرف متسحبا، وبداخلي حيرة وغضب، كانت تفتقد فيّ الثور القديم الهائج

بمتعته المفقودة، والذي كان يأتيها لينقب في سراديبها المهجورة عن إجابة تعيد له اتزانه ونشوته وشغفه، وكانت هي تسعد بذلك، الآن صارت تتهمني بالشيخوخة المبكرة، وأنني أكلتها لحما، والآن أرميها للفراغ عظما، أنت لا تفهمين قصدي إلى الآن يا "نادية" ولا تعرفين ماذا جرى لروحي، فكلما صعدت بأمر ما، أراه سريعا يسقط مدويا، وكلما رممت ركنا من الأركان المحيطة بي غافلني وتهدم من جديد، ألقاها منك يا "نادية" أم من الآخرين المتربصين لأفعالي، ومع أنني أتعاطف معك، ومع أنك لم تعودي تثيريني لحميا، فها أنا كلما ضاق بي الحال آتيك برجلي، وأضرب المفتاح في ثقب بوابة العمارة الحديدية، وأفتحها خلسة، لتدخل لك نسمة هواء ناعمة تمتعك، أصعد ببطء إلى الدور الثاني من العمارة، وأتمدد أمامك بخضوع لتأكلين من جسمي ما تحتاجين ولتدخري لنفسك مئونة تكفي للقضاء علي جوع قريب قادم..

..اعتدلت وقلعت قميص النوم الأحمر، وعبثت بالستيان من الخلف قليلا، فارتميا إلى الأمام نهدان كبيران، كذكري بط أرعنين، وحدقا فيّ بعينين يشبهان حلمتين ممتلئتين بالرغبة، وانتظراني عند أول طريق الفعل، وسكنا لبرهة قصيرة، تحت تهديدي لهما بعدم اللمس، طال الوقت وأنا أنظر بليدا إلى الكائنين الشهيين اللذين اندلقا أمامي، وظهرا لي كامتحان غير مستعد له، بعد مسافة من التأني والاستذكار، تحركت، أمسكت إحداهما بيدي، وعصرت اللحم الطائب برفق، ورحت للأخرى برأسي، وأخذت الحلمة المدببة بين شفتي، كانت تملس علي ظهري، وتتأوه بمتعة، مضطرا أنزلتها إلى تحت، وصعدت.

..وماذا أفرق يا بيضاء عن "أم حسن" وهي في ذروة نشاطها القديم، قبل أن تتوب عن الرذيلة من أجل عيون "جرجس"، وأنا من يتوبني عن عهري معك، وكنت في مرات عديدة أنام أسفلها أو فوقها باستسلام، واتركها تستخرج من لحمي البارد ما تقدر من مياه دافئة، وكانت أحيانا تفشل في إيقاظ نمل الرغبة في داخلي السحيق، لنقضي الليلة معا في حكايات حميمة مؤثرة تخصها وتخصني، وفي بعض الأحيان تنجح في تنشيط عوامل الاستثارة في أركاني الباردة، فتخرج شهوتي، وتسعى للإفصاح والتحقق.

..ومرات كانت تتذمر من برودي وتسبني، ثم ما تلبث أن تهدأ وتتمدد بجواري وتبوح لي بأسرارها ومخاوفها، وأحزانها مع ابنتها "سوسن" التي كبرت وأصبحت امرأة يفوح منها شذي الأنوثة، البنت صارت تسبب لها القلق والانشغال الطويل، وتشعرها بضعف وخوف لم تحسه من قبل، فبرغم تعودها على غياب ذكرها المسافر في البلاد البعيدة، إلا أنها الآن تحس بمدى فداحة غيابه، خصوصا بعد أن أصبحت "أُما" غير نظيفة، غير أمينة، ولها تاريخ سيئ قد يضر بابنتها، والبنت التي أعلنت على الملأ ملامح الأنوثة الأكيدة، كانت قد بدأت تشعر بما تفعله أمها في الخفاء، وفي مواقف كثيرة، كانت "سوسن" تلقي بالكلمات الإيحائية التي تثبت بأنها تشك في سلوك والدتها، أثناء غيبة أبيها، ثم تفتح بيننا طريقا للدمع حتى يسيح ويتحرر، وكنت أربت على كتفها بحنان وهي خاضعة كجرح قديم في صدري..

..وعندما نفشل، في إقامة حفلة ليلية ماجنة، تليق بجسدينا، كان يحدث شيئان لا ثالث لهما، فإما نتعارك، وأخرج من بين هيلمانها

الجامح، مكسورا، ومهدما، ومتهما بالشيخوخة المبكرة، وإما نرتاح مع بعضنا قليلا ونطلق الشكوى في ليل قاسٍ وعنيد وأصم، ليس له قلب أو مشاعر..

..كانت يا إما تسبني وتعايرني بعجزي ثم تطردني من عندها، يا إما تحن وتحترم عشرة طويلة بيننا، فتطبطب على جروحي وتدخلني إليها عبر شارع آخر، ليس هو بالضرورة رغبات الجسد، تجيء معذبة وترتاح في صدري وتبوح بهمها، وتسقط بين يدي دموع دافئة، لا تكفي ولا تكون بمكانة الأسى الكبير المعتق في صدرها من زمان.

..قد أكون أحد الأسباب التي دفعتها لترتاد الآخرين، الذين كشفوا عن العلامات السرية في جسمها، وصاروا يعايرونها، في المجيء، والرواح، ولم أشأ إحراجها بسؤالي عن عدد الرجال الذين صاروا يدخلون هذه الحجرة مثلي، وكنت أخاف عليها من وجع المفاجأة ومن حريق الخجل، وربما تكون مظلومة، لكن كيف تكون مظلومة، والرجل ذكر عن هذا الجسم الجميل الممدد بجواري علامات وإشارات، أراها الآن جيدا برغم العتمة الخفيفة المتحكمة في مصير الغرفة، هي هي نفس "الندبة"، وفي نفس المكان بالضبط، وكما قال الرجل حين تشاجر مع "نادية" منذ فترة طويلة، لكن هل أعطت أي أحد، غيري، نسخة من مفتاح البوابة الحديدية الغليظة؟ وهل اتفقت على إشارات محددة يفعلها القادم، حين يدخل من البوابة حتى تتجهز له وتعد له الطريق والمخدع الآمن؟

..وكيف يا عبد الكريم، من أجل الفلوس، تعمل تلك الأعمال المعذبة، وتترك وتغادر، وترحل، وتهج في المتسع البعيد للبلاد؟! تمشي يا

رجل وتسيب وراءك أشياء تالفة، وأشياء جديدة تستعد للتلف بمشيئة الرحمن، وإلى متى يا شقي سأستمر أعاونك في تصليح الأشياء التالفة التي تخصك؟ طيب أنبسط يا "عبد الكريم"، أنبسط على الآخر، فها أنا يا رجل قد دخلت شيخوختي المبكرة، ولم أعد أنفع، وها الآخرون المحتاجون، قد بدأوا يرتادون عمارتك الخاوية من أجل إصلاح ما هو تالف فيها، هم يصلحون كل شيء فيما عدا نقطتين من حياة كنت قد نسيتهما هنا يا عبد الكريم، أنا لم أعد قادرا، أنا لم أعد أنفع صدقني، ودخلني يأس بمقاس الأيام الطويلة المنقضية، ولي شأني ولك شأنك، وكل منا له مسافة ليمشيها، وكل واحد له همه وفهمه وجروحه، تعال وتسلم مهامك كرجل يا أيها المقاتل في بلاد الناس الغريبة، وتبهدل ناسك الأقربين هكذا على المكشوف، ملعون عماك وعماي في كل الأرض، كل من قذفك أنت وغيرك إلى خرائط البلاد لتصبح رحلة بلا عودة يكون مغضوبا عليه.

..وتصبح هكذا يا رجل!! مغادرة لا تنتهي، وابتعاد!! تكد وتتعب وتترك منك جزءًا مهما، يموت ببطء، افرح وانبسط براحتك بالأسمنت الكثير الذي كومته فوق بعضه في رحاب الجبل، افرح وتباه براحتك بالعربة "البيجو" الأجرة التي سوف أركبها قبلك، وسوف أصلحها عند الميكانيكي كما كنت أصلح من قبل، نقطة الحياة الكبيرة التي غادرتها وسافرت..

..ولم تفكر في مرة أن تلك النقطة تحتاج لأحد، حتى ينفخ فيها الروح باستمرار، هي تحتاجك يا غلبان، مثلما تحتاج فلوسك الكثيرة، خراسانتك الميتة التي أقمتها هنا ليست بالأهمية التي تظنها، صدقني،

obeikan.com

فهناك أبراج شاهقة يجب أن تمتد في القلب والوجدان، يا مغفل..

..وها هي نقطة الحياة الصغيرة لحقت بالأخرى وكبرت، هل ستلحقها يا عم؟ أم ستضع أسمنتا جديدا فوق القديم لتمتد الخرسانة الناشفة أكثر فأكثر في داخل ابنتك "سوسن" وأمها "الست "نادية"، لا تجعل كومة الحديد والأسمنت التي صنعتها بنفسك، تنافس مثيلات لها انتشرت بكثرة في "الحكروب"، وإنما أرجوك يا رجل أن تنافس الآخرين في زوجتك البيضاء الوحيدة، والحق ابنتك الناهضة لتوها من طفولة مؤرقة بغيابك المستمر، ألحق بها، ألحق بابنتك "سوسن" قبل أن تنحاز مثل أمها إلي أحد ما ليصلح لها أشياء ستبدأ في التلف..

..أنت يا عبد الكريم، فيما أظن، تصارع الأسمنت، وتتحدى جيرانك في إقامة وتطويل البناء الخرساني الخاوي، فكلما أقاموا طابقا، أتيت من الخارج بالطائرة مستحلفا، وأقمت طابقين، لتجلس متباهيا في نهاية إجازتك، أسفل الطوابق الكثيرة الفارغة، تجهز شيشتك "الفارهة"، تفرش سجادة فاخرة مستوردة، تجمع الناس حولك، وكواحد كبير تدخن "المعسل" وتحكي لهم عن فتوحاتك الأسمنتية الجليلة، ترمي بغيومك هنا وهناك وتتكلم وأنت في زهو جميل جدا، وتنسى، تنسى أن هناك نقطتين ضعيفتين من حياة، في كل هذه الفساحة التي صنعتها من الخرسانة، هما يحتاجان فقط لأحد حميم يحبهما بشغف، حتى يمكنه أن يصلح ما فسد في كونهما الضيق، تنسى يا عبد الكريم، أنت تنسى، مشكلتك النسيان..

ولما أحب مجاملتها، وأحاول أن أخفف من أعباء الجسم الأبيض

الهائج، كانت تفقسني، وتكتشف زيفي وتصنعي معها، "أنت باين راحت عليك وعجزت من بدري، تعسه تتعسك، وكنت أخجل من نفسي ومن ذكورتي المهدرة.

- واللّه ممعاي غير دي يا جمال..

- ماشي..

- عبد الكريم مشدد عليّ قوي في المصاريف..

- لأ خلاص!!

- بيبعتلنا مصاريف ع الكد، أنت زعلان يا جمال؟!

- لأ، خلاص، عادي!!

لفت شريحة ورقية بسعة خمسين جنيها، وأدخلتها إلى جيب قميصي، وقالت بنبرة مكسورة، "أنت عارف يا جمال إيه اللي مخليني ما أخدش المفتاح منك لغاية دلوقتي؟ وكانت واقفة قدامي مباشرة، ومن فرط اقترابها مني، كان هناك جزء من جسمها يحتك بي مع كل كلمة تخرج منها، وتنظر إلى أسفل، وبدون قميص النوم مازالت، وحافية، وعلى أظافر قدميها طلاء "المانيكير" الأحمر القاني، وترتجف من الشتاء وهي تقف وحيدة أمامي، رأيت "حبوب" القشعريرة الدقيقة، تنتشر فوق كل ما أراه من لحم، والفجر فاحت رائحته من حولنا، فضته النقية تسحبت إلى مواقع محددة بجانب النافذة المقفولة بضلفتين من زجاج شفاف، ستارة بيضاء من النايلون الخفيف مسدلة فوق زجاج النافذة ولا تمنع الفجر أو تقاومه، والضوء بدأ يتسلل واهنا إلى

وسط الغرفة، ويبعثر القليل من شظاياه، هناك في الأركان الشحيحة الإنارة، وكان شعرها الغزير مفلوتا ومتناثرا إلى مساحات كثيرة منها، وبلاط "السيراميك" صاقع كماء بارد أسفلنا، وكنت أقفل "سوستة" البنطلون، ثم شددت وسطي جيدا بالحزام الجلدي العريض، وأدخلت طرفه في" الأبزيم" وانتبهت إلى نحافتي الجديدة، فها أنا مستوجبا علي فتح ثقب جديد في الحزام حتى يكون أكثر تماسكا مما هو عليه الآن، وكنت قد غادرت ثقبا جديدا منذ أسابيع قليلة، وها أنا، أستعد لمغادرة ثقب آخر، وكنت اقفل "أزرار" القميص واحدا بعد واحد وأتهيأ لارتداء "السويتر" الثقيل، كانت قد اقتربت مني أكثر وهي ترتجف بشدة، وكنت أنظر إلى رأسها أسفلي ولا أتبين ملامحها، ولا أعرف هل هي ترتجف بسبب البرد، أم بسبب أشياء أخرى لا أدريها.

- عارف ليه يا جمال؟

- .. ؟؟

- .. أحيان كتير بأحس أنك أخويا.

- ...؟!!!

- .. أخويا اللي طلعت بيه من الدنيا.

- ...!!

ولم أقدر على الكلام، كنت قد بلغت "الزرار" الأخير في القميص، أمسكت رأسها بيدي وملت بحنكي ووضعت فوقه قبلة طويلة، ولفت ذراعيها حول وسطي وصارت تمسكني بقوة تتعدى قوة الحزام الجلدي

الملفوف حولي بتراخ، كانت تضمني بعزيمة مضبوطة تماما على مقاسي الجديد، كان ذراعيها على مقاسي بالتمام، وتنهدت بحرقة، وكنت قد حددت في دماغي أنني سوف أبوس رأسها للمرة الثانية، كنت كمن يريد أن يعتذر لها، كان من الواجب أن أقبل رأسها مرات كثيرة، وسرت إلى أعصابي قشعريرة لم أعهد بمثلها من قبل، كانت تضمني إليها بحرارة، وطهر لا يلوثه أي دنس، وكنت احتضنها بقوة ودموعي تغلبني وتسقط علي فروة رأسها اللامعة، كنت أبوس رأسها، وأملس على جسمها اللين بيدي، وكلينا كان يرتجف، برفق أخذتها إلى السرير، وتمددنا، كنت فوقها أجاهد بلذة، وكانت هي بين الحين والحين، تمد أصابعها الصغيرة، وتمسح عيني وتتبسم لي من بين دموعها الغزيرة..

(32)

هي أشياء صغيرة، أشياء صغيرة بمقاس إصبعي السبابة والإبهام بالضبط، وتحتفظ بها باستمرار بين طبقاتك، وتمضي حاملا لها أينما ذهبت، هذا منديل صغير مطرز، وهذا موبايل اشتريته بالتقسيط من "مرتضى"، هو سرسبه إليك، مثل "الدش" وغيرها من إغراءات، حتى تسمح له ببعض العنف مع شقيقتك "تهاني"..

..وهذه القماطة الضئيلة الملفوفة حول نفسها تحتوي في وسطها على شيئين يابسين يشبهان أصبعي السبابة والإبهام الذين فقدتهما منذ سنوات طويلة، أنت بالطبع تخشى عليهما مزيدا من التفتت والتلف، لذلك تضطر لتركهما في الكيس البلاستك الكبير المعبأ بأشيائك القديمة، أنت فقط وعلى فترات متباعدة تأتي بالأكياس المعلقة بالحائط، وتفض محتوياتها الكثيرة، وتتأمل أشياءك، شيئا في إثر شيء، وأصبعا تلو أصبع..

وهذا مفتاح دقيق تفتح به بوابة "نادية" الحديدية، وتخوض في الأسمنت، وتسبح في العتم، تصعد إلى الدور الثاني لتحكي كثيرا مع السيدة البيضاء، تحكي كثيرا، كثيرا، وتضاجع قليلا، بل في أغلب الأحيان أنت لا تضاجع السيدة البيضاء الوحيدة، المعزولة عن بعلها بأمر السفر والترحال، تتكلم معها كثيرا، وهي أيضا تستقبلك بحفلة

obeikan.com

كلامية ماجنة، وتنسيان معا وأنتما في غمرة الحكاوي أن تتضاجعا قليلا، أصبحت مجرد حكاء طيب النوايا تجاه الست "نادية".

..وهذا حزام من الجلد الأصلي، تلفه حول وسطك، وتداوم على غرسه بالمسمار المحمي على النار، كي تصنع به ثقبا جديدا يكافح نحافتك المقبلة..

..وهذا قرن غزال لم تسمح لك الأحوال كي تستعمله، أنت عن قصد تتلكأ في استعمال النصل الحاد، تؤجل لأنك مازلت قابضا بقوة على شيء لم يتسرب منك كاملا بعد، شيء ثمين، ثمين وغالٍ وصعب تعويضه، من أجل هذا الشيء الثمين الذي لا تستطيع تسميته، أنت تؤجل، تؤجل، إلى الآن لم تستعمله ضد المصير المجهول الخبيئ هناك عند الناصية، ذلك الخطر دوما يفاجئك، ويصرخ في وعيك علي حين غفلة، ويقول لك بصوت زلزالي "هع، بخ"..

..وهذه قصاصات متهالكة منحتها الحق في الغوص في وحل الذاكرة، مثلها مثل هذا المنديل المطرز الصغير الذي منحته لك البنت التي هجت برغبتها إلى الخفاء الخاص بها، كنت قد تخلصت من كراكيب تلك الأنثى الطاغية، فيما عدا ذلك المنديل، المرسوم علي أحد أطرافه زهور فرحانة ومنفتحة عن آخرها..

..هي أشياء صغيرة، أشياء صغيرة كأصبعي إبهام وسبابة، ودقيقة لدرجة عدم العناء في حملها أينما ذهبت، ما دمت تحمل ملفات الماضي بين جنبيك وتعيش على تفحص بياناتها غير المرغوب فيها، مادمت أنت هكذا، إذن ما المانع يا ذكر، في أن تكافح عوامل غيابك

الساكنة قاعك، قم يا محتار، واخلق لنفسك ولمن تحب متسعا من راحة، ولا تؤجل، أنت تحب أمك وأخواتك البنات وأصحابك الذين مازالوا ماكثين فوق الأرض، وتحب أيضا الذين سافروا إلى غيابهم الطويل، وتحب جبل "الحكروب" وكل الدنيا، إذن ماذا تنتظر؟! قم وترجل وفجر غضبك في الأنحاء، وأغمد مطواتك في مصارين هذا المجهول الجاثم على صدر أيامك، هيا يا حلو، افعل وجرب لمرة واحدة خواتيم الشجاعة، أخرج من فلكك الطيني، بعد أن تأخر الزيتون وغاب الحمام، وساهم في هذا الحريق كي تنجو أنت ومن معك، أو احترق كما ينبغي لنبيل أن يموت، ولا تصادق رغبات النجاة الرخيصة، أتبعني لمرة ولا تقاوم! براحتك، سلام..

(33)

..أخذ "مرتضى" عائلته الصغيرة منا وانصرف منتصرا، ضم ابنه "يوسف" بحرارة إلى صدره، وحمل الصغيرة "مرثا" وقبلها بشوق، وأسرع بالشحنة العائلية إلى سيارته "نصف النقل" الواقفة عند أول الحارة، كنت أسير خلفهم أنا وأمي، أسرع بفتح الباب "لتهاني" براحة تصدر عن واحد اطمأن على استرجاع كل حقوقه، انطلقت العربة بحمولتها كاملة، ماله، وأولاده، وخادمته "تهاني"، أيام قليلة سوف تمر ونسمع بعدها، عن غبن "مرتضى" الجديد الموجه إلى كل شيء كانت تحمله السيارة، فيما عدا فلوسه، فقط كانت فلوسه تنجو من ثوراته ضد لحمه وعظمه، وكلما ازدادت أرصدته البنكية ومكاسبه، أطل افتراسه من كهوفه وراح إلى كل ضعيف كان بجواره..

..هذه المرة، لا، لن أدعه يعبئ شاحنته بشيء، هذه المرة سأحاسبه على الفاتورة كاملة، وبأثر رجعي، وسألقي في وجهه بالموبايل، والريسيفر اللذين أخذتهما منه بالتقسيط..

-دب، دب!!

- ..شادي وقف يتفرج..

obeikan.com

..في الفترة الأخيرة ازدادت جولاتي التعقبية خلفه لمحاسبته على أخطائه، في تلك الجولات كنت الحظ الكره الدفين في صدور الضعفاء الذين يعملون معه في دكاكينه الفاخرة والمعبأة بسلع التكنولوجيا الحديثة، اكتشفت أنه أصبح محاصرا ببغض الجميع، والكل يخشى إعلان ذلك علي الملأ، لأي واحد من الناس حساباته الخاصة طبعا، ولكل شخص مقدار للاحتمال، وأنا لم أعد أقدر، في الليلة السابقة سعيت في طلبه، مصمما على تصفية حساب قديم بيننا، وطلبته علي هاتفه النقال، فلم يفتح السكة لي، وعاملني مثلما أعامل جرجس، وقتما أتجاهل تليفوناته حين يهاتفني، كلنا يعذب الآخر ويغيظه بالإهمال المدرب، جميعنا نلاكم بعضنا البعض في هذا العتم، ونصطنع عدم القصد فتلتهب المشاعر بالغل الدفين، في حين لو كنت أجبت علي مكالمات "جرجس" جميعها ولم أتجاهله دائما كما كنت أفعل، لربما غفر إخفاقي الطويل معه، وصدق أنني إلي اللحظة لم أقبض شيئا من البنك..

..ومن الجائز أيضا لو أجاب "مرتضى" على مكالماتي اللحوحة، لكنت تناقشت مع حقدي المتجة إليه، وحاولت التقليل منه، لو فتح سكة للتواصل لربما داعب دون قصد ذلك الشيء الثمين الذي أقاتل حتى لا أفقده كاملا، لكنه لم يفعل.

.."مرتضى" يعرف أنني أصبحت أمثل له في الفترة الأخيرة، الميعاد الآزف، والبقعة الأكثر تقيحا في علاقاته المتشابكة الكثيرة، أنا صوت الذين يعلنون رفضهم له في الخفاء، أنا المنطقة الثأرية المؤجلة في مسيرته المباركة نحو الفلوس والنفوذ، ومن يطلب إسقاطه بإلحاح،

أنا من يمثل مخاطرة متوقعة ضد جسمه، هو صار دلالة ورمزا كبيرا لأشياء فاسدة نتنفسها كالهواء في تلك اللحظة من عمر الزمن، خسارة، في يوم قديم كنت أحبه، وأحترمه..

..كان يصوب إليها افتراءه لأتفه الأسباب، ويسعى فوق المساحات فاردا طوله وعرضه ومشاريعه الربحية، وقروضه المصرفية، وأنا أتابعه وأتابع أختي وأولادها من بعيد لبعيد، وأكافح ضآلتي، وكل حين أثقب خرما جديدا في حزام بنطلوني، حتى أعالج نحافتي المستمرة.

- ..يا جماعه يلي هنا..

- ..أنا وشادي غنينا سوا لعبنا على التل، كتبنا ع الأحجار قصص صغار..

عليّ أن أردع البنك الصغير الواقف بالخارج، يجب إسكات الصوت المتبجح الذي يجأر بوثوق، ويعتدي علي "فيروز" وهي تحكي عن الولد الصغير "شادي"، ها هو قد أتى لعندي برجليه، يا مرحبا، يا مرحبا، ومجيئه أسكت بهجة الغناء في المكان، وتطفل على عزلتي، وأيقظ عهدا من المرارات في نفسي، ومن يستطيع تعطيل الغناء، وفرح الروح إلا أغبياء بحجم الأخ "مرتضى".

..أنا أصنع سعادتي بفيلم، أو كتاب، أو قعدة دخان أزرق مع الأصحاب، أصنع فرحي غير المكلف، بجلوس انفرادي على مقاهي المدينة، وتدخين السجائر كما أشاء، أو بمضاجعة امرأة عابرة إن تيسر هذا، أصنع غبطتي تقريبا بصعوبة، وبلا ضجيج، أعمل هذا على فترات متباعدة، وبتوجس محرج، وبعد كل هذا الشح والحرج في تحصيل

الفرح يأتي واحد مثل "مرتضى"، وينشله مني هكذا ببساطة، أروح إلى أين يعني؟! أأسافر من أجل خاطر هؤلاء الأجلاف، أسافر مثل أحباب قدامى تغيبوا عني بالسفر وتركوا مكانهم وحشة وقيظا وعطشا لا يرويه ماء، وماذا بعد الهامش لأعيش فيه، ملعونون كلكم يا متخمين بالهناء المسروق من الآخرين، ملعون كل من كان يشبه الأخ مرتضى، وماذا هناك أرخص - ماديا - من صوت فيروز لأستعيد متعتي وسعادتي به،

..تعتدي على الغناء هكذا ببساطة، روح، منك لله يا شيخ، منك لله.

..وبدلا من أن اتجه إلى الباب وأتمم فتحه ليسع ضخامة القادم، ثبت في مكاني،

..كل أهل البيت يعرفون تقاسيم الرفض الغادر حين تقوم من أغوارها المهجورة في جسدي، أنا في أحيان كثيرة أصبح شجاعا جدا، يحركني رفض كريه لا أحتمل عدم التعبير عنه، أتصدقون هذا الكلام يا جماعة..

وتلك تفاصيل ثورتي عندما تتجسد في ضعفي.

أولا: أبدأ بتحريف مشيتي العجولة دوما، إلى أخرى متأنية، عدوانية تهم بثبات نحو طريق مجهول..

ثانيا: نظراتي تزوغ ولا تنظر إلى مكان محدد، وتصبح ميتة، ولا تلقي بمعنى ما ولا تبشر بأي قدر من الشر الساكن فيّ، وكل وجهي لا يعطي من يتأملني في تلك اللحظة، توقعا حاسما، للكارثة التي من الممكن أن أحققها للجميع فيما هو آتٍ من زمن..

وجرت إليّ الفاهمة، أمي، ولم تعترضها أمراضها التي تخفيها عنا، أو قصر مشوار خطواتها، ولحقت بي وتعلقت بتلابيبي، وهي تترجاني بصوت باك حتى أقلع عما عزمت على المضي فيه.. "ورحمة أبوك يا جمال، حقك عليّ أنا يا حبيبي، ورحمة خالك وصفي وكل غالي عندك يا ولدي"، واستمر انقذافي إلى الأمام كدخان ثقيل يشتاق للصعود إلى الفضاء، وتبعتها "صبحية، وهي تولول بصوت كتوم خائف، "يا لهوي يا لهوي، متوديش نفسك في داهية يا خويا، إحنا عايزينك، يا تهاني، يا تهاني، الحقي أخوكي يا بت"!!

ثالثا: مهما كانت الأرض معبأة بالخلق، فلا أرى أحدا غير ضحيتي المتجه إليها بعد حين، بعروق نافرة وأعصاب باردة، وأنا أرى الآن "مرتضى" بوضوح، وكأنه الدنيا ذاتها، ولا أفكر في هزيمة قد تصيبني، أو أذى، حتى موتي وانسكابي على التراب، يرضيني، نزالات وصراعات قليلة دخلتها في حياتي المتوسطة الطول، وفي جميعها لم يهمني أو يعنيني، أن أنتصر، الأهم من الانتصار، هو أن أتحرك أن أتقدم ناحية الفعل الذي يفشى غضبي على الملأ، في بعض الأحيان ينبغي أن نضع ندبات غائرة في وجه العالم حين يكون وقحا، ينبغي أن نفعل ذلك بقسوة، في أوقات كثيرة يجب علينا أن نمضي في تقشير أنفسنا من ملامح اللياقة، ودهانات التجميل المزيفة، هناك لحظات محددة في عمرنا، يجب أن نكون فيها عنيفين، لنصد ونوقف شراسة تستهدف وداعتنا ونقط الخير الصغيرة الباقية فينا، هناك ميعاد حاسم يجب أن نصله غير متأخرين حتى نستطيع فيه لجم وإنهاء هذه الزرقة الداكنة التي تود الاستدارة حول المشهد والانجراف به نحو

obeikan.com

القتامة الكاملة..

جلس مرتضى على الكنبة متجاهلني، أو هاربا مني، أخرج علبة سجائر مستوردة وأشعل سيجارة وهو يصوب بصره ودخانه نحو فرن الخبيز الطينية، الباركة في أحد أركان الصالة الواسعة، وذهبت أمي إلى تهاني بالغرفة لتهدئها وتطيب خاطرها وتجهزها لجلادها الذي جاء، وكان من حين لحين يسترق النظر لي، وكنت أحدق فيه بعيون باردة لا ترمش، غالب قلقه مني، وأرسل لي تحيه، حاول أن يجعلها عادية، ولم أرد، صوته الجهوري خرج مرتجفا بعض الشيء، لكنه تماسك، استغل صمتي وتمادى، أخرج علبة سجائره للمرة الثانية، وفتحها ببطء وأمسك بسيجارة جديدة ووضعها بين أسنانه بعد أن قذف بالعقب المنتهي إلى الطبق الكبير الموضوع أسفل الزير، اصطنع النسيان، ثم عاد ثانية واصطنع التذكر، في ثانية واحدة صنع الحالتين المتناقضتين، وكأنه تذكرني فجأة، بحركة تمثيلية

استدرك الأمر سريعا، فبعد أن قفل العلبة، عاد وأخرج سيجارة أخرى وأشار بها ناحيتي، "تدخن"؟ ولم أرد، ألقى إليّ باللفافة فارتمت بقربي وراحت تتدحرج حتى ثبتت، كانت قريبة من قدمي، نظرت إلى السيجارة الغالية بصمت وغل وحيرة، ثم إليه نظرت وكنت في ذات اللحظة أقتل السيجارة بحذائي، كنت أدهسها ببطء واستهزاء وحقد، حتى ماتت..

- ..وينك رايح يا ش---------أدي ...

(34)

..وفي هذه الجلسة، كانت جدتي تقول كلاما غير مفهوم، ويسيح اللعاب على جانبي فمها، وأمي تسرع وتمسحه لها بمنديلها القماشي وهي تتابع الحديث مع أخيها "صالح"، وكنت لم أرشف رشفة واحدة وأرنو لقطعة اللحم العجوز وهي تعاند موتها طوال السنين الكثيرة التي مرت، وتطلع بأصوات مزعجة، وأمي تقطع حوارها وتدللها وتمسح بيدها على الباقي من شعر رأسها، وضعت كوب الشاي المملوء على الصينية، وقمت بمهل، وأمي فعلت مثلي، وضعت رجليها في الحذاء أسفلها، وحاولت مرات، إلى أن استكان الزوج الأسود المغبر بتراب الطريق لقدميها أخيرا، وقامت من فوق الأريكة، وطوحت طرحتها الشفيفة، إلى الوراء، قبل أن تتحرك نحو الباب مالت وقبلت أمها بحنان في خديها، وكان الخال "صالح" يبذل محاولاته، حتى يمنعا من الذهاب، كان يطلب منا ملحا، أن نشرب الشاي، قطعنا طول الصالة بهمة، متجهين نحو الباب وهو يسرع من ورائنا محاولا اللحاق بنا، كان ممسكا بكوبي الشاي المملوءين، ويتقدم والسائل البني ينقص مع كل خطوة يخطوها إلينا، ويسقط في قطرات متسارعة إلى الأرض، وطلعنا إلى الشارع، وظل واقفا على عتبة البيت القديم، وهو يرمقنا بنظرات

باردة، وأنا أرميه بنظرتي الأخيرة، رأيته وهو يفرغ ما كان قد تبقى في الكوبين الزجاجيين على الأرض الرملية أسفله.

..غروب وفضاءٍ رملي، وهدوء بمقدار ليل ضخم قادم من هناك، وحيرتان بحجم أُم طيبة، وابن، يضربه إخفاقه كالمرض العضال الذي يداهم مفاصله وعظامه من حين لآخر، أنا عطشان، لم يظهر النيل بعد، أحتاج للماء، أحتاج لرؤية ماء ساقع، أحتاج إلى نيل عظيم يجري في الأرض وكأنه قرار نهائي بالارتواء ومعاداة العطش، كنت أنا وأمي حيرتين تتفشيان كنبأ نكسة وتلوثان لحظة الغروب المريبة التي تقتحم المسافات الآن، حيرة أمي في كيف تستخلص حقها من أخيها الأكبر "صالح" بعد أن وضع يده على البيت، وحيرتي – أنا– وكيف أثبت لهذه السيدة، أنني متكأها الذي يجب أن تتوكأ عليه، حين يأتيها الغبن من أعز الأحباب وهي في أراذل العمر..

والهمهمات البعيدة، ما هي إلا لشجر الكافور المتراص بحذاء النهر الذي سيظهر عما قريب، وشجر التوت يهسهس بكبرياء ونحن نقترب منه، ويرمي بعبق خافت في أنوفنا، ولم تتكلم، واستمرت ساكنة، ولم يظهر عليها تعب المشوار، أو صعوبة السير على الرمل، مكافحة هذه السيدة، وتختزل التعب والعجز إلى أن تنام، فوق فراشها وفي ساعات النوم القليلة، تخلص ما عليها من ألم، طوال ساعات النهار تتحامل وتتاكف مع سنينها وشيخوختها إلى أن يحين ميعاد دفع الحساب، أمي تهوى أن تؤخر مديونتها كل يوم إلى أن يأتي وقت النوم، هنا فقط أسمعها وأنا ساهر في غرفتي، وهي تتأوه وتئن، وتخاطب السماء منكسرة حتى تعطيها احتمال لتمكث قليلا بيننا.

..حتما سوف يظهر النيل بعد قليل، نفس هذا الطريق قطعناها كثيرا بتوئدة أنا والخال "وصفي" الله يرحمه، وهي، هي نفس لغة النباتات الباسقة التي أطلت علينا هاماتها من وراء الكثبان الرملية، الأيام الحلوة دائما ما تسرع إلى النهاية، الوقت محتال محنك، ومدرب على التخلي عن الذين يعتقدون أنهم ممسكون بتلابيبه، الزمن نصاب محترف، وكلنا محصلة نهائية للذاكرة، الذاكرة مقبرة واسعة لكل ما هو حاضر وآتٍ أيضا، تهيأوا إذن لتكونوا ذكرى جيدة في رأس العالم، كلنا سنصبح وقودا وحطبا للذاكرة القادمة..

..وجاء النيل ونحن نسير، فاستأنسنا به، وطرح الاطمئنان طعما حلوا في جوفي، وطلع من حيث لم أنتبه أسفلت الطريق العمومي وتغلغل في مساحات الرمال القصية، توقفت السيارة "الكبوت" على مقربة منا، وجاء الزحام مفاجئا من جهات متعددة، فلم أستطع أن أحجز لي ولأمي مقعدين لنذهب، وانطلقت العربة بموتور يقذف بدخانه الكثيف إلى الفضاء، وتابعت أزيزها حتى غابت في الظلام البعيد، عدت مرتبكا إلى حيث تقف أمي، ولم أقدر على النظر إلى عينيها، أضواء جسم "الخزان" البعيد حدت قليلا من رهبة الليل، وأصوات الناس القليلة من حولنا، والسيارات العابرة، من حين لحين كانت تكنس همس المكان وتبدده، وكنت واقفا في انتظار، وكانت أمي واقفة كشجرة اختارت أن تكون في عزلة، وجهزت نفسي للسيارة المقبلة من هنالك.. كانت السيارة تعبر جسم الخزان إلى الضفة الأخرى بسرعة كبيرة، وترجرجنا بعنف ونحن جالسون في الصندوق الخلفي، وضعت ذراعي على كتف أمي لأسندها ونظرت للخارج، كان الماء موجودا من

الناحيتين، لكنه من جهة الجنوب عاليا وفسيحا وخارقا وأشد غلظة، أنه رصيد من الخير ينتظر السماح له حتى يعطينا معجزاته الجديدة، ومن يبطش بهذا القحل غير سيدنا الماء..

وكنت أتذكر الخال "صالح" وهو يصيح في وجه أمي معترضا ومستهينا، هذا الرجل قديما أخذ مني ابنته وأعطاها "لنصر العتطجي" والآن يريد الاستيلاء على إرث أمي، بعد موت الخال وصفي، وبعد أن حرقت زوجته "هنية" نفسها حزنا عليه، أخذ الخال، عياله وأغراضه من الحكروب وذهب إلى "الخزان غرب"، وأقام في البيت الكبير بحجة رعايته لجدتي الهرمة، واستولى على البيت بكل ما فيه، قلت لنفسي لن أدعه ينعم بغنيمته هذه المرة..

- ..اللي تقدروا عليه أعملوه يا أم جمال.

- ..ده بيت أبويا يا صالح.

(35)

أنسي جريس عبد الملاك

obeikandi.com

(36)

(إزي حضرتك وإيه الأخبار، المدام إيه عاملة صحتها جات على الدوا، لا القولون ده مشكلة، بس خليها تبعد عن البقوليات والحراق والمخللات، والآنسة بسمة كويسة، استلمت الشغل، طاب كويس، ألف مبروك يا أستاذ "أُنسي" ألف مبروك ده خبر حلو قوي، "كرستين" سافرت الكلية، تيجي بالسلامة، طيب إيه ظروف حضرتك النهارده، لا أصلي كنت عاوز أقعد معاك شوية، أصلي حاسس إني مخنوق).

..فقلت له عن نفسي الكثير والكثير، وسألته عن حل..

..العجلة والإسراع والانقذاف، من خصالي الأساسية..

فأنا دائما في تعجل وضد الإقامة ومندفع تجاه الأمر الذي أبغي قضاءه كالطوفان الجارف، وهذا الاندفاع لا يعود إلى أنني شخص يريد الحصول والحيازة بأسرع ما يمكن بل مردود تلك العجلة "المرضية" التي تنتابني وأنا أنجز أمرا ما - أو حتى وأنا عاطل وبغير أي أمر يجب عليّ إنهاؤه - هو الرغبة في الإنهاء، الإنهاء الإيجابي المثمر، الذي سيقودني بدوره إلى الانصراف والمغادرة فأنا إنسان محب للمغادرة والانصراف أكثر بكثير من حبي للمكوث والثبات، حتى وإن بدوت خلاف ذلك للبعض، وفي أحيان كثيرة تكون تلك العجلة لا داعي لها

وغير مبررة، بل كثيرا ما أضبط نفسي متلبسا بالعجلة القصوى وأنا ذاهب للمقهى مثلا أو إلى غرزة الضمراني، وبرغم أنني لا أرتبط بأي مواعيد هناك تجدني أسابق الريح حتى أصل إلى مقهاي، وحين أصل ترمح في فضائي ثائرة، خيول من القلق، وتعكر صفوي دقات السنابك الخفية وتحفزني على الانصراف، وأنا مازلت في نصف كوب الشاي الثقيل الذي أمسكه بيدي، فأنصرف تاركا نصف أو ربع الكوب وحيدا، مما يجعل النادل في شك من أمره فهل الشاي لم يعجبني؟ أم أنني سأعود لأكمل شربه قريبا؟ ولو أكملت الكوب، باستمرار أكون واقفا وجزعي مائل على المائدة وحذائي يتحسس الأسفلت الممدود أمامي كرحلة يجب أن أخوض غمارها الآن وليس في أي وقت آخر، المرحوم صلاح كان يقول لي: "أنت حتموت وأنت ماشي".

ثم أخيرا ومع مرور الأيام، اعتادني النادل واعتاد فعلي، كما اعتادني كثيرون كانوا قد تفهموا تركيبتي النفسية الخاصة القلقة..

..أنا متعجل بالسليقة، حتى وأنا أسير هائما في الطرقات وبلا أي هدف محدد أجدني كذلك، منطلقا في الآفاق وكأنني سألاقي الراحة الأكيدة بعد قليل، تلك الحالة تنتابني حتى وإن كنت جالسا بالبيت وحيدا وبغير أي مشاكل تواجهني، حتى وأنا ثابت أجدني منصرفا عن المكان، ومضطهدا للحظة الاستقرار التي اقتنصتني عنوة، أجدني مبحرا إلى الوراء بسرعة وتعجل وعدم تروٍ، منه لله القلق الإنساني الكبير، حين يأتي من الناس الكبيرة التي هناك في المرتفعات.

..يبدو أن هذا الذي اعتلت به شخصيتي يرجع لكوني شخصا عجولا بالفطرة يهجر دوافع الاستقرار في أعماقه ويرغب في براح بغير أسوار

لدرجة أنني أحيانا امتعض من ظواهر كونية تحمل في صميمها أطرا معينة، مثل معجزة الليل والنهار والحدود التي يسارع كل منهما ليضعها في الكون كعلامة فاصلة، تحدد سيطرة القادم منهما إلى الحياة ليعمل تأثيره معنا أو ضدنا، نحن كائنات نستقبل العلامات الكثيرة وقلة منا هي التي تحاول أن تغيرها أو تشارك في صنعها أو على الأقل تفهمها، قلة!!

..أخطف الخطوات خطفا، أخصم المسافات المباعدة بيني وبين هدفي برعونة، في أحيان كثيرة يكون صراعي من أجل الوصول، صراعا تافها وبلا معنى، وتلك العجلة مجرد خواء، ومع ذلك أغادر عن المكان بحدة تصل لدرجة العنف الذي يربك الآخرين من حولي.

فأنا شخص ما يكاد يمكث حتى تراه أوشك علي الانصراف، هذا حالي الذي دائما ما أرقني أنا شخصيا وأرق الأحباب من حولي، حتى وأنا جالس في البيت وبين يدي نعناع أمي، أجدني أفعل هذا، تصدق!!

..وأمضي في الجهات مغادرا وفي روحي شوق ما تجاه مكوث يجب أن أناله لأرتاح، لكنني حين أرسو في تلك الراحة المبتغاة، سريعا ما تضطرم في جنباني حرائق القلق المهلكة، فتتصاعد من جدراني العالية ألسنة حمراء لا تخمد إلا بقيامي الفجائي والبحث عن منفذ للخروج من المكان الضيق الذي أنا فيه، هذا الخروج المباغت سيسلمني بدوره لحالة الانصراف العاجل، والله دائما يا أستاذ (أنسي) تلبسني هذه الحالة في الليل بالذات.

- ..معلش وجعت دماغك.

(37)

..أشرتُ بأصبعي للنادل فصمت ثلاثتنا إلى حين مجيئه، أتى بأدب وقدم إلينا ورقة الحساب الصغيرة، وهو يعلن عفوه عنا في مسألة الكوب الزجاجي الذي سقط على البلاط وتشظى منذ دقائق، لم يرض بأخذ ثمنه، مما اضطرني إلى الإغداق عليه بمزيد من "البقشيش" حتى أتساوى معه في الكرم الذي عاملنا به، وهو يقوم صامتا ويلتقط كتبه وأوراقه الكثيرة، لاحظت انحناءة ظهره وقد ازدادت عما قبل، في منتصف الطريق ونحن ذاهبون إلى موقف سيارات الأجرة الكائن بمنطقة "الطابية" مال على "مسعود " وسمعته يهمس له بصوت متحشرج، "أنا تعبان يا مسعود وصلني للبيت"، ولم يمهلنا وقتا كافيا لنفهم ما تعتل به صحته، فجأة ارتعش ارتعاشة سريعة وتقيأ بشدة، ثم وقع على الأسفلت الساخن، وتخشب جسمه، واستمر ينتفض انتفاضاته العصبية الغامضة الأسباب، جمعناه سريعا بمساعدة المارة ووضعناه في "تاكسي" ورمحنا به إلى المستشفى، ولما أفاق، ثرثر بكلام كثير غير مهم، لكن الشيء الوحيد الذي كان بارزا في ملامحه بجلاء، هو الغضب الكاسح، وفي تلك الأثناء شتم الممرضة، والطبيب الحكومي المعالج، وشتم نفسه بأفظع المفردات ولعن الدنيا، ثم تراخى ثانية على السرير الأبيض المتسخ ببقع من مرضى سابقين ونام قليلا،

obeikan.com

ولما استيقظ من إغفاءته القصيرة تأملنا ساكنا ثم حدق في مساحة السماء المبسوطة بجوارنا، عبر النافذة العريضة المفتوحة، كان قد عاد إلى صمته، وبعد انتهاء المحاليل ونزعها من يده، طلب منا بوهن وانكسار أن نصطحبه إلى بيته، وأعاد علينا تحذيره أكثر من مرة، "اوعوا تقولوا حاجة لوداد، وداد مش حاملة زعل"، كان يقولها بحرص عاشق يتوه في محبوبه ولا يرضى بأي شيء، يعكر عليه صفوه، وكررها مرات، "يا جماعة مش عاوز وداد تاخد خبر باللي حصل، كفاية اللي هي فيه.."، وبدا عليه قلق جم، كان يحاول إخفاءه عنا وهو يسير متمهلا نحو العمارات الكثيرة العالية، المتراصة فوق تل "المحمودية" الرملي العملاق، كانت نوبة الصرع العنيفة، قد ذهبت، وتركت آثارا من المهانة على بدنه القوي، وكان يئن أحيانا وهو يقل رجله من فوق الطريق، وصار منحني القامة، ومنكسرا بدرجة محزنة، والليل الصيفي الساخن في تلك اللحظة لم يتعاطف معه، بل كان فاضحا، ويعلق في المسافات السماوية البعيدة قمرا ساطعا بفضته النورانية، كان الضوء الليلي كافيا ليكشف ما قبل التفاصيل الدقيقة في الوجه..

- علشان خاطري يا مسعود، أوعى تجيب سيرة لأختك..

..ونحن خارجون من عنبر الاستقبال بالمستشفى، مال مسعود على أذني وهمس بضيق قائلا: "سمعت الكافر ابن الكلب، أنا مش قلت لك قبل كده إنه كافر"، رمقته بغضب وأنا أسند "محسن" لأعاونه على السير، وقلت لمسعود جملة مقتضبة "بس خلاص يا مسعود، مش وقته دلوقت، اللّه؟!!

ثم اعتلاني تهدج عصر ملامحي، بغير إرادة مني، ولما نظر لي مسعود مستفسرا مستغربا، قلت له: "مش عارف يا أخي حصل لي إيه؟ على غفلة كده جه في بالي المرحوم "وصفي"، يمكن علشان جو المستشفى ولا حاجه؟" هنا فقط رمقني "محسن" بنظرة مشفقة ضايقتني، وصمتُ لوقت طويل.

- أصل افتكرت خالي "وصفي" الله يرحمه، فاكره يا مسعود؟!

- مش ده اللي لا مؤاخذه فقد ذكورته في حرب تلاتة وسبعين؟!

- مات من عشر سنين كده!! مات بالسرطان بعيد عنكم.

-- ياه!! الأيام عدت بسرعة غريبة يا جمال، عشر سنين!! يعني مات في1990؟!!

- أيوه، أمال أنت فاكر إيه يا مسعود!

- عشر سنين!!

-- أيوه يا ابني، قبل متسافر اليونان بكام شهر كده.

-- ياه، أيوه صحيح، أنا أخدت تلات سنين في اليونان.

- وبقالك سبع سنين من ساعة ما رجعت يا أبو السعود..

- ووالله يا أخي نفسي أسافر تاني..

- تسافر تاني؟!! ما أنت يا ابني شغال كويس في السايبر بتاعك، تسافر!!

- أيوه.

- سافر!!

..كنا نتكلم ونحن سائرون ببطء في دهليز طويل بالمستشفى، تماسكت وصمتُ، والدهليز سلمنا لآخر مزدحم، نظرتُ إلى الأرض مجددا وأنا سائر، المكان معبأ بمناخ من اليزول والفنيك، كان البلاط متسخا، أسفلنا، وكعوب أقدام الممرضات والأطباء والمرضى، تفجر أثناء سيرها المتعجل دويا عاليا في الممر الطويل الممتد، أخيرا وصلنا إلى بوابة المستشفى وأشرنا إلى تاكسي فوقف.

..كنا متجهين صوب العمارة التي يقطنها "محسن"، ونحن ننزل من السيارة أردت أن أساعده في النزول لكنه سارع وأبعد يدي ببعض الخشونة، تركني وسار بمفرده شاردا محدودب الظهر، وكانت أقدامه تمس الأرض مسا خفيفا، وكأنه لا يريد أن يحس به أحد، أو يراه، والهزال الشديد أمسك بزمام البدن الممشوق، وأصابه بالبطء وترك معالم من الذل على روحه، وكان يقاوم عيوننا المستفسرة، ويقاوم كذلك تلك المسافة المتبقية، بينه، وبين العمارة العالية التي ينبغي أن ندخلها عما قريب، كان مريضا ومن الواجب أن يرتاح، قال بإعياء، "أنا مش حاقدر أروح المدرسة بكرة، باين عليّ مش حاروح الشغل بكرة ولا إيه!!

- أوعوا يا جماعة، أوعوا تقولوا على اللي حصل لوداد..

..وهي تفتح الباب قبضت عليه بنظراتها، وصادته بمهارة من وسطنا، وتفحصته سريعا، لم تبال بنا كثيرا وارتمت في صدره الواسع، واستقبلها "محسن" بين يديه بسعادة أعادت الكثير من نضارته،

أحاطته بذراعها، وأخذته إلى غرفة النوم بصمت، وأجلسته على حافة السرير، كنا في وسط الصالة ونتابع الأمر ببعض الخجل من خلال باب الغرفة المفتوح، لم أكن أعرف أنهما يذوبا في بعضهما هكذا، لكن كانت "وداد" كالحة وناحلة، تقرفصت أمامه، وأخذت قدمه في حجرها باهتمام، وبعد أن فكت الرباط، تشبثت بالحذاء وشدته برفق إلى أن أخرجت القدم من داخله، وقامت بذات الصنيع للقدم الأخرى، وقفت بخفة راقصة باليه، وراحت للنافذة وفتحتها، عادت إليه وأخذته من ظهره، وأراحته على الوسادة، فرشت عليه ملاءة خفيفة، ونظرت إليه بالكامل، ولم تستثني قطعة منه، ولما استراحت لما فعلته، رنت إلى عينيه بإمعان ودقة وتماسك، وبغير أي نوع من الانشغال سمعت صوتها، وهو يخرج على غير عادة البشر، كانت تقول له "سلامتك، سلامتك يا بابا"، هما لا يحسان بنا، الاثنان، كانا قد طردانا من حياتهما بلا أي حرج أو تكلف، كانا سعداء ببعضهما، وجلست متربعة على السجادة المفروشة فوق البلاط، وسندت كوعها على طرف الفراش، وحطت رأسها في راحة يدها، وتابعت بارتياح، الجسد الكبير الممدد أمامها، عند عينيه طالت إقامتها، وكأننا غير موجودين في الصالة القريبة، كانت تجول في أملاك شاسعة تخصها، وتهتم بأن ترعاها جيدا، أنحني برأسه قليلا حتى يصل من أقرب مسافة، إلى نافذتي السلام اللتين انفتحتا بقربه، نظر إلي عينيها وهو يفرش فوق وجهه معنى بعيدا للطمأنينة، بيدها الأخرى أمسكت يده، كان "محسن" يعطيها ابتسامة، غير مألوفة، كان بسيطا وطيبا كطفل، انسحب منه هذا الشخص الغضوب، الذي تجسد لنا وانتقدنا وأخافنا وأقلقنا ونحن

في الحانة، كنت أوشك أن أرى معهما في الغرفة، كائنا ثالثا، كائن يلهو بينهما بخفة ومرح يصل إلى حدود الغبطة، كائن جميل من النور الخالص، سحبت مسعود من يده وأنا أحثه على الانصراف، خرجت إلى الدنيا سعيدا، وأنا أقفل الباب، جاء صوتها الهامس من ورائي، سمعتها تدلل زوجها، "سلامتك يا سنسن يا بيبي"، كانت المدينة باركة في دعة أسفلنا، والضوء يرتعش من حولها متألقا، وموسيقى "نوبية" وغناء يأتيان من مكان ما بعيد، هذا الصيف الفظ، أخيرا، تراخى في قراراته الصارمة ضدنا، نسائم طرية أتت من مكان لا أعرفه ومست خفيفا على حرائق الجوف، الفرح الغامر قد جاء وأحاط بي فجأة، ولما أشار مسعود لسيارة "الكبوت" ووقفت، أسرعت وانطلقت مرة أخرى دوننا، كنت أود أن أمشي كثيرا، كنت أتمنى أن أستبقى هذا الفرح إلى أن أصل للحكروب، إلى أن أصل إلى نهاية ما ترضيني، حين مررنا في طريقنا علي محجر الجرانيت الذي مات فيه صلاح، لم أحزن كالعادة، فقط نظرت من خلال سوره الشائك وأنا أسأل نفسي، من أي مكان في المحجر المترامي الأطراف، استطاع "صلاح" أن يصعد؟ ولم أحزن، كنت في تصالح مع الجميع في ذلك الوقت، وغبطة حلوة تملأني وتفيض، بدون سبب محدد، قلت لمسعود "الحياة حلوة يا أخي".

– حلوة قوي.

obeikan.com

(38)

..هـذا ما حـدث بـدون لف أو دوران، بعد أن خرجنا من مستشفى "مبارك" الضخم، الكائن بطريق "الكارور".

--..كهكه كهكه، هها.

..توقف بجانب شجرة قريبة واستند بكفه على الساق الغليظ، ومال بجزعه قليلا إلى الأمام، وفتح في سكينة المساء ثغرة تكفي لتمرير حزنه الكبير إلى العالم حولنا، كنت أنظر في كل اتجاه، وكأني أدافع عن صديقي من مداهمة فجائية تمنعه من فعله هذا، وكنت في ذات الوقت أشعر بفضيحة شخصية من جراء بكائه، كان "محسن" يتنظف من داخله، كان يستحم في وضح الطريق العام ولم يخش الناس أو الرياح أو المطر، ضحك بقسوة، وهستيرية منذ دقائق مرت، ثم ها هو يفعل بكاءه المر أمامي، ويتخلى فجأة عن كبريائه الواصل لحد الغرور في أحيان كثيرة، لأول مرة في عمر صداقتنا الطويلة المتواترة، أحس أنه يتعرى أمامي، بدون تحفظات، أو عقد دفينة في أعماقه، أراني ضحكه وبكاءه في يوم واحد، لا، لا بل في عشر دقائق أطلعني،على ضعفه الإنساني الجميل، وتخلى عن بلادة كنت دوما لا أحتملها منه،

وتقيم بيننا جدران باردة.

..وكنت في الحالتين لا أعرف أي مبرر، يدفعه لما يفعل، هل يبكي من أجله، أم من أجل زوجته "وداد" الراقدة الآن بالمستشفى.

..عندما ذهبنا عشية اليوم، أنا وأمي و"صبحية" و"مقبل" لزيارة زوجته، كان "محسن" أول من طمأننا على صحة زوجته، وكان مفكوك الأسارير، ويكاد يبتسم، وهذا نادرا ما يحدث منه، إذن أمر زوجته ليس بخطير لدرجة البكاء المرير هذا!! أيضا قال لأمي وهي تتنحى به جانبا لتسأله، إن كان الأمر خطيرا أم لا، فسمعته يطمئنها ويقول لها أن صحة "وداد" مستقرة ولا داعي للقلق، ودعاها للانصراف سريعا، حتى لا تعطل مصالحها، وقال إنه هو نفسه، سوف ينصرف بعد قليل، وستبقى أم مسعود فقط مع "وداد"، بعد قليل اختلسني خلسة من وسط اللمة، شدني من يدي وقال، متحاشيا أن يراني مسعود بالذات، "تعال أنا عاوزك"، ومضيت معه، وتركت أمي بالعنبر مع المريضة، وأمها وأخيها.

..وأكملنا، أنا ومحسن خروجنا من المستشفى العسكري الضخم، وواجهنا معا الجبانة الفاطمية العريقة، الباركة أمامنا في المتسع، بعد هذا حصل ما حصل، ضحك "محسن" وقهقه بجنون، ثم انفجر في شهيق وبكاء يلين له الحجر... وأخيرا تكلم وقال الجملة هادئة وواضحة، وتحمل ما لا يستطاع من احتجاج..

- وداد بتموت، بتموت يا جمال..

..وبعد أيام قليلة ماتت وداد..

(39)

الاثنان تكاتفا على كتمان مرضها العضال عن الجميع، لكننا عرفنا سبب الوفاة بالتفصيل بعد أن ماتت وداد، عرفناها من "محسن" ذاته، في أيام العزاء الثلاثة، جعل "محسن" من الصوان قاعة كبيرة للاستماع، وجعل من نفسه مداحا أو قاصا شعبيا، يغني على ربابته قصة الموت التي كانت، وحتى إن عرفنا الداء، ماذا كنا سنفعل نحن البشر البسطاء!! لا شيء، وكيف نمنع ظلم القدر، وكيف نوقف المكتوب!

..في الجنازة أنهار مسعود أكثر من مرة، وأفقناه بصعوبة، كان يفيق ليعود إلى إغماءة جديدة وعدم تصديق، وكان "محسن" في منتهى الثبات، ويتلقى العزاء في زوجته بتماسك شكيمة لا يتماشى مع الحب الذي كان يربط بينهما، وكنت أنظر إليه مستريبا، وأؤجل حكمي عليه، كان أمامي خياران لا ثالث لهما، فهو، يا إما كان ينافق وداد في مشاعره طوال التسع سنوات التي قضاها معها، يا إما هو مذبوح من الداخل ولا يشعر أحدا بما يعتمل في أعماقه ويكاد يهلكه، وكانت الحالتان لهما تداعيات وخيمة على شخص "محسن"، فالحالة الأولى سوف تمزق علاقاته مع جميعنا إن تأكدنا من صحتها، أما الحالة الثانية فقد تطيح به وتوصله إلى خاتمة محتملة ومتوقعة، وكنت أراقبه متقصيا وأنتظر

بملل، ولأعرف على أي من الخيارين سيقع؟!

..وبدأ "محسن" - دون تعمد - يرد على جميع تساؤلاتي، ونحن في صوان العزاء، وكان بليغا في رده وفي حسن اختياره..

..أصيبت بفيروس (C) منذ أعوام، وفي البداية عاش المرض بينهما بسلام، وبعد مدة طويلة بدأ يتحرك ليفتك بكبدها في سكون وثقة متجاوزا كل العقاقير، محبطا لكل المحاولات الطبية الراجية إنقاذها، ولم يفشيا المرض لأحد قط، حتى أمها كانت لا تعرف حقيقة مشاويرهما إلى الأطباء والمعالجين، وكانا يتحججان بالإنجاب، أي أنهما يذهبان إلى المستشفيات والعيادات لا لشيء، إلا لعلاج الإجهاض المتكرر الذي كان يصيب "وداد" بعد حملها بشهور قليلة، مسعود أيضا لم يعرف بأن "وداد" في طريقها للموت المؤكد، وأن السفريات الأخيرة إلى "أسيوط" و"القاهرة" كانت بمثابة محاولة مستميتة منهما للبقاء والبحث عن حلول لتلك الحياة التي بدأت تذبل وتذوي، وكانت رهاناتهما تقع على المستشفيات الفخيمة والعيادات الغالية المسلحة بأحدث الأساليب الحديثة لعلاج مثل هذا المرض الفتاك، ظل الفيروس كامنا لعدة أعوام، وبلا أعراض مؤذية للكبد، ومنذ أربعة أعوام، بدأ الموت يتجشأ داخل أحشائها، استفاق الفيروس من غفوته، وتخلى عن معاهدة السلام مع "وداد" وراح ينجز عمله بهمة، وفي النهاية أكمل قرار الفتك المبين، ولم يكن يعرف أحد، حتى أشد المقربين إليهما، أن القيء الدموي الدافق في أيامها الأخيرة، كان "محسن" يمسحه بنفسه في سرية، وكان يغسل الملاءات والملابس التي اتسخت بالدماء، بنفسه أيضا، إلى الآن لم نعرف معنى محدد

لهذه السرية التي اقترفاها معا، وهم يجابهان المرض..

..ويبدو أنها عاشت كل الفترة الماضية، وهي تقاسمه شفاءه..

..ومحسن عاش معها وهو يقاسمها المرض الفاتك..

..لهذا أعتقد أن وداد لم تمت البارحة، بل مات جزء مهم من جسد وروح محسن، تقريبا لم تمت وداد تمام الموت، وإنما يعيش جزء كبير منها فوق الأرض وهو معذب.

..لكن محسن لم يترجم كل هذا الكلام في جنازة محبوبته الكبيرة التي ماتت، رغم كل هذا المديح، لم يبك، لم يغم عليه، لم يتمرغ في التراب مثل أمها مثلا، لم يفعل أي شيء من تلك الأمور، فقط كان يحكي، يقص علي جمع المعزيين كيف جاء المرض، وكيف ماتت وداد، فقط هذا الذي كان يفعله طيلة فترة الجنازة، هذا فقط..

..لم يقدم مدلولا وافيا عن عشقه وحزنه القاسم المعذب.. أنا بطبعي شكاك يا جماعة..

..ومع هذا، بدأ يكشف في الجنازة كيف ماتت، وكيف عاشت، ومتى قهرها المرض وكيف شاركها محنة الموت البطيء، وكيف كانت وداد تبكي لا من أجل المرض المميت وألمه ومهانته، بل من أجل أنها سوف تغادر محسن نهائيا، كانت تبكي بحزن لأنها ستتركه بمفرده، وكانت تسأله كيف ستعيش بمفردك يا حبيبي ونور عيني، هكذا أخبرنا في الجنازة، وكان يحكي هادئا وباردا كواحد لا يحس..

..وفي مرة من مرات إجهاضها المتكرر، أصيبت بنزيف حاد، نقلوا

إليها الدم لتحيى، كان الدم وسخا، كان الدم قذرا، ويعيش فيه كائن خرافي اسمه "فيروس C"..

..هكذا قال محسن ونحن في واجب عزاء زوجته وداد..

..قضيت في صوان العزاء ثلاثة أيام بلياليهم، وكنت كل يوم أسمع جديدا في قصة الموت السرية، كان محسن يقص علينا حكايته بدون أن يسأله أحد، يعقد ذراعيه على صدره ويفرد ساقيه قدامه بدعة، وكأنه يستريح من حمل ثقيل، ثم يسترسل لساعات وهو جالس علي إحدى الدكك المتراصة بجانب بعضها، وبتأن يحكي القصة البطيئة التي استغرقت ثماني سنوات، تقريبا هي عمر علاقتهما ببعضهما إلا قليلا، وكان يبدد الغموض الماضي للمرض، ويكشف تفاصيل حساسة جمعته بـ"وداد" وهي تقاوم المرض به ومعه، ينخرط في لوثة الكلام وأحيانا لا ينتبه لرتل من المعزيين، وقد جاءوا أو ذهبوا، ولا يلحظ في فترات أخرى انفضاض كل الجمع من حوله، ويظل يحكي وهو ينظر إلى فوق قليلا وعلى وجهه شبح بسمة لا أعرف هدفها أو لماذا جاءت، ويسرد ويسرد، بنفس جودة الكتمان السابق، أجاد كذلك في الإفصاح وتعرية دقائق المرض، بكل تفاصيله، وأنواع عقاقيره الواجب تعاطيها في كل فترة من عمر المرض، والاسم العلمي لكل دواء، ودورته الأكلينيكية في جسم المريض وأثاره الجانبية على بقية الأعضاء، وكيف يحدث النزف الدموي، وكيف يحدث الموت الحتمي للكبد..

..قلت بيني وبين نفسي..

..ماتت وداد يا أولاد، ماتت بعدما وجدت "محسن" وفرحت به وعاشا

كعاشقين لا يشق لهما غبار، ومتى تكتمل الحياة في شيء!! ومتى تبطل ممازحتها السمجة معنا، ماتت لتكمل لهذا الـ"محسن" مأساته القديمة، التي كاد أن ينساها بفضل وداد، في القديم واجه محسن موت عائلة كبيرة، في لحظة داهمة فقد أسرته الكبيرة بسبب زلزال القاهرة سنة 1992 ميلادية، كنت انظر إلى محسن وهو يحكي في الجنازة، وأتخيله دراما كبيرة، مسلسلا تليفزيونيا طويلا من عدة أجزاء مملة، لا يصدق أحداثه أحد، ماتت أسرته الكبيرة بفضل غضب كوني لا يوقفه أحد، أيضا ماتت "وداد".

قلت في نفسي، لا، لا.

..لم تمت "وداد" بحيلة كونية مدبرة من القدر، لا، لا.

..وداد ماتت بفيروس (C).

..انتهت حياتها فوق الأرض، بفيروس معدي قتلوها، بدم وسخ قضموا زهرة شبابها ونكلوا بروحها، أرادوا أن ينقذوها فقتلوها، وداد لم تمت ليلة البارحة، وداد قتلوها منذ ستة سنين، أرسلوا إليها رسول الموت في قطرات قليلة من الدم، وماتت، وها هو سيموت تقريبا، يهزي مرتاحا ويقترب وئيدا من حبيبته التي سافرت، هو الاستسهال القاتل، والإهمال السفاح الذي يقص رقاب العباد، وكان "محسن" ثابتا كالطود ويحكي.

obeikan.com

(40)

..أنا أحتاج لنصر ما، يعوزني فرح غير محدد وغير مشروط، واليوم مكثت أمام هذا الحصين بذاته النظيفة الرقراقة، وقتا طويلا، ولم أستطع القيام حتى لقضاء حاجات بيولوجية ملحة، هو رجل عارف وفاهم، وله بنت حلوة اسمها بسمة، نعم، نعم، أنا عارف ذلك، وأحيانا هذه البنت الرقيقة الجديدة، تحاول إنهاء مرحلة البنت "هالة" بداخلي، أي نعم، وأنا اتقرفص في نفسي، وأرفص برجلي مقاوما هذا الإحلال والتجديد، هذا يحدث فعلا، لكن كل هذا لا يعطي مبررا لمحوي أن يكتمل، مازالت المحاولات قابعة في جوفي كجمل ذليل أرهقته السفرات نحو جهل الصحراء غير المنتهية، صحراء قاحلة لم يجن الواحد من ترحاله نحو بعيدها إلا المزيد من القهر والعطش والأسئلة، وكلما رحلت لأرمي بأحمالي في هذا الوسع الرباني، عدت من صحرائي وقد أضيف إلى تلك الأحمال، حمل جديد وحلم كبير بالانعتاق..

أنا إذن أمام شخص محب، حكيم وحليم، هو جداريه عملاقة منحوتة على حائط عريق ممتد إلى صميم الزمن، جدارية تحمل بين تفاصيلها الكثيرة، تراثنا الشعبي الحكيم، وتاريخا قديما من عصر المومياوات

obeikan.com

وحجر رشيد، وفترات مظلمة من السخرة والاستعباد والذل والخنوع والثورة والتمرد والصعود والهبوط والنجاح والفشل والقهر والألم والحزن والفرح المؤقت، فيها الأيوبيون، الفاطميون، المماليك، العثمانون، الفرنسيس، الإنجليز، الضباط الأحرار، المدنية، الثورة، الانفتاح، عهد مشرق من التنوير، التطبيع..

..جدارية فيها ملامح باقية من شرفاء نهضوا في يوم بعيد حاملين أركان البهاء في هذه الدنيا الواسعة..

..جدارية بعمق ونبوغ مجموعة من الأفذاذ الكبار، أحمس ومينا، صلاح الدين الأيوبي وقطز، عرابي وسعد زغلول، الشيخ محمد عبده ومصطفي عبد الرازق، طه حسين، والعقاد، وسلامة موسى، وزكي نجيب محمود، جمال حمدان، فرح أنطون، نجيب محفوظ، يوسف إدريس، محمود مختار، ومحمود سعيد، جمال عبد الناصر، وعبد الهادي الجزار، نصر حامد أبو زيد، سيد درويش، نجيب الريحاني، إسماعيل يسن، صالح سليم، رفعت الفناجيلي، عبد الوهاب وحليم وأم كلثوم وصلاح أبو سيف ويوسف شاهين، وغيرهم، وغيرهم، وغيرهم.

..كنت أرى وأسمع وألمس وأشم،كل هؤلاء، وأنا جالس بقرب الأستاذ "أنسي"، ويأخذني الحنين إليهم.

..فيا شخص يا مبجل يا طيب، أنت الآن تقابل أشياء كثيرة أثناء إنفاق يومك، غالبا تلك الأشياء ما تحرضك على الانصراف وليس المكوث لأجلها، قليلة هي الأمور التي تدفعك على الخروج من عزلتك لأجلها، كذلك كثيرة هي الادعاءات والشعارات والمجلات والجرائد الملفقة

للحقائق والأجيرة، كثيرة هي الأشياء المكررة والرتيبة والمنضبطة لدرجة انطفاء حرارة الإبداع، وصارت قليلة في حياتنا تلك الأشياء المزدحمة بالدهشة والدقة والنظام، والارتقاء والخلق..

..وكثيرون هم الأشخاص الذين يشبهون مرتضى زوج أختي، فهم يجيدون كيفية إبعادك وانصرافك الحتمي عنهم وعن العالم بذات نفسه، وأنت يا مهذب، تحمل تأففك وضيقك الكبيرين، وإدانتك وترحل، يا حبيبي، من ساعد على نمو وتشعب هؤلاء ووصولهم ليكونوا في نهاية الأمر ماكثين هناك في مواقعهم، وأنت منزوٍ كطير جريح؟!! من؟ أظن يا ولد يا طيب هي المغادرة، الانزواء في أركان نفسك يعني المغادرة، فسفرك أنت وأمثالك منح لهؤلاء أن يمكثوا كل هذا الوقت، ويسمموا الأجواء بروائحهم الكريهة، كيف يا رجل يا طيب تترك صلاح والخال وصفي ومسعود وأخيرا "محسن" وغيرهم، كيف تسمح لمثل هؤلاء أن يسافروا لتصبح المغادرة لأمثالك وطنا ويقينا وإقامة دائمة في الثبات، الخلاص الأخير في التواصل والمشاركة، النجاة الوحيدة الباقية لكم إن شئتم، هي مجابهة الخوف الذي حين تمكن منكم، كسب هؤلاء مساحات أكبر في عمر الزمن، فهمت يا روح أمك..

..الهروب هو قرارك المجيد..

..الاختباء، هذا هو حلك السهل، هذا هو فرارك الوحيد، هذا هو اتجاهك، أليس كذلك؟!!

..تلم بعضك وتحدد لنفسك المغادرة السهلة، وتتنازل عن الالتحام والمجابهة، صدقني هذا هو البله!!

..هكذا خاطبنا "أنسي جريس" بعد أن ماتت "وداد"، كان يوجه كلامه لي ولمسعود، الذي أحضرته إلى هنا لأطلعه على اكتشافي، فعندما وجدته كئيبا حزينا، قلت لا مناص من الأستاذ "إنسي" هو الذي يقدر أن يعيد لمسعود اتزانه ورباطة جأشه، لكن مسعود غافلني ورد لي الهدية وهو يسخر منها ومني، ألقاها في وجهي بفتور مريض، غافلني وبخس من قيمة مكافأتي التي له أعطيت..

..ونحن خارجون من بوابة العمارة التي يقطنها "الأستاذ" كلمني مسعود بغضب يحاول كتمه، وأخرجني من انتشاء تخللني.." إيه ده، جايبني لراجل نجس، ده ابن كلب زي محسن راتب..

obeikan.com

(41)

..(آآآه، بأمانة شديدة أنا تعبت، الموضوع كبير ولا يريد أن ينتهي)..

..المهم..

..نرجع للأخ مرتضى المحترم..

..وعادت تهاني إلى بيتنا من جديد، وفي شفتها السفلى قطع نافذ وفي أنفها ورم حميد..

..وحين يختمر الغضب في صدر الواحد لا يجد مناصا من البسالة، إلا أمي وأخواتي البنات أيها الناس، كثيرا ما قلتها، وسأظل أرددها بغير تعب، هن صمام الأمان، ليتكم لا تعبثون فيه، حتى لا أتفجر في لحمكم، أنا جندي هارب، لكنه مستعد لأن يعود للتقاتل، إن تجرأت عليهن الأمور الجارية، ومستهن بغصة مرة، عندها كل شيء يكون مبررا ومباحا، أني أعرفهن، هن غلابة وخاضعات للمقدر، ومؤمنات مثل كثيرات مثلهن، بحظوظهن ومكاسبهن الشحيحة، التي منحها لهن واقع الذكور الذي نحياه، ها هنا..

رابعا: ترخص قيمة حياتي، وحب البقاء يتأخر حدوثه في مخي، ويرجع إلى الوراء كثيرا، ويبقى السعي نحو تحقيق الخدش الذي

obeikan.com

سوف أخدشه في وجه الدنيا، بمثابة الحياة ذاتها بطولها، واتساعها، وأرضها وزرعها، وبلادها، وناسها، وكل شيء يدخل إلى النسيان، أهدافي السابقة، أحلامي، تطلعاتي، أملي في الخلاص، كله يمضغه نسيان لا يرحم، لتبقى ذاكرة عريضة فارغة يلفها ازرقاق داكن، يتجه بها نحو سواد تام، تثقبه نقط دقيقة من النور، هكذا أرى وأحس برأسي في مثل هذه المواقف، صدقوني..

- دب، دب، دببب.

- إيه مفيش حد هنا ولا إيه؟!!

- وفضلت أنده له، وينك رايح يا شادي؟!

...للمرة "العشرتاشر"، يجب الذهاب إلى بنطلوني، بالضبط إلى الجيب الخلفي، هناك تقبع غايتي، والسر الذي أخفيته عن أمي منذ شهور، فكما استطعت أن اقتني "هاتفا نقالا" اقتنيت أيضا سلاحا رخيصا، لكنه يقدر أن يمرر الفناء إلى من أريد، ويمكنه أن يحميني إن طلبت معونته، ويقدر أيضا أن يوتر حال من أشهره في وجهه، الخوف بسيط، بسيط مثل الفرح، الاثنان ثمنهما بخس، أقل الأشياء حين تحضر وتتحقق تضفي الفرح علي الشخص، والخوف أتفه من أن نعني أنفسنا بالاهتمام به، هو أتفه من أن يشترى أو يباع، إنه "ببلاش" وعلى قارعة الطريق، أقل عقرب من منتجات جبل "الحكروب" تسبب الخوف، وتعلن الخطر لمن تقابله في سكتها..

..والموت مثل الحياة بالضبط، سهل، والاثنان يتحققان بين الناس بلين وهوادة وعفوية، الأصعب هو الاحتضار، أن تكون بين الحياة

والموت، أن تكون رماديا هو العسر نفسه.

..الاحتضار هو أن تختلط الحياة بالموت داخلنا، وأن نكون في ريبة من أمرنا فلا نتحقق من حياتنا تمام التحقيق، ونفس الأمر بالنسبة للموت، الاحتضار نوع من اللبس..

..منذ فترة عرفت أنه ينبغي أن نقلم أظافر الدنيا حين تهم بالاعتداء علينا أو حينما يتعكر مزاجها فتمد غضبها لتنخر سطح الرقة في النفس..

..لما طلعت "تهاني" من الغرفة الثانية باكية، وأسرعت إليّ هاجمة، وهي تحمل الصغيرة "مرثا" كنت أبحث سريعا في هدومي المعلقة في مسمار مدقوق في باب غرفتي من الخلف، ووصلت أخيرا "لقرن الغزال"، قرن الغزال يا متحني بدم الغزال، تيرللا تتي"..

..الموت المخيف عبارة عن ثقب، مجرد ثقب دقيق الحجم، قاعد في جيب بنطلوني الخلفي في دعة، وينتظر من يستعمله، بضعة جنيهات قليلة تقدر أن تطيح بطغيان يحتلنا أو تخفي في عميق النسيان بهجة كانت تأتينا خلسة، ما أرخص الثقوب حين ننوي استعمالها، وما أهون أن نكون عنيفين وغلاظا، خسارة، ويا ألف خسارة..

..وما أسهل أن نفتح خروما نافذة في حياة بعضنا البعض، لتسيل منا دعائم الاستمرار والمواصلة، نحن نحرق بعضنا بعضا يا جماعة، ونصنع خروما في أوعيتنا الدموية لتتسرب من جوفنا الروح ببساطة، من يبتدئ بالاعتداء على سكينة الآخر؟ الحياة تتعلل بأقل الأعذار لكي تبزغ بفرع جديد، وتمده إلى غير حدود، هي توشك أن تأتينا بلا سبب

وجيه، هي دورها أن تنبثق في أراضينا البور، هي دورها أن تكون بغير عذر مقنع، وأن تتماثل للتحقيق بغير علل قوية، وكل ما علينا هو أن نحترمها، نحترمها وندافع عنها، وأنا الآن في دفاع شرعي عن نفسي وعن أحبابي، ومن يجرؤ أن يوقفني، أو يسعل في وجهي؟

هي أمي..

تلك المرأة القوية المحبة لي، تعرف كيف تدوس فراملي حينما أطلع إلى أمر ما على الرابع، هذه المرأة الضعيفة التي تحيى في أرذل أيامها، تعرف كيف تضغط على مفاتيحي الخفية حتى تبطل شيطاني عن العمل..

..والموت كذلك، يأتينا بمودة ورحمة، ليحذف بمشرطه الناصع الحد، غير الفاعل منا، هو مثل جراح ماهر وموهوب، الموت بحجم الوجود نفسه، وتراه يقوم باستئصال الجزء الورمي الخبيث، حتى يتيح الحياة للأكثرية، إنه الموت الإبداعي الجميل، هو يعمل بوفاء شديد من أجل الحياة..

..الموت الخلاق، أراه يتبادل حوارا طبيعيا هادفا مع الحياة حتى يخلقان معا تفاعلا ديناميكيا من أجل استمرارنا، وليس العكس، الموت الكريم والحياة الشجاعة، هما محض نقاش إبداعي مهم، وجدل ثري وأساسي للحياة والناس.

..أما الموت الفاجعة، الاحتضاري الملتبس الرمادي البغيض، نصنعه نحن بأيدينا القذرة، هذا موتنا الذي نسوّقه في الأماكن ونروّجه فوق شعاب الأرض، هذا الموت الجبان القاسي من صناعتنا نحنmade

(in humanity)، هذه صناعتنا الرائجة عبر الزمن..

..تراني، أي موت سوف أحققه الآن؟

– لا يا جمال، ده راجلي برضه، ورحمة خالك وصفي، ورحمة صلاح أخوك وحبيبك..

– وفي يوم من الأيام ولعت الدّني، وصار الأقتال في أربع أتلال..

..كيف يا ناس، أخضع لحالة الرجاء، والبكاء والهلع، التي سيطرت على كل نساء البيت؟ كيف اترك غريمي بسهولة هكذا، بحثت عنه كثيرا في الفترة الماضية، وها هو يقدم ناحيتي، كان يتخبأ مني كالجرذ؟ وبأي حجة أترك عزيمتي بعد أن طابت واستوت وراحت نحو الفعل الآتي؟ وأنا حقيقة أتعب كثيرا حتى أخلق شيئا ما في دماغي..

..أنا أعاني كثيرا حتى أكتب فوق حيطان هذا العالم شيئا ما، يعني أترك حقي في صنع خرم نافذ في شخص ما، دام يغيظني ويقهرني ويعذب أحبائي، هكذا بكل سهولة!

وتسمحون لي فقط بعمل خروم متوالية في حزام بنطلوني لتغتالني شيئا فشيئا نحافة مرضية مفرطة..

..لا تخشون شيئا، أنا سوف أخرمه فقط، سوف أمنحه ثقبا يقلل من حرجه أمام الله حين يقف في اليوم العظيم.

– إنتو برضه مش فاهمني، أنا مش حاعمل حاجة يا جماعة، إيه ده!!

..ودواء العظم والمفاصل يساعد في أن تواصل نحافتي فتوحاتها في لحمي، وتغصبني على فتح ثقب جديد في حزامي الجلدي المطيع،

الدواء المبارك يسد نفسي تقريبا عن الأكل فأنحف وأعاقب الحزام بخرم نافذ جديد، تقريبا هو الدواء، ربما هو الدواء وبعض أشياء أخرى، غير متأكد بالضبط.. لكنني متأكد من حاجة، هي إيه؟!! أقول لكم..

..والله الجسم ضحية للروح، فهو سطح رقيق يتأثر بما يطبخ في الخارج، وما يدور في رؤوسنا، هو ضحية حية للروح المرهفة، صدقوني، الجسد غلبان، غلبان جدا، ويساق إلى الاعتلال بهوادة، كتعبير عن رفض الروح وانكسارها وإصابتها بالعلل الخبيئة، ملعونة هي الروح التي تنشر عذاباتها فوق صحيفة الجسد، وطوبى للحلم الطري الذي يقاتل من أجل ألا يستحيل إلى صخر، ويحاول جاهدا إنجاح الروح في مسيرتها العظيمة نحو التوق إلى التحرر.. ما هذا الظلم يا رب؟ وكأنني أذوب ببطء، وأتلاشى بمهل، هل تقبلين يا "بسمة" واحدا نحيفا ومعتل البدن ومقطوع الأصابع، وتعبان بالروح، وهو الآن مستعد أن يقترف ثقبا؟ إن كنت بإعاقة وحيدة، فتعالِ وخذي من عندي الكثير، نصف ما أحمله، قد أكون صنعته بنفسي، أَما البقية الباقية من عللي، فهي منتوج واقع لا يحب الضعفاء، بقية هزائمي قادمة من خارج لا يعطي المسرة لمن يحتاجها، ذلك يكون البخل والنذالة المقصودة..

..وصوت بكائهم اتحد مع صوت الأغنية المنبعثة بحنان مؤسي من جهاز التسجيل، صوت فيروز الرحيم لفني ببشائر هزيمة موشكة، وتحت تأثير طلباتهم المنزعجة المذعورة، طن في أذني سلام معتاد وجنح بي نحو هدنة قادمة وخضوع،

..صار "مرتضى" يوجعني بأذاه الدائم لشقيقتي الكبرى "تهاني"

ويذبح رجولتي بدقه المتبجح على بابنا القديم كلما أتى لاسترجاع أختي وأولادها، وكنت أطالب بحقي في الثأر للاثنين معا، أختي وبابنا المتهالك، وصار الجميع يؤخرونني عن الوصول للحظة التحقيق، لما عرف "مسعود" بتلك الأحداث المتكررة بيننا وبين "مرتضى" وعلم بنواياي تجاه زوج أختي، حذرني من مغبة مقاصدي التي أحملها تجاه "مرتضى" وحذرني أيضا من نجوميته المالية الآخذة في السطوع، وقال إن واحدا مثل "مرتضى"، كما يملك "فلوس" كثيرة، يملك أيضا نفوذا، هذا هو حالنا، ودعاني مرارا للتروي والمجادلة معه بالتي هي أحسن..

-..وبعدين دي أيام اللي زي جوز أختك..

- .. ؟؟!!!

..وإنت فاهم ده كويس يا جمال؟

كيف أجعلهم يفهمون أنني جاد في نواياي تجاه مرتضى؟ كيف يصدقون أنني أحب أن أصنع كارثة لنفسي بحجم واحد مثل "مرتضى"؟ وأنني جاد في إيماني بالشر هذه المرة، مثلما آمنت به سابقا، ولكنني لم أسع لتنفيذه.

obeikan.com

(42)

- ..بتقول إيه؟!! تعبان! لا ألف سلامة عليك، من أمتى؟!!

- ليا بتاع عشر تيام كده وأنا مش مظبوط ..

- كشفت!!

- مرتين، مرة عند الدكتور عادل عياد، ومرة عند الدكتور عمر عبد العزيز..

- ، ياه، ده أنت باين عليك تعبان قوي يا جمال، طيب أنا حاجيلك..

- لا، لا مافيش داعي تتعب نفسك، أنا بقيت كويس دلوقت..

- أنت ساكن فين في الحكروب بالظبط..

- مفيش داعي تتعب نفسك يا أستاذ أنسي..

..في رقدتي القصيرة، جاءتني عدة مكالمات على الموبايل ولم أرد، كنت "أكنسلها" بلا مبالاة، كنت أعاني من آلام مبرحة في العنق والركبة اليمنى والكتف بالذراع الأيسر، ولا أقوى على الحركة، وقال لي الطبيب الذي زرته بصحبة "مقبل" خطيب "صبحية" الجديد، "إياك والإجهاد، استلق أطول فترة ممكنة على ظهرك، وأمشي على العلاج ده لمدة أسبوع وأرجع لي تاني"، التهاب الأعصاب، وروماتزم المفاصل

obeikan.com

اشتدا في الفترة الماضية، فسقطت منهكا بالألم، وكان تأثير حقن "الفولتارين" والمراهم "واللزقات" يتراجع أمام فجور الألم، وكنت على فترات، أغالب أوجاعي بأن أتسلى بأشيائي البالية التي أحتفظ بها بدون سبب واضح، كنت أحضر أكياسي "النايلون" المعبأة بأشيائي القديمة، وأفتش فيها عن شيء لا أعرف ما هو علي وجه الدقة، أفرغ الكيس تلو الكيس وأبحث بهمة وأتوقف أحيانا أمام بعض المقتنيات..

..أتسلى في حين مواقع الآلام في جسمي تتبادلني فيما بينها، فإن خفت صليل الرقبة قليلا ، يتألق ألم الكتف غير المحتمل، وإن هدأ هذا وذاك، سارعت وصهللت الركبة وضربتني بضراوة، في اعتقادي أن أغلظ أنواع العقاب المرضي، تأتي من العظام والأعصاب والأربطة، أقول هذا عن تجربه، فمن تلك الأعضاء تأتي حدود الآلام القصوى، لينطلق الإحساس إلى مناطق مجهولة من الألم، حدود بعيدة غير متوقعة، تفاجئ الشعور بفاجعة كبرى، ويبقى للشخص في هذه الحالة مدركاته العقلية فقط ليرد على هذا الاجتياح العارم من الألم الشرس السارح بغير إنهاء في عمق إحتمال الشخص، هناك نقطة منسية في العقل، إن استطعنا استفزازها، تتحرك للدفاع عنا لتفرز مخدراتها وشفاءها علي الأماكن المصابة، وكنت دائما أنسى تلك البقعة الدفاعية الغامضة، مما يترتب عليه أن يستفرد الوجع العظيم بأعضائي، وقليلا ما كنت أتذكرها وأحفزها، لينهض تأثيرها السري في كياني، وتخدرني قليلا قليلا حتى استريح، بل ربما أشفى بدون علاج، كثيرا ما أسقطني جسمي تحت ضرباته لأيام تقصر أو تطول تبعا لجهازي النفسي، حينما أكون مستكينا مرتخيا أمام سطوة المرض، هنا يهزمني ويجهز

على صراعي ومقاومتي، ويقيم في روحي حتى يشبع، ليتركني في نهاية الأمر كومة رماد بالكاد تتنفس، وحينما تملأني الحياة بأنفاسها الحلوة أجدني أدخل معه في مبارزة وأخرج منتصرا، البارحة والجميع نيام، كنت أصرخ بصوت مكتوم، من شدة آلام الركبة وفقرات العنق..

..اليوم، وحينما رأيت اسم الأستاذ أنسي يبزغ مضيئا علي شاشة الهاتف الصغيرة، اعتدلت متغلبا على إعاقاتي البدنية وأمسكت الهاتف باهتمام وفتحت له الخط، وكلمني وكلمته..

..هذا الرجل مضبوط وصادق، لم تمض ساعة، حتى سمعت طرقا مهذبا علي باب البيت، فتوقعت أنه هو، فتح له "مقبل" وقبل أن تمارس أمي مخاوفها ضده، بادر وعرفها بنفسه..

- أهلًا يا بيه، أي خدمة؟!!

- أنسي جريس عبد الملاك، جاركم، وصديق الأستاذ جمال..

- أهلًا، خطوة عزيزة يا أستاذ أنسي، شرفتنا واللّه..

في تلك الأثناء، تحاملت على ساقي المريضة ووصلت إلى الصالة وتقدمت إليه مرحبا، كان أنيقا كالمعتاد، حتى وهو يزور أحد جيرانه القريبين لم يتنازل عن البذلة الكاملة والكرافت والبرفان النفاذ، وصحبته إلى غرفتي، التي كانت "صبحية" قد أسرعت ونظفتها قبل مجيء الضيف بفترة وجيزة، اجتاز الصالة وهو يضرب الأرض، ضربات متمهلة وثابتة بعكازه، جلس على طرف الفراش، جلس على قطعة من تاريخي الشخصي، كنت منذ الصباح وأنا أتسلي بمقتنياتي، محاولا أن أدعم جهازي النفسي، حتى يعاونني على تناسي الشعور

بالوجع..

..الألم مفهوم عقلي صرف، يتصاعد أو يضمحل تبعا لقدرة الشخص على تجاهله أو الاحتفاء به، والليلة الفائتة قضى معي حفلة ماجنة، وعطل عقلي ولم يمكنه من التحكم فيه، في الصباح استعدت زمام الأمور ورحت أزيحه للخلف، وتدريجيا أنزوي في ركن مني، صرت احتويه وليس العكس، الليلة الماضية هو الذي احتواني وأبكاني، منذ فترة وأنا أخسر جولات وهو يكسب، هذا الصباح حجمته وركنت إحساسي بالألم في زاوية معتمة من نفسي، وحاولت أن أتسلى، قرأت، تفرجت علي التليفزيون، سمعت الراديو، وأخيرا ذهبت إلى أشيائي الخاصة جدا، وفضضت أظرفا ورقية بالية، مزحومة بالأشياء القديمة، وأفرغت أكياسا من النايلون كانت معبأة بتواريخ كثيرة، وأشياء قديمة، وكله فوق السرير وأقلب بشهوة هائجة تريد إيقاف نزف الزمن، كنت أنبش في قبور جف ما فيها، ويبس ساكنيها، ولم يتبق منهم إلا قدر بسيط من الرفات، كل تلك الأشياء لم تعد تفيد أحد إلا ذاكرتي، لا تفيد بشيء إلا الشخص الذي يريد أن يمضي إلى الوراء في الذاكرة، لكنني مجبر على أن أحتفظ بكل تلك الأشياء كقطعة منى، كجزء من بقائي وتاريخي الذي تبدد الجزء الكبير منه وفق ما لا أريده أو أبتغيه..

..وكان المرض مناسبة جيدة لقضاء بعض الوقت مع مقتنياتي البالية، هي أشياء قديمة، صور، خطابات، صور، أوراق رسمية، طلبات، أقلام تالفة، ساعات مكسورة، وواقفة على مواعيد عدى أوان تحقيقها من زمان، ولاعات فارغة، أوراق داخلة في بعضها، ومكعومة الأطراف ومصفرة، أوراق، أوراق، أشياء كتبتها ولم اطلع أحدا عليها، إيصالات،

فواتير، إخطارات، قطع من ورق الجرائد ومقالات، أوراق صحف كاملة، مطبقة ومتهرئة مرت عليها سنون عديدة، جوابات من مسعود حين كان مغادرا إلى اليونان، جواب وحيد لصلاح محمد إسماعيل قبل أن يعود من العراق، صورة وحيدة رسمها لي "صلاح" وأنا انظر إلى أسفل، إلى باطن الأرض، أنظر بشرود إلى أسفل، إلى أسفل الأسفل، وسارح وغير متنبه إلى أن للعالم ضجيجا من حولي، ويجب أن أسمعه وأفهمه، لا أعرف لماذا كنت أرنو بحزن هكذا إلى الأرض، وكيف لم أتنبه للخارج الشاسع الاتساع، ولم أعرف أنه يعمل وفق مشيئة مجهولة، متى رسم لي صلاح هذه الصورة؟! وفي أي أرض كانت؟ في غرزة "الضمراني" أم في بيت "منصور" أم على مقهى أم كلثوم، أو...!! تقريبا على مقهى أم كلثوم، لا غير متأكد، أم...؟! النسيان، النسيان!! قلت لنفسي لا تحزن من النسيان، ليتك تملكه كاملا، ليتك، أبدا، النسيان ليس بفجيعة، الكارثة الحقيقية هي الذاكرة يا جماعة، النسيان رحمة بمساحة الماضي الذي نسيته، النسيان هو لحظة خروجك من البقعة المعتمة التي تعوق تدفق الوقت إلى الأمام، هو محاولة جادة لعلاجك وترويض ذاتك وتقديمك لما هو آت، وانتشالك من لحظات الوقوف المؤثر أمام الإطارات المخبأة أسفلَ الغبار الناعم، وها هي صورة أبي، ذلك الميكانيكي الصالح، وأقف هناك في ركن بعيد من صالة البيت، ويحدق لي ببصره المريض بالمياه البيضاء..

وصور كثيرة وأوراق، صور، ومنديل صغير لـ"هالة" ابنة خالي "صالح"، منديل مطرز على أحد جوانبه ورود حمراء دقيقة باهتة، صور، أوراق، شهاداتي الرسمية التي حصلت عليها من العالم كي

أثبت أنني موجود فعلا ولست بوهم، شهادة ميلادي، الجزء العلوي فقط من شهادة الإعدادية وبقية الشهادة مفقود، شهادة الابتدائية، براية أقلام رصاص مهشمة، دباسة أوراق لا تعمل، كروت تحمل أسماء مازلت أتذكر أصحابها، كروت تحمل أسماء لم أعد أتذكر أصحابها، دعوات لحضور حفلات للزفاف، أيضا الإبهام والسبابة وهما ملفوفان في قماطة معكرة بالدماء الناشفة، لما وقع الحادث، وبنوع من الوفاء أصر زملاء العمل بالمصنع، على الاحتفاظ بأصبعي سبابتي وإبهامي، بعد أن حملوني إلى المستشفى اهتموا بجزئي المفصول مني، أثناء فترة النقاهة جاءوا بهما لأكفنهما وادفنهما كما يليق بجزء من جسد إنساني كبير ومحترم، فعاندتهم وعاندت أمي ولم أفعل، واحتفظت بهما لنفسي مع بقية أشيائي الحميمة، وقلت لأمي زاعقا، "صوابعي، وأنا حر فيهم..."، وكنت قد رششت عليهما الملح والخل لأحنطهما، كنت أريد أن أحتفظ بهما، ولففتهما في القماطة بعناية وتابعتهما، كانا يتعفنان، ويصرخان برائحة كريهة، أن ترى قطعة منك مفصولة عنك تماما، أن تكون في مكان، وجزء قليل منك في مكان آخر، أن تشم رائحة النتن من قطعة منك، أن تجد نفسك منقوصا، أن يتعفن جزء من لحمك أمام عينيك، إنه لشيء مثير، مدهش، مذهل، مربك..

..لكن حتما الروح لا يمكن أن يقطع أصابعها أي أحد، حتى ولو كانت آلة عملاقة، بحجم ماكينة تشفية السمك، بـ"مصنع الثلج والأسماك" الذي باعوه.

..صار الاثنان مثل أوراقي وصوري ومستنداتي، جافين ومكرمشين، ومحنطين بثبات على وضع يأخذ شكل قوس صغير، حتى رائحة العفونة

تسربت منهما، وباتا بغير رائحة ما تميزهما، كنت أنظر لهما وهما بهذا الوضع، وأقارن بينهما، وبين اثنين مازالا يعملان في الخدمة، وفي بعض الأحيان أفك القماطة، وأمسك بهما وأضعهما في مكانهما القديم بيدي، في تلك اللحظة كنت أكاد أشعر بهما حقا، وأوشك أن أحركهما، بل أحركهما بالفعل، أثنيهما وأفردهما، كنت في خلواتي مع نفسي، أخرجهما، وألعب معهما هذه اللعبة، وللغرابة كان ينتابني في مثل هذا الوقت، فكر قوي يؤكد لي أنني لم أعد ناقصا، لم أعد بعاهة صغيرة، وأن السبابة والإبهام يؤديان دورهما على أكمل وجه، ينفذان الأمر بحذافيره، يمسكان بالأشياء بدقة، يشعلان الثقاب لسجائري، يحكان جلدي بمتعة، يهرشان في فروة رأسي بتأنٍ، حين أستفرد بنفسي كنت أعيد السبابة والإبهام إلى مكانهما بالضبط، وأتفرج عليهما، لكنهما كانا يسرعان ويختبئان في الكيس "النايلون"، وقتما أخطو خارج الغرفة، حين أهم بالخروج إلى هذا العالم، يعودان للتيبس والموات، وأعود أنا للتناقص من جديد، كانا يلعبان معي لعبة الغميضة اللعينة.

..وأنا أسحب من أسفل "الأستاذ أنسي" طرف الكيس المحتوي على أوراقي المتهرئة وسبابتي وإبهامي، وبقية ممتلكاتي البالية، قبض على يدي بقوة ونظر لي بعينه السليمة بحدة واهتمام كبير، وألقت عليّ عينه الأخرى بياضها العليل، وأستعد لقول شيء، يبدو من ملامحه التي انقبضت، أنه مهم وغير معتاد..

- أنا عاوزك تفهم الكلام اللي حاقوله كويس.

ترك يدي ونظر إلى النافذة وتكلم، وكنت أنظر إليه مدققا، وأنا أعيد أشيائي إلى مكانها بحرص وترتيب، بدأ حديثه بمقدمة مختصرة عن تاريخه وعائلته التي ترجع جذورها إلى محافظة أسيوط، ثم خاض كثيرا في أسرته الصغيرة وأبدى قلقه على البنتين "بسمة وكرستين" في تلك المنطقة تمهل، وتوقف كثيرا أمام "بسمة" الكبرى، كان يحبها كثيرا وخصوصا لأنها صماء لا تسمع، قالها بعفوية شديدة وبساطة لا تناسب ذهولي ودهشتي، والبنت فقدت سمعها من سنتين يا جمال، ربنا عاوز كده!!! كنت لأول مرة أعرف مثل تلك الأنباء عن "بسمة" ، بسمة مصابة بالطرش؟ لم ألحظ ذلك في لقاءاتي القليلة معها، ربما لقصر وتقليدية الحوارات التي جمعتني معها.. مساء الخير، أهلًا أستاذ جمال.. الأستاذ أنسي موجود؟، أهلًا وسهلا أتفضل، أجرت أكثر من جراحة لتحسين السمع، لكنها باءت جميعها بالفشل، منذ سنتين مات تماما العصب السمعي، وكنت أسأل نفسي حائرا، كيف لهذه الفاتنة لم تتزوج للآن برغم أنها تجاوزت الخامسة والعشرين تقريبا؟!! كيف للذكور الميسوري الحال أن يضلوا الطريق عن هذه الأنثى الموصوفة في الكتب؟!! والآن عرفت، كنت أسأل نفسي هذا السؤال مرارا، والآن عرفت الإجابة الصادمة الموجعة، فمن هذا السبب فر منها الرجال، من يقبل شريكة حياة لا تسمع صوته!! خصوصا في واقعنا هذا، القاسي على الناقصين بعاهاتهم، ولأنها على قدر وافر من الفطنة، كانت تستطيع قراءة الجمل الصغيرة المعتادة التي توجه إليها، لذلك لم أكشف عيبها، تركني مذهولا بالنبأ، وعرج إلي عمله الذي أطيح منه غيلة وإفكا..

-..بسمة صماء يا إله الناس، غير ممكن يا دنيا، ما هذا الغباء الذي يتحلى به المرض اللعين، ما تلك القسوة الشريرة التي تنتاب العاهات، حين تتجه للشخص!! غير ممكن، غير ممكن!!

..حاولت استيعاب الأمر، وأخيرا هدأت وتابعته، وتكلم عن الوظيفة التي كانت، وعن تهمة لم يرتكبها، وعار لم يقترفه، العمل - تلك المساحة الكبيرة من حياته - كان من أكثر المناطق وعورة في حديثه معي، هنا بدأت أثار القهر ترتع فوق تعابير وجهه، لأول مرة يتجسد لي القهر، في إنسان بهذا الشكل، قهر يساوي الجدية والنظافة والتفاني الذي كان يدير به مركزه الحكومي المرموق - على حسب كلامه -

..لكن يعني الأستاذ أنسي ضحية تماما، للآخر؟!! ألم يقترف أي خطيئة وهو يزاول عمله الحكومي المهم، لم تمس نفسه أي نقيصة!! ولماذا أتعاطف معه بهذا الشكل، وأصدقه!! الدنيا كلها حكايات مسهبة، لماذا إذن أصدق حكايته، ما أسهل الاستطراد والإفاضة والتبرير، نحن أفضل ناس نبرر مواقفنا، حتى وإن كان الغلط المرتكب مكشوفا ولا يحتاج إلى مجهود لتعريته، نحن أساتذة ذرائع وتبريرات، وأفضل من يطلع من المشكلة مثل الشعرة من العجين، وهذا ليس معناه أنني أدينه مباشرة، بل أفكر في الموضوع من عدة جوانب!! أسمع حكايته بأداء حسي مغاير وجديد، ووفق شكي الخاص، فبرغم قهره وحزنه وغله المكبوت، لا أدري لماذا انتابتني في هذه اللحظات بعض الشكوك بخصوص قصة الأستاذ أنسي وعمله!! طيب لماذا صدقته دون قيد أو شرط في البداية، هل لطيبته الملحوظة، أم لطيبتي أنا التي بدأت تغادرني بمهل منذ فترة؟ أم بسبب شروط الصداقة الجديدة

التي من الواجب أن تتم بطمأنينة وهدوء، ودون توجيه أي انتقادات للآخر، وإلا اعتلّت تلك الصداقة بالأمراض المبكرة التي قد تقضي عليها وهي لا تزال في المهد، الآن وبعد مضي عامين - تقريبا- على عمر صداقتنا الحميدة، صار من الضروري تسديد بعض النقد لكلينا، بعض الأسئلة المحرجة، والشك، كفى شهورا من الطبطبة والربت على مشاعر بعضنا البعض، ورحت أراجع في أعماقي جميع ما قاله لي سابقا وأطابقه بما يقول الآن، ولم أجد زيادة أو نقصانا، هي هي نفس القصة، لكن انتابني الشك لدقائق تجاهه، واستمر متكلما غير عابئ بما يجوش بداخلي..

..لكن يا جماعة وبعد حين عادت مشاعري واستقامت من جديد تجاهه، بصراحة لا أغالط نفسي، أنا أحب هذا الرجل، وأحترمه، يعني أرجع وأقول، أنه في أعماقي يوجد ميل كبير لتصديقه، طبعا هذا هو الشيء الذي يلاحقنا ونحن نتعامل مع الآخرين، الميل والقبول، أو الاستنفار، والبغضاء، أو الحياد والبرود وعدم الارتياح، وتبعا لمشاعرنا تلك التي من الجائز أن تكون خادعة، نقبل علي الشخص ونصدق حكاياته، أو نطارده بالقطيعة والعداء، وتصبح المصالح العامة والخاصة تحكمها المشاعر، المشاعر البلهاء، والميول الساذج، وتضيع منا ونحن نسعى وراء الأهواء الشخصية، فضيلة الموضوعية..

..المهم

..وفي الوقت الذي كنت أداري عنه خيباتي المرضية، وأقلل من أهميتها أمامه، وجدته صريحا معي لأبعد الحدود، ويكشف لي أبعادا غائرة في حياته الخاصة وفي مشاعره الدفينة، الآن فقط صرت صديقا حميما

له، منذ لحظات فقط تركت مقعد التلميذ، والتابع والمريد، وها هو يصعّدني لأتساوى معه، سألني مرات عن حال المرض وأنا أراوغه، وأعطيه إجابات عائمة، كنت لا أريد أن أنم أو أثرثر في سيرة جسدي المريض قدامه، وها هو أجده يحرجني ويفاجئني بمكاشفة كاملة لم أتوقعها منه، تجاوز المصارحة بمراحل، كان يقدم لي تقريرا مفسرا عنه وعن أسرته، لكنه كان يحيرني في مسألة الإطاحة به من عمله، فإذا كان ما يقصه عليّ أمرا واقعا وحقيقة حصلت بالفعل، كيف يفسر هذا الذي وقع حياله؟!! هل يفسره علي أساس عقائدي، ديني، يعني لأنه يدين بالمسيحية، تم الغدر به وظيفيا من قبل أقران له مسلمين، أم هذا العلماني الرفيع الثقافة، وجد أسبابا أخرى للغدر الذي قضى على مركزه الوظيفي الكبير، مثل أجواء الفساد العامة التي تفشت في مصالح حكومية كثيرة، وبالتالي لم تكن ديانته تمثل عنصرا مهما في الخيانة التي وقعت عليه، وحتى إن مثلت مسيحيته شيئا في المؤامرة، فهي كانت ذريعة هامشية، وتفصيلة ضمن تفاصيل أخرى أقوى، هل أدرك أنه كما تم ذبحه وتلويث سمعته، حصل لأقران مثله، مسلمين، نفس الشيء، إنها المفرمة العامة التي لا تتوقف كثيرا، أمام تلك التصنيفات، وهي مستمرة في دورانها للإطاحة وتقطيع كل من يجابهها، مسلما كان أو مسيحيا، لا فرق!!

..وكنت سوف أوجه إليه هذا السؤال مباشرة، لكنني تراجعت في آخر لحظة، خشية إغضابه، والتكثيف من المرارة التي يحسها في تلك الأثناء، ثم حدق لي ثانية، وهو مستند بذقنه على عكازه الخشبي الأنيق، وفاجأني بالجديد، قال لي وهو يدعك بيده اليمنى على مكان

القلب، "أنا خلاص حاموت قريب يا جمال" ..

- ...!!

..قالها بيقين قاطع، وبصدق مختلف عما يلوكه العجائز في جلساتهم مع أبنائهم ليستحلبوا منهم الدفء والحنان والتواصل المقطوع، وكمن يتلو عليّ قرارا لا رجعة فيه وجارٍ تنفيذه، وكان بجواري مثل ساحر جبار البأس، يعلق على الأحداث الآتية، وقالها باقتناع هزني في مكاني، "أنا خلاص يا جمال حاموت قريب"، وكنس من ردهاتي الداخلية المعتمة أي وسخ كان يجاهد لتلويث الرجل، كنت جالسا بجواره على السرير حين دخل "مقبل" الغرفة بصينية الشاي ووضعها بيننا وخرج وقفل الباب وهو يرحب بالأستاذ، "الواد مقبل ده، باين عليه جدع وشهم .." .

..ربنا يسهل الأمور حتى يطمئن قلب أمي وتستريح، ويقل الانشغال الطويل في عينيها الطيبتين، ها البنت صبحية أوشك زفافها المرتقب، أخشى أن تحقق المراد يا أم يا فاضلة، يا ست الكل، تسابقين الأستاذ أنسي في السفر إلى الأعالي، ومتى ستقولين لي مثل "الأستاذ" أنا خلاص سأصعد يا جمال!! أرجوك يا أم لا تتركيني لوحدي، وأنت أيضا يا أستاذ "أنسي" لماذا أتيت اليوم، جئتني لتسأل عن صحتي وتعمل الواجب، أم جئتني لتدعوني إلى جنازتك المقبلة، وما بال الصعود يستعر فيمن حولي، ويمد المسافات الفاصلة بين الأحباب، هم ينهضون إلى الرحاب العالية وأنا باقٍ ومغروس في فظاظة الأرض الحجرية..

..وبعد خروج "مقبل" مباشرة، طرح أرضا كل كآبة عن ملامحه، وحملت تجاعيد وجهه مرحا مباغتا، وسحب شهيقا يكفي لبلاغة ما سيقوله، وضع يده على ركبتي وضغط بقوة، واستمر في تمرير مفاجآته

بغير رحمة..

- إيه رأيك في بسمة؟!! هي عشان تعرف، مستلطفاك يا جمال..

- ...!!!

..قالها بطريقة واحد يقدم هدية ثمينة لإنسان عزيز عليه، وبحب كبير لكلينا - أنا وبسمة - وها أبوها صالح أتي في قديم الزمان إلى بيتنا وتمم انفصالي عن "هالة" ومنحني قليل القليل من الذهب والكثير من الدخان، وأدخلني إلى عهد من الرماد، وسرق منى بهجتي، وها أبوها الرجل الصالح يأتي إلى بيتنا اليوم ويقدمها لي بدون قيد أو شرط، ويمهد لفتح آفاق جديدة في الروح، ما هذا التماوج والخلط والمراوحة يا رب؟!! ورغم أنني أعرف أنك نظيفا تجاهي يا أستاذ "أنسي" لكنني أسألك أيها القضاء العادل، هل أنت في هذا الوقت تبادل عاهة بعاهة، تفاوض منقوصا بمنقوص، آآآآه من الرقبة والكتف والركبة، آه من كل الألم الذي جاء، ولما أكون محتارا مؤرقا، يدخلني الوجع الجسمي من أماكن محددة معدة مسبقا لهذا الضيف الثقيل، أننا مجرد مناعة كبيرة، تقوى وتضعف تبعا لخطة الروح وتألقها وانطفائها وحيرتها..

..أم تفاوض خسارة بخسارة يا أستاذ!! وغرقت في بحر متلاطم من الحيرة وظللت أحدق إلى الخارج لمسافة لا أعرف حدودها، الليل المعلق بقضبان النافذة أسود وقاس وعنيد ويستميت ليقفز إلى الغرفة ساحبا في يده الشتاء، ولن ولم تمثل إعاقة "بسمة" التي عرفتها توا، أي تأثير على إجابتي، لا تزال بسمة حلما شاسعا ولم تنقص في عيني، حلم يراود كل الرجال، وروح لم أتكشف تفاصيلها بعد، لكن المعضلة الأكبر فيّ أنا، هل أنا صالح لمعاودة الجهاد مع امرأة بحجم "بسمة"

التي تستلطفني وربما تحبني، كنت مستعدا أن أبوسها بوسة طويلة في حنكها الشهي في أحد الأيام القادمة، كنت مستعدا ومتحمسا لذلك، ويا حبّذا لو أرحت رأسي علي صدرها قليلا، كنت مغويا بها ومفتونا، لكن الإقامة!! الإقامة المستديمة مع شخص ما أصبحت فكرة لا تريحني، حتى وإن كانت تلك الإقامة مع كائن جميل يحبني، وفي أي ركن من خرائبي الداخلية سوف أضعها، وهل من مكان يسعها؟ وقواي الباقية تستطيع حماية أمانة غالية، أمنني عليها أحدهم، هل أستطيع؟ أنا مقاتل خائب نام وساب سلاحه، فسرقه العدو، وما "القرن غزال" إلا أمانا مهلهلا أتخبأ خلفه، ووهما بمقاس خرافتي الشخصية، والحزام يزداد ضيقا حول وسطي، أنا الإعاقة الحقيقية لنفسي، وإن رفضت هذا العرض الآن، هل سأقابل مثيلا له فيما هو آتٍ، خصوصا وأنا أتناقص قطعة قطعة!! أليس من الضروري اغتنام الفرصة، والترحاب بعطايا الغيب حين يأتي غفلة! وكان مثل إنسان يعلق وصيته الأخيرة في عنقك ويمضي ويتركك تناضل بمفردك حتى تحقق مشروعا ضخما اسمه الوفاء، وظل ينتظرني بدأب ومحبة وتفهم، ولم يقاطع صمتي، ولم يتجاسر أن يعتدي على وحدتي التي إليها دخلت، واستمر الهدوء بيننا جاثما كسؤال مصيري يبحث عن إجابة بمقداره..

(43)

..نزلت من السيارة مسرعا، اتجهت ببعض الدهشة إلى محسن، كان واقفا على الطوار بجوار صندوق قمامة كبير، وينظر بثبات إلى كلب أرقط ضخم ممدد على مبعدة منه، بين أكوام النفايات، والكلب يفرفط محتضرا في لحظاته الأخيرة، كان جزءا من رأسه مهشما والدم يسيل أسفله جرارا، ثم مات الكلب أمامنا بهدوء، لم أهتم كثيرا، كلب وراح، كلب ضال وراح في ستين داهية، وهنالك المئات، غيره منطلقة في الشوارع وتعقر الناس وتفزعهم، وكان اهتمامي منصبا على محسن خصوصا أنني لم أشاهده من فترة طويلة، كان ممسكا بكيس بلاستيكي أسود مملوء ومنبعج بأشياء لا أعرفها لسمك وقتامة الكيس، كان الشارع ساكنا، الوجوه القليلة المتعبة تجتاز الطرقات بعجل عيونهم ثابتة على الأمام البعيد، وتنظر إلى قادم لم يأت بعد، منذ أن رأيت محسن من بعيد وأنا قادم بالسيارة في اتجاهه، وهو واقف هذه الوقفة، وجامد في مكانه، وينظر في اتجاه واحد، إلى الكلب الذي كان يحتضر أسفله، من قتل هذا الكلب الضخم؟!، معقولة يكون قاتل الكلب هو محسن!!، لا، لا أعتقد أن محسن يستطيع ذلك، ربما يكون "سماوي الداخلية" قد مر من هنا وأردى الكلب قتيلا بالبارود، كنت أسير متلكئا بحثا عن شخص قد يشير لي بيده لأوصله إلى أحد الأماكن، كنت أبحث عن عشرة جنيهات زيادة حتى أجعل من إيراد

السيارة اليومي مقنعا "لمدام نادية"، وبالتالي ستتأكد هي أن اختيارها لي كسائق لعربة زوجها عبد الكريم كان في محله ومكانه بالضبط، يا سلام لو جاء زبون وطلب مني توصيله إلى "المطار" أو صحاري مثلا، لن أرحمه من العشرين جنيه، سوف آخذها ثمنا للمشوار يعني سوف آخذها، ويا سلام لو كان المشوار القادم إلى "السد العالي" في تلك الحالة لن أقبل أقل من أربعين جنيها عدا ونقدا، وإن لم تعجب قراراتي تلك الزبون المنتظر فعليه أن يضرب رأسه في أي حائط يعجبه، كنت أحسب حساباتي تلك وأنا سائر برتابة وبطء على أسفلت الطريق، ومنتظرا لفرج الله القريب، ورأيته من بعيد وكلما اقتربت منه تأكدت أنه هو محسن، كان أنيقا كعادته، لم أره يمسك في يوم بشيء غير الكتب والجرائد والكراريس، إذن ما هذا الكيس الأسود الكبير المملوء لآخره؟!!، ولماذا يتوقف بقرب صندوق القمامة الذي طفح الكيل به وتقيأ الكثير من الزبالة والعفن من حوله؟! وما سر الكلب الميت الذي يتأمله "محسن" بولع كبير؟!! والمكان مقرف جدا، قلقت، جهزت نفسي للتوقف، من بعد موت "وداد" مرت أيام كثيرة ولم نتقابل، وكنت أحس بالخسة، ففي الوقت الذي يحتاجني بجانبه، ها أنا أتناساه وأهمله، ربما هي محاولات البحث عن عمل جديد.. معقولة ثلاثة أشهر تمر دون أن أسأل عليه!!، وكيف عدى المحنة بمفرده؟ وكيف تجاوز فقد الرفيقة والمحبوبة "وداد" بمفرده ودون أن يعاونه أحد؟! هذه الأيام أضبط نفسي متلبسا بفعل الكثير من تلك المواقف، أجدني أفعلها على غفلة، ودون قصد، وكأنها صارت طبيعة فيّ، ولما أنتهي من إكمال تلك النذالة تجاه الأحباب، ألح على نفسي بالسؤال

obeikan.com

المحير الصعب: "كيف فعلت كذا وكذا ولم أخجل من نفسي!! وأغرق في ندم يحاول أن يغسلني من تداعيات فعلتي المخجلة التي صوبتها إليّ أحدهم، وصرت إلى جانب النذالة أمارس بعض الكذب، وكانت أمي في بعض الأحيان تكتشف كذبي ونذالتي وخستي حينما ألقي بها على أحدهم، فتهم مقتحمة خلوتي وتوبخني بمرارة حتى أفر هاربا من أمامها، خجلا من نفسي، وهل كشفت عنها الغيب يا إله الناس!! تلك السيدة العجوز تستعمل شفافيتها ضدي "اخس عليك، اخس، برضه تعمل كده يا واد يا ندل..!!!".

توقفت بالسيارة جانبه، ولم ينتبه، ولما هززته من كتفه فوجئ بي أمامه، فابتسم وعانقني بذراعيه بحرارة وأحسست بوطأة الكيس الأسود الكبير وهو يخبطني لمرات في ظهري، ودخل في حوار حميم معي، كنت أجيبه سريعا حتى يتاح لي أن أسأله عن سبب توقفه في هذا المكان، كنت مشغولا عليه لحد ما، أنهي إجابة لأستعد لأخرى، قاطعته مستفسرا، كان يرد على متفكها وهو يدس الكيس الأسود خلف ظهره، كان يحاول أن يخفيه عني بطريقة لا تحرجه أو تحرجني، يسحبه بمكر إلى الوراء، وكأنه لا يقصد، يحطه خلف ظهره، وكأنه لا يقصد، ولما كنت أتحرك عفويا، يسارا ويمينا، وأنا أفرك كفي في بعضهما لأصد البرد عني قليلا، كان هو يعدل من وقفته، حتى يظل الكيس البلاستيكي مختبئ خلف ظهره ولا أراه جيدا، كان يحاول جاهدا أن يضعه بعيدا عن متناول نظري، ولما ضايقني برودوه المستخفة المتفكهة، قررت الانصراف،

- إيه، فينك يا جيمي؟

– في الدنيا يا محسن، وأنت إيه اللي...

– وأزيك؟!!

– كوي...!!!

– عامل إيه كده؟

– كويس، فيه حاج... ،

– عامل إيه كده..

– ..أنت علقت يا محسن، مالك واقف هنا!! إيه خير فيه حاجة؟!

– إيه الأخبار، فينك يله يا جمي..؟

– يا عم رد على سؤالي!!

– وليه السؤال ده؟!

– أصلك ليك فترة وأقف فانشغلت عليك!!

– جمال لا لا أنا عارفك.

– إيه يا محسن، أنا بأسألك!!

– ياد يا وسخ، لأ صايع، صايع ...

–، إيه يا بني، فيه إيه؟ مالك يا محسن!!

– أمشي يله حتعملهم عليّ..

– أنت شارب حاجة النهارده يا محسن؟!!

– شارب عصير قصب، حلوة، هههها، يخرب بيت خالتك، كهكه،

– ...!!!!!؟؟؟ يعني خير؟!! مفيش حاجة؟!!!

– يله إيه الكلام اللي بتقوله ده، أنت بهيم، ولا يعني أنت بهيم...

-– يعني خير، مفيش قلق..

– يله أنت مش طبيعي يا جمال، فيه حاجة، أنت غريب غريبة..

– طيب ع البركة، الدنيا برد!!

-– وأنا مالي يا روح تيتة، كهكه كه، حلوة!!!

-–، يعني تحب أوصلك ولا حاجة...

____ ،. لأ ما أنا وصلت من بدري ياروح ستو، كهكهكه، هععععه، ههها ...

– لا أنت النهارده مديها جامد يا سي محسن أفندي..

– مديها بالجزمة كهكهكه كه، ها ها ها..

– تجي أوصلك، تعال يله...

– ده أنا أوصل عشرة زيك يا ننوس...

– أنا مش فاضيلك يا عم، دي مش عربية أبويا عن إذنك، سلام...!!!

– ابقى اديني رنة يله يا جمال...

– أنت فله، سلام..

– سلامك معاك يا عم المكتئب، كهكهكه كه ها ها هاها..

obeikan.com

- أشوفك يا محسن، سلام...

ولم يعطني ردا على جملتي الأخيرة، كان فكاهيا لدرجة لا تطاق، وغير معتاد في مرحه هذا، لم يكن خفيف الظل من قبل، أي نوع من البرشام صار يتعاطاه "محسن"؟ أي نوع من الهلاوس يجربها الآن وهو واقف على الرصيف، وكيف يتحمل مثل هذا الشتاء الإجرامي، بلبسه الخفيف، كنت في "السيويتر" الجلدي المبطن الثقيل، وبرغم ذلك أشعر بالبرد وهو يتسرب من تحت جلدي، ومحسن ماذا يفعل إذن بقميص وردي خفيف، وكيف خرج به ليقابل هذا المناخ الصقيعي، محسن أصبح مريبا، ولا بد أن أدخله إلى دائرة اهتمامي بجدية، بحكم الصداقة والعيش والملح، سأضع عيني عليه الفترة المقبلة، حرصا مني عليه، أنا قلق جدا بخصوصه، ماذا يفعل بجانب صناديق القمامة والحيوانات النافقة؟! تحيرت بشدة...

..عندما ملت برأسي تجاه النافذة الملاصقة لي ومنحت الوراء نظرة خاطفة، رأيته قد عاد لوضعه السابق، تخلي عن حرصه تجاه الكيس وأراحه على الأرض ووقف يتطلع إلى المتسع بغموض أثارني، ومن حين لآخر يضرب الكلب برجله برفق ليتأكد من أنه كامل الموت، ماذا يريد هذا المعتوه؟، عدت برأسي إلى الطريق وعدلت من وضع المرآة الجانبية للسيارة حتى استطاعت أن تعثر على "محسن" في هذا الفضاء، الناس غادرت، المحال تلم أنوارها المسائية وتنسحب من الشارع صامته، عربات قليلة تمرق من جانبي وتدوس فوق الشارع بتعجل، كان نقر المطر قد بدأ يعلو فوق سطح السيارة، كنت أرى النقط الصغيرة بوضوح، وهي تسقط منغرسة في الأسفلت ليضيع تميزها في

هذا السواد الخشن، في المرآة رأيته مثل نقطة مطر ضئيلة راحت تتباعد تتباعد حتى تلاشت في الفضاء الخلفي الأسود الكبير.

..هذا كل ما رأيته في ذلك الليل الشتائي الممطر، هذا بالضبط الذي حصل فرجعت إلى الجبل وركنت السيارة بجوار عمارة "عبد الكريم"، واتجهت راكضا، مبتلا، إلى "نادية"، وكنت أشتم "يناير" حين يكون جليديا بهذا الشكل، وأنا أهرول صاعدا درجات السلم، أخرجت "إيراد" هذا اليوم الغلس، وأحصيته مجددا، كان زهيدا، وأنا أرن جرس الباب، كنت مرتبكا وأسائل نفسي، ترى هل ستصدقني الزميلة "نادية" عندما تأخذ الإيراد القليل مني؟ أم ستتهمني بسرقة النصيب الأكبر منه، مثلما كانت تفعل في بعض المرات السابقة، أنا حقيقة، أسمسر قليلا في الإيراد، حتى ألبي بعض مطالبي، كنت مرغما على ذلك، كنت كل ليل أفعلها وأنا نادم حزين، والليلة سأضطر أيضا لأن أفعلها وأنا نادم وشاعر بالخسة! بالخسة والكذب معا.. فتحت "سوسن" الباب، كانت تلبس جلبابا منزليا ضيقا، يكشف مفردات الجسم الشاب الفائر بطلاقة وجرأة، وصدر الجلباب غير محكم الغلق، ويكشف هامشا من نهديها النافرين، وتضع ماكياجا خفيفا على وجهها، وازدادت ألقا أمامي..

..وأنا مالي يا عم، "سوسن" تعمل ما تريد تلبس تقلع ما داخلي أنا، ربما في الأيام المقبلة ألفت نظر "نادية" إلى هذا التبرج المستفز الذي تفعله "سوسن"، ربما يعني مش أكيد..

..ومثل أمها نادية، جميلة وبيضاء كاللبن الرايب الطري اللذيذ، ودخلت إلى صالة البيت مستريبا غير مرتاح..

- فين أمك يا بت يا سوسن؟!

- فوق، على السطوح بتبيت الفروج عشان المطرة.

وكأنها زوجة تنتظر زوجها، أو عشيقة تكابد الأشواق والمخاطر في سبيل رؤية محبوبها القادم، وكأنها تنتظرني أنا، تنتظرني أنا بالذات..

- بس متقولش يابت..

-...!!!؟

قالتها بدلال وإغراء وغنج وتراقص من جميع تفاصيل الجسد المستعد قدامي، كانت تستعرض قدراتها وفتوتها الأنثوية أمامي، ونظراتها عطشة وجوعانة وهائجة بالرغبة، كان الباب، من ورائها، مفتوحا لنصفه، وبأداء المحترفين، دفعت باب الشقة بطرف قدمها، فأقفل بصرامة، وتفرست فيّ باشتهاء، وجسدها بدوائره وانحناءاته الشهية يهتز مرتعشا بتحدٍ، وارتبكت، وهي تنتظر، وتسد أمامي طريق الهرب أن حاولت، وضربني التوتر وهز ثباتي، ودارت في رأسي الفكر، وصارت جمجمتي كالطاحون الكبير المغلق، وكل شيء تحول أمامي وحولي وداخلي، إلى مسحوق ناعم، مجرد مسحوق ناعم، وهل "سوسن" اكتشفت ما يدور بيني وبين أمها "نادية"، وهي الآن تريد أن تقاسمها في الوليمة المجانية؟ تريد أن تشاركها في رجولتي المهدرة...؟

..كبرت "سوسن" وتريد أن تأخذ حقها من الدنيا، تريد أن تأخذ نصيبها مني، مثل أمها، أيضا "سوسن" مثل "حسن"، الاثنان يمثلان جيلا تم إعداده وتربيته من قبل الزمن الغابر دون أن ندري أو نحس، كنا في غفلة وغير منتبهين لما يفعله الوقت من وراء ظهرنا، وها هو

الجيل الجديد الذي أهملناه يسعى طالبا حقوقه كاملة من هذه الدنيا..

..هذا الجيل الذي تناسيناه بدون قصد أو بفعل فاعل، يريد الآن من الجميع أن يسددوا له ديونه، وإلا..

..وتذكرت صديقتي نادية وعلاقتنا المزمنة الحميمة، وكيف اطعنها في أعز ما تملك؟! وكيف أقتلها "بسوسن" نور عينيها ونيسها في وحدتها الموحشة!! كيف أسدد لها خيانتي العظمى في ابنتها "سوسن"..

..ولم أقدر

..ولم أستطع أن أجاريها في الرغبة المحتدمة داخلها، وصارت أمامي سجان شديد الغلظة، وكنت أريد الفرار بكل ما أملك من جوارح، الله يخرب بيت الأيام وما تفعله حولنا وبأعماقنا من تحولات حادة وغير منتظرة..

- متخافش هي بتتأخر قوي لما تطلع السطوح..

..ولم أصدق، ولم أقتنع بهذا التدبير والتصميم القادم من هذه الصغيرة، الصغيرة لدرجة خوفي منها، وكانت مصممة على اغتصابي، وأوشكت أن أصرخ بعلو صوتي طلبا لنجدة قريبة، ولم أستطع، ولم أقدر، ولم أصدق.

..وأخيرا استطعت أن أتحرك، وأخيرا استجمعت ما تبقى من قوتي وجريت نحو الباب، جريت وأنا ارتعش خوفا ومفاجأة، دفعتها بعنف وفتحت الباب بعجلة وارتباك، ونزلت درجات السلم بجنون، وكنت مذعورا كواحد من فئران الجبل، ولم أصدق، لم أصدق.

obeikan.com

(44)

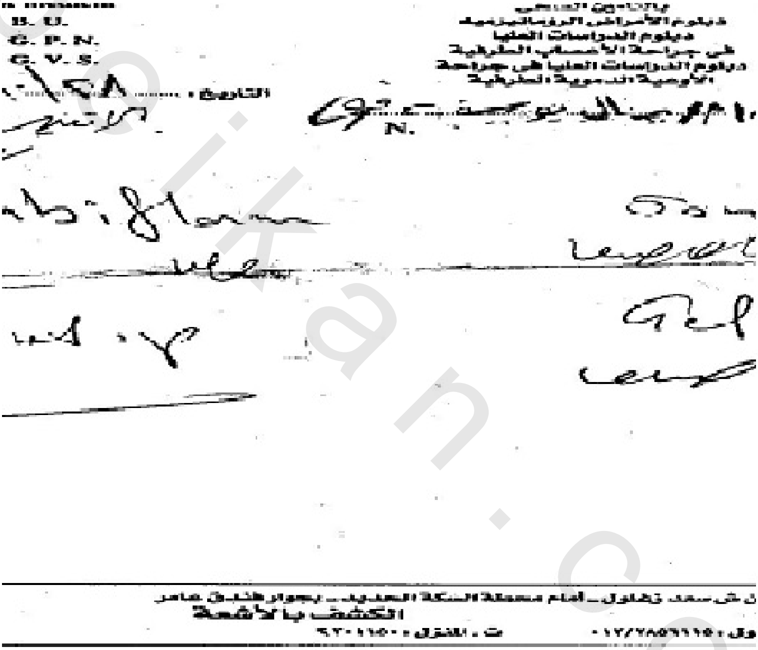

B. U.
G. P. N.
G. V. S.

التاريخ

دبلوم الأمراض الروماتيزمية
دبلوم الدراسات العليا
في جراحة الأعصاب الطرفية
دبلوم الدراسات العليا في جراحة
الأوعية الدموية الطرفية

N.

شارع سعد زغلول – أمام محطة السكة الحديد – بجوار فندق عامر
الكشف بالأشعة

(45)

(لديك رسالة)

(عموما متبقاش تزعل مني، سلام، جرجس، 2001 / 5 / 9)

- الله يخرب بيتك وبيت الألف جنيه بتاعتك يا أخي، أعمل اللي أنت عاوزه..

ألم خفيف بدأ في تملق ركبتي اليمنى، ثم زحف..

..وشرع في التفحل والغلظة..

..بعد انصراف الأستاذ "أنسي" قررت ألا أفكر في شيء، واستطعت أن أحصل على نعاس عميق، بمجرد أن غادر الضيف الحجرة، نمت تماما بفضل المسكنات، والآن استيقظت مبكرا، وضجة الصباح الحماسية تعمل من حولي، تمطيت في فراشي وفكرت في أن أقوم وأفتح النافذة، وأسرع في بلع ما تيسر من برشام، ومطلوب مني أيضا طعن "إليتي" بما أتيح من حقن كما أمر الطبيب الأخير، كنت قد تعلمت كيف أحقن نفسي بالأدوية من زمان، لكنني توانيت وثنيت فخذي بقوة إلى بطني، فجاءتني ركبتي واقتربت حتى لامست أسفل ذقني، أمسكتها بكلتا يدي وضغطها بقوة، ثم دعكتها بشدة حتى سخنت، فبدأ الألم يتراجع قليلا، برهة ثم عاود نموه، وشق طريقا مختصرا، قمت بصعوبة، وسلكت في

obeikan.com

طريق الحقن والبرشام.

..في الظهيرة تهادى إلى الدنيا صوت الأذان، فسكت فجأة صخب الخارج، المختلط القادم من النافذة الصغيرة المغلقة، وتلاشت تماما أصوات العيال الذين كانوا يمرحون منذ قليل بلعب الكرة والاستغماية في الحارة الضيقة التي لا تتسع لمرحهم، انفتح الباب ببطء مصحوبا "بتزييق" خفيف صادر عن مفصلة الباب، وتدفق تيار هوائي بارد نفذ بعزيمة من الفرجة الصغيرة التي حدثت، أحسست بالشتاء يسرع ناحيتي ويهم بلمسي، كنت شبه عارٍ إلا من "سيلب" وحيد نحيف يتحفظ على عورتي ويجاهد ضد إفشاء ذكورتي، لحظة البرد الطارئة التي دخلت الغرفة علي حين غفلة أمدتني بانتعاش لا يحتمل..

..منذ أن تركت نعاسي وأنا أفكر في العرض الشجاع الذي عرضه عليّ "الأستاذ أنسي"، وكنت أسأل نفسي هل "بسمة" تعرف بهذا العرض؟! وهل ترضى بتصرف والدها الذي أتفهمه جيدا، لكن هو أوضح أمامي مرارا أن "بسمة" لا تعرف شيئا عن هذا العرض، فقط بخبرة الآباء الحكماء عرف ميلها لي وقبولها، ولأنه يدرك أن حصتي في الاختيار تقلصت، مثلي مثل ابنته التي أصابها الصمم، جاء ليلحقني من العزلة التامة، جاء وهو يمسك في يده نصيبا جديدا يريدني أن أتقبله، وكنت حائرا، وبدأت الأمور تختلط ببعضها في رأسي، هل أقبل، وكنت أردد في أعماقي: "ومالها بسمة؟".

..وثبت في مكاني أحدق في ظلام معتدل اعتادني واعتدته، وكلما نضجت في رأسي فكرة القيام والمجابهة والخروج للعالم، أحبطتني

متعة الكسل، وثقل الجسد المريض والدفء الودود في الفراش..

..وغرقت في جملة من الاحتمالات التي سريعا ما انتشرت كالدجاج المشاكس في رأسي، منذ أن صحوت والمواضيع تتهيج في رأسي، ثم تعود لتخمل كحلم قديم بالكاد أتذكره، دائما الأشياء تبدأ في غزوي وهي في هيئة صور وكتل وأحجام، ولما أستطيع لجمها وحسمها أو تأجيلها، تلف لي من طريق آخر وتدخلني وهي أكثر إلحاحا وعنفا، فتبدأ في التجرد والتخلي عن مجسماتها وأحجامها لتصير شبحيه يصعب التصدي لها أو إمساكها، لتستمر مؤثرة وضاجة في رأسي..

..هي أفكار تحتني على التلاقي معها في مجادلة حتمية، أو صراع، الكتل والأحجام والتجسد والظهور، لا يخيف أو يؤرق الشخص، لأنه في نهاية الأمر أمام ظهور بيّن وواضح، يستطيع من خلاله أن يحدد أبعاد الخصم، ويرتب له مجابهة تساوي حجمه، لكن الذي يخيف ويؤرق ويقلق، هو كل ما ليس بشيء، ما ليس بماهية واضحة جلية، لذلك نهضت من أغواري السحيقة أفكار جمة وجلست بجواري على السرير كأشباح شريرة تبغي تخويفي أو قهري أو مداعبتي مداعبة فظة، وهذه المواجهة تنتهي دائما بشروخ جديدة تصيب أعمدتي، وتترك طعما فاسد المذاق في حلقي..

..وكل الكتل الكبيرة والمجسدات العظيمة فوق الأرض، قامت في البدء من محض "لا شيء" نستطيع لمسه أو الإمساك به، ليصير اللاشيء هو خالق الشيء المجسد، اللاموجود أوجد الموجود، وهذا يبرر لماذا كل عظيم نجده في حقيقته خفيا، تحفه السرية ويحتفظ بحقه في الغموض، بداية من "الله"، ووصولا إلى الإنسان الروحي واللحمي في

ذات الوقت، الروح أين هي إن كانت موجودة بالفعل؟ خفية غامضة سرية، غير موجودة..

..ومعجزة الجسد - برغم أنه كتلة وصورة - تراه يخبئ أشياءه المهمة في عميق العميق، ويسرسب دمه الجاري في فضائه بخبث وسرية ودهاء دفين وبلا أدنى ظهور وكأنه غير موجود تماما.

..يحدث ذلك مع البشر أيضا، فالعظماء منهم لا تجدهم في الطريق العام أو على قارعة الأماكن، بل دائما هم مختفون غير موجودين، ونحن نصاب دائما بمرض البحث عنهم وفي أغلب الأحيان لا نوفق في العثور عليهم.

..المهمون دائما في خلوة مع المحاولة، هم في خفاء الإنجاز، يناقشون الخافي من الأسرار، يدافعون عن الدنيا ويحاورونها ويثرثرون معها ويضبطون القوانين، حتى تظهر الراحة للعيان..

..المهمون يتربصون بالمحاولة ليخرجونها من بطن المجهول، المهمون يعشقون أن يختفوا في معاملهم من أجل إظهار قدر من راحة تمس المتعبين والمؤرقين، هم هناك في معابدهم ومعاملهم ومختبراتهم من أجلنا نحن البشر، إنه الغياب المهم حتى يتم إضافة مزيد من البهاء فوق ملامح الغد الجديد، هم يختفون من أجل أن ينجحوا في إظهار ما هو خاف عنا نحن المعلنين، كخيبة وأمر واقع لن يتغير بأمثالنا المشهرين على الملأ..

الاختفاء أمر لابد أن يعاد التفكير فيه مجددا ..!!

..العظمة في الخفاء، وليس في البيان والظهور والتبدي والانبثاق والوضوح، وكلما هذبت نواياك وأخفيت رغباتك المدنسة هدأ العالم من حولك، صرت أنت شيئا مهما ومحببا، فقط أخفي شيئا اسمه الشر بداخلك، أفعل ذلك وسوف ترى بأم عينك كم أنت صرت عظيما برغم كل ما أخفيته من معان كانت في حقيقتها تواقة لمهاجمة الخير الذي بداخلك وحولك..

..والأشخاص الغائبون المختفون عن الحضور، دائما ما يكونون، أشد حضورا وتأثيرا عن آخرين حاضرين بالفعل..

..خفاء!! هل يعتبر هذا خفاء، أم حضورا، بسياقات مختلفة غير معتادة،

..ومثل تلك الأفكار بعضها تنطط من حولي وأصدر إزعاجا، وأكرهني على محاولة إعادة النوم مرة أخرى، لكنني لم أقدر على دخول النعاس من جديد، فسعيت لمناقشة وترتيب أشخاصي الهلاميين الكثيرين الذين قاموا من داخلي وبدأوا في مجادلتي ومحاولة مضايقتي..

..أفكاري أشخاص شبحيون، مزعجون دوما لنفسي..

..ثم كيف أنحي أمر صممها من الموضوع؟!! وهل فعلا هذا الأمر لا يمثل لي عائقا في قبول "بسمة"!! وكنت حائرا في أمري، في لحظات أستطيع أن أتسامى عن مثل تلك الصغائر، وفي لحظات أخرى أتوقف أمامها، وأنا أتخيلني بلا صوت أمام امرأة فاتنة بالفعل، فمدام هي طرشاء، فإذن أنا أخرس، كيف أدخل إلى امرأة لا تسمعني، وكيف هي تأتي إلى رجل لا ولن يتكلم معها في مقبل الأيام!!، وأحيانا أدين نفسي،

وأتساءل عن مداخل أخرى للتلاقي، قد تكون أعمق من السمع، والبصر والكلام، وكيف أنحي كل هذا، وكنت لا أجد إجابة ما شافية، وتساءلت: أين مكانة الروح، ذلك الشيء الذي دائما ما أتشدق به من حين لآخر، وكيف يمكنني أن أهمش هذا الكيان النوراني، وأبعده عن الموضوع، وكانت لـ"بسمة "طلة حلوة، وروح لها حضور آثر".

..وهذا التلكؤ في تحديد الاختيار يرجع لغرابة العرض، أم لـ"صمم" بسمة، أم لفقداني للاتساق الداخلي، أم هي الظروف المعاندة، التي استطاعت أخيرا أن تطيح بي، وتجعلني شيخا عاطلا وبالكاد يسدد احتياجات التبغ والدخان..

..أم من أجل هذا جميعا، لم أستطع أخذ قرار صائب، وظللت طائشا بين الاحتمالات العديدة المحيرة.

..وحين انفتح الباب بمهل أمومي عارم، كنت قد نجحت لحد كبير في إرجاع أشخاصي الشبحيين، الثائرين إلى عتمة جوفي المعتادة.

..ومسني بعض التفاؤل من الباب المفتوح، ونجحت فعليا، في إخماد العصيان ضدي، انتصرت تماما وقتما ترامت على الأرض اللينة شريحة فضية من ضوء الصالة، وأنا أعتدل كانت "صبحية" قد دخلت وألقت عليّ سؤالها عن صحتي، من خلف شقيقتي ظهرت أمي، جاءت من دكاننا وتطلعت مليا في ملامحي ثم تجاوزت "صبحية" ودخلت بكوب من اللبن، وجلست عليّ حافة الفراش وهي تمد يدها لي بالكوب، فقلت أحتاج لنعناعك يا شيخة، وخرجت "صبحية" إلى الدكان لتلبي طلب أحد الزبائن..

وكلمتني مبسوطة الملامح..

– نوم العوافي، خد اشرب، دي أحسن من الشاي.

– ...!!

مش حتبطل العادة دي!!

– ...!!

– مش كفاية اللي فيك، متعرفش تنام إلا عريان!!

–...!!!

– محدش بياخد منك الوجع..

..جاست في أرجاء الغرفة الضيقة بمهل يناسب عمرها، ونشرت نظاما كنت قد عبثت به من قبل، وسريعا تبدلت أشياء الغرفة إلى وضع أفضل، وتطاير الغبار الخفيف من فوق صور الأحباب، وتبدت إشراقة واضحة فوق إطارات القديسين الكبيرة، المعلقة على الجدران، وتراصت كتبي الكثيرة بترتيب فوق "الترابيزة" وجمعت أوراقي المتناثرة هنا وهناك، ووضعتها فوق الكتب، وبدأت تلقي إليّ بملابسي، قطعة قطعة وتدفعني بسرعة ارتدائها حتى لا يدخلني البرد ويفتش عن أماكن جديدة للألم..

..وكانت مع كل خطوة تخطيها تمنحني دعاءها الواسع كرحمة أنتظرها، ثم قالت جملة مضتني بحدها الرهيف "أنت الحيطة المسنودين عليها أنا وأخواتك يا ولدي".

..ومن يا طيبة سيسندني؟ من سيساندني أمام طغيان الأيام وعدم

الاكتمال، مكتوب عليّ أن أتسلم ترسا وسيفا صدئين، من السيد الوالد، الذي ذهب إلى سفره البعيد، وتركني لمواجهة حسمت من زمان، مكتوب عليّ أن أتسلم أشياء تالفة، معطوبة بالصدأ والبتر، وكلل العيون، وجشع الرغبات البليدة، والتهاب الأعصاب الغامض!! والخارج إليّ الآن كسول، يااااه كسول ومتخم بالغبار والسحب الفاسدة، وكيف لي أن أصلح كل هذا الركام من التلفيات النافذة في صميم حراكي، لأصبح في نهاية الأمر مثل واحد شاخ قبل أوانـه؟ لأصير شخصا يجتر حكاياته مع "الست نادية" مثل العجائز؟ لكنني مثل الجميع يجب أن أحاول مادام كتاب الدنيا مفتوحا أمامي كعمر لم ينته بعد، مستوجبا على السير مثلهم، مادام الأرض قادرة على قبول ثقل ظلي، وتستوعب ما أفتحه فيها من مشاوير قادمة بإذن الله، ينبغي عليّ أن أمتثل للاستمرار الذي لم ينقطع بعد بأمر جلل كالسرطان أو الدهس في الطريق العام أو الموت الفجائي، أنا مثلكم جميعا، على أن أعيش وأستمر في حساب الأيام، وعليّ أن أحاول جادا لأنجز خلاصا يسعنا جميعا، جميعا، فقط عليّ أن أحاول، وأمشي في سكة الدنيا الواسعة، وأحبكم كما هو منتظر من مخّلص، مخلص يحب الطيبين وقساة القلوب ويسلم نفسه للصلب بناء على رغبات الجميع، اطمئني يا "أم" فيبدو أنني لن أصعد في هذه الأيام، موسم الحصاد فاتني هذه المرة، ولعلي إلى الآن ليست بكفاءة موت حقيقي يحدث لي، يبدو أنني سأقيم بينكم قليلا، لا تحزني أو تحبطي من أجلي فأنا بصحة جيدة ومازلت أحط في صدري مكيدة تكفي للعمر القادم..اهدئي يا "أم" وصممي على الفرح لمرة وأنهري من أنحائك هذا الهم الثقيل الذي يعاقبك

دوما بالأسى، اهدئي، من أجلي اهدئي، وهذا الإخفاق الذي يحيطني، وتلك المحاقن الكثيرة وعلب الدواء، ما هي إلا فاتورة زهيدة لابد أن يدفعها الجسد، مجرد ضريبة عادلة، هي رسوم غير باهظة في نظير عدم الاختفاء والصعود النهائي، إلى الآن غير باهظة، صدقيني..

..ومنذ ثلاثة أيام قلت للدكتور ملهوفا مستنجدا..

- الحقني يا دكتور، حاموت يا أخي..!!

- أتفضل هنا لو سمحت...

وراح يفحصني باعتناء وصبر ورحمة، وبعد فترة من تقصي دقيق لأخبار الجسد، وقراءة متأنية "للأشعات"، ونتائج التحاليل اللتين كنت قد أجريتهما سابقا بناء طلبه، وجدته يفاجئني ويكذب أنباء اللحم والعظم والمفاصل والأربطة، ليعلن إيمانه الكامل بالعلم وبالأخبار الجديدة التي قالتها الآلات الطبية عني، كذب كل أعراضي، وتأوهاتي، وآمن بالورق الذي صار يقرأه بإمعان..

..في كل زيارة لي إلى الطبيب ليعالج جسمي، يقول لي كل شيء فيك جيد، الفحوصات والأشعة تقول إنك كما ينبغي أن تكون، "إيه مالك؟!! والله أنت حاجة غريبة يا جدع؟، حاجه غريبة خالص يا جمال؟".

..وفي المرة الأخيرة صدق الأجهزة الإلكترونية المعقدة، وأوشك أن يكذبني، أنا صاحب الألم الكبير، وانكسفت، وسرت ريبة تامة بيننا، وأحسست بأنه يوشك على حل الموقف الملتبس بينه وبين جسدي، بأنه سيختار، حتمية طردي من غرفة الكشف، أو إنه على الأقل سوف يطلب مني عدم قدومي للكشف عنده مرة ثانية، لكنه خرج سالما من ريبته،

وتعاطف معي قليلا، وأمسك بالقلم، وفتح صفحة جديدة في دفتره، وفكر كثيرا، وهو يرنو لي بوجه تراجعت فيه كميات العلم الوفيرة التي درسها، وبرزت منه ملامح إنسانية دافئة، وقال لي "علاجك مش عندي يا جمال، بس برضه حنجرب الدوا ده ..."، وهم يكتب كلاما أجنبيا قليلا فوق صفحة الدفتر البيضاء..

..وهو يسلمني "الروشتة"، كنت قد عزمت، على طرد نفسي من عنده، وتغييره كما غيرت من قبله أطباء كثيرين، وهل سيكون هو أغلى أو أفضل من الدكتور "عادل عياد" مثلا، أو الدكتور"مجدي السيد"، وغيرهم ممن تاهوا في متاهتي، وفي كيفية تشخيصي وتشخيص ألمي!!

..بعد فترة انخفضت الآلام المبرحة، وخضعت لحقن المسكن، وأنواع شتى من البرشام، ولكن تبقى في رأسي هم البحث عن طبيب آخر، يهتم بإعطائي شفاء كاملا، يخلصني من تلف يتأهب للتوسع والكبر والجنوح، ذلك هو المرض يهدم أركان الجسد، وينشر في الروح شائعة اسمها الهزيمة، ..

ونادت عليّ "صبحية" لتتمم نظافة الحجرة، كانت أعقاب سجائري الكثيرة ملقاة بفوضى على الأرض، فجاءت "تهاني" بالمكنسة، وهي تخبر أمي بأن "صبحية" مازلت تبيع للناس، ومالت على البلاط باستسلام وشرعت تكنس، تهاني حزينة، انخفضت ملامح وجهها، وفقدت قدرا من جمالها القديم، وصارت مثل أخت صغرى لأمي، وليست كابنة تجاوزت الثلاثين بقليل، ومسالمة كعادتها، وطيبة حتى وهي تكنس الأرض، وكيف لهذا الثور، أن يعتدي على وداعة بمقدار

تهاني؟ وكيف أؤدبه، وأرجعه عن أفعاله؟، تختلف عن أمي بأنها لم تأخذ منها صرامتها وقت الاحتياج، أمي صارمة وقت أن يتطلب الأمر ذلك، وقاسية كجرانيت لما يتطلب الموضوع هذا، وحنون ومعطاءة ودفاقة، طالما الأحوال في قيد زمامها..

..لمت زبالة الأرض في كفها وخرجت كأيقونة لإحدى القديسات الحزينات المعلقات على جدران البيت، قبل أن تكمل أمي حديثها معي، عادت تهاني وهي تحمل ابنتها الصغيرة، وأطل من ورائها ابنها "يوسف" وهو بزي المدرسة، وسألتنا إن كنا نريد منها شيئا قبل أن تعود إلى بيتها، وهي مقبلة على الذهاب طلبت مني أن أداوم على زيارتها، كانت تطلب مني الغوث، وهي تكلمني شاهدت رغبة واحتياجا للحماية، وهي تقوم وتخرج خلف تهاني لتودعها، تركت لي جملة قصيرة مقتضبة، "جرجس النقاش" جاني الدكان، وكان عاوزك ضروري.

(46)

..وأنا أدخل برأسي بين ركبتي، وأسند ظهري على الجدار، وأعتنق صمتا تاما، كنت أسمع الثلاثة يتجادلون، كان "مرتضى" يجتهد في تفصيل ذنوب وخطايا "تهاني" التي نجحت في صنع بكاء يتساوى مع محنتها، وكان كل وقت، يستشهد بابنه "يوسف" أو بالصغيرة "مرثا"، التي تنطق الكلام بصعوبة، فيرد "يوسف" بصوت مختلج، ويؤكد صدق أبيه، ولم أسمع ردا من "مرثا" التي تبرك في حجر أمي فزعة، وأخيرا يخبطني صوت "مرتضى" بقسوة، آه سامع يا جمال، قول لخالك يا يوسف، فهمه علشان هو دايما ظالمني، ويعتدي على صمتي هذا الحيوان، ويعلن انتصاره المزيف من حولي ويكمل عليّ..

..رفعت دماغي وئيدا، ونظرت حانقا إلى الخارج عبر سقف الصالة المفتوح لنصفه، كان اضطراب في المشاعر قد دخلني وهزني بعنف، حنق حقيقيي تسلل إليّ وسيطر على جميع نفسي، بعد أن تجتاحني موجات الغضب، يعقبها توتر مرير أعيشه، بعد أي انفعال كنت أعاقب نفسي على جسارتي بالندم والتوتر والخوف، وكأن اقترافي لداء الشجاعة النادر لسوف ينالني بسببه قصاص مروع فأخاف وأندم، وحاولت وأنا قابع في مكاني، أن استعيديني ثانية، غضبي لم يكتمل تجاه "مرتضى"، نساء البيت منعتني، ما أقساها لحظة القذف الأخيرة

حين تمنع عنوة، ويسد مسارها بفعل فاعل، وكنت أبحث عن سكينتي وهدوئي، وتركتهم وخرجت من المشهد المكرر، الممل الذي أمامي وذهبت إلى السماء الشاهقة..

..وبعد قليل رجعت وبحثت عن أبي المحارب الباسل الذي ارتفع إلى الأعالي مبكرا، عثرت عليه في زاوية من زوايا البيت، كان معلقا ومحبوسا خلف الزجاج المترب، تلك هي الصورة التي التقطناها له قبل أن يسافر بقليل، كان ينظر إلى الفراغ بحدة، المياه البيضاء لم تمنحه فرصة كافية ليحدد إلى ماذا يرنو، تفتت المقصد وضاع الهدف، وبقيت حدة ما مترسبة في قاع البصر ليس لها ما يبررها، صارت مثل صرخة يتردد صداها في أعماقي كلما نظرت له، صرخة إدانة موجهة إلى شخص ما، وربما أكون أنا ذلك الشخص المقصود، كنت حلمه بالخلاص، أبى كان يقاوم من أجلي، كان يتحايل ليؤخر موته حتى يراني كما كان يتمنى، مشكلتي مع والدي الغالي أنه لم يكن يرى الصورة كاملة، لخلل ما كان يرى طرفا من الحقيقة، قبل أن يموت كان يحملني مغبة إخفاقي حبيبي، وكأنني خلقته لنفسي..

...ومنحتنا جميعا واحدا مهما مثل "مرتضى" زوج شقيقتي الغالية تهاني، أنه يا غالي "مرتضى" نعم هو "مرتضى" أحد أخطائك الصغيرة التي لا يمكن نسيانها، وماذا أيها الميكانيكي الصالح، تقول للرب حاليا..

..أنت كنت تنبش عن خلاصك فاختلت أفعالك، ووقعت من جيب سترتك الحكومية الزرقاء، أخطاء، بعضها بضخامة واحد مثل "مرتضى"..

..قل لي ماذا تقول للرب الجالس في ملكوت مجده الآن؟ وكيف تخلق أعذارا بقدر النعمة التي ترغب في حصولها لك؟ كلنا خطاة يا أبى، حتى وقت أن جعلت من نفسك شاة ضعيفة، كنت تصنع خطيئة، حتى وأنت تعطي خدك الأيسر للطم، كنت تقرر بدون قصد، أن تكون عاصيا كبيرا، خذ بالك يا والدي، ليس كل الحملان أبرارا، ليس كل الصالحين قدام الناس، يكونون صالحين في عين الرب، وليس كل من يقول يا رب، يا رب مستوجبا أن يدخل ملكوت السماء، الرب الكبير يحب أن يرانا ونحن نصنع علامات واضحة فوق الأرض لا يمحوها فناؤنا القادم..

.. لا، لا، لا، صغير!!، صغير إيه يا عم!!، بدون مجاملة يا أبي "مرتضى" خطأ كبير خلفته وراءك، ولم تستشرني كعادتك، ولم تصنع مني موافقا أو معارضا، عتم عيونك المريضة يا أبي أصابني بألم جديد، أصابني بمرتضى، لم تستشرني وزوجته تهاني الوديعة، وجاء قرارك - قديما- ليؤكد لي، أن مناطق الصقيع المباعدة بيننا مازالت آمنة وفي زيادة، أنت فعلت ذلك الفعل بغير أن تدري أو تفهم، وأنا الذي فهمت، ماذا فعلت؟!! فهمت وقعدت في مكاني في "الحكروب"، وثبت في طابور الانتظار الطويل، ولم يسعفني فهمي، وصرت أبلها بحق، وأحتاج لمن يخلصني من تلك المتاهة، وسعيت، وحاولت، لكنها كانت بالحق محاولات غير جادة، إلى الآن هي غير جادة...

..وكنت مقرفصا بجوار الزير، ومقبلا على اختناق ذاتي، وأتنفس بصعوبة شديدة، ولم يشعر بي أحد، أكاد أن أموت بصمت..

..وقام مادا كرشه إلى الأمام، وأتاني مسرعا، وكبس عليّ، طالبا أن يقبل رأسي معتذرا، وسحب الأكسجين المتبقي من حولي، وشعرت

obeikan.com

باختناق حقيقي، دفعته بقوة أخيرة متبقية، كنت مصمما أن أعيش، جاءني ثانية، مصرا على موتي، وأمسك برأسي مصرا أن يقتلني، وفكرت مليا وأنا بين الإغمائة والإفاقة، في إخراج "قرن الغزال" وتعليقها في مقدمة كرشه المعتدي على هوائي وأكسجيني الشخصي، كنت أدافع عن نفسي يا عالم، وما المعصية التي ارتكبها؟! كنت أرد هذا الاعتداء السافر عن عاصمتي، وكان يجيئني ثم ينصرف تبعا لدفعي له، وكلما طردته من مساحتي، جاءني مرة أخرى، وهو يبتسم خالطا قرار أسفه بقرار إعدامي، وألقى فوقي أرطالا كثيرة من اللحم الثقيل المهلك، وكانت نحافتي تزداد في تلك اللحظة وأكاد أن اضمحل كليا، وشممت بالكاد رائحة عرقه المتخثر..

..أوشكت أن أدخل يدي إلى "سيالة" جلبابي المنزلي، لأخرج بالموت المستعد لتأدية أي خدمة لي، لكنه أتاني وهو أكثر سطوة هذه المرة، وباسطا جسمه الكثير حولي، تكوم فوقي كخاتمة حتمية، أمسك رأسي بكفيه العريضتين، وضخ صهده وعرقه، وبقايا من عطره في أنفي، ونالني، نالني تماما..

..وأنا أسحب سلاحي من بين طيات ملابسي، كنت أسمع شهيقي يأز في صدري بصوت عالٍ، أسحب الهواء إلى صدري فلا يستجيب لندائي، الهواء المجاني شح وندر في المكان، اختنقت، وسابت أعضائي، تركت يدي النصل الذي لم يخرج تماما بعد، رأيت الدنيا تظلم أمامي، فقط أشباح تسارع لنجدتي، أنا أنكفئ على وجهي الآن، أسقط مبطوشا على الأرض، وترديد لأصوات غامضة ونواح عالٍ وصراخ، وصوت "فيروز" يصدح بحزن ويعلو جميع الأصوات "ضاعَ شادي، ضاع شادي..."،

obeikan.com

اختناقي اكتمل، وغابت ملامح العالم من أمامي، فقط أبي أراه وهو ينزل من الحائط بكامل هيئته ويسرع إلـيّ، يعدو ناحيتي مفجوعا ملهوفا، عيناه تبدوان سليمتين من أي داء، لامعتين مملوءتين بحب عارم لم أره من قبل، وراح يحتضني بشدة ويبكي، دمعه الدافئ أشعر به وهو يسقط على وجهي، وصوت نشيجه يأتيني بلا شك..

- ضاااااع شادي!!!

obeikan.com

(47)

(من منحنا الفرح، يمنحه لكم أيضا)

فمررت بك ورأيتك، وإذا زمنك زمن الحب فدخلت في

عهد معك فصرت لي وصرت لك،

S+ m

أحببتنا فجمعتنا برباطك المقدس وتدمجنا لكي نصير الاثنان واحدا، بكاتدرائية رئيس الملائكة مخائيل تدق الأجراس معلنة عن صلاة أكليل،

الابن المبارك	الابنة المباركة
مقبل حكيم أسعد على	صبحية يوسف فهمي

وبهذه الفرحة السماوية يتشرف كل من:

المقدس	والأستاذ
حكيم أسعد غبريال	جمال يوسف فهمي

بدعوة سيادتكم والعائلة لحضور هذا السر المقدس بمشيئة الرب في تمام الساعة السابعة مساء يوم الأحد الموافق 8 / 9 / 2001

والحفل بحمام السباحة أمام نادي التجديف، والعاقبة عندكم في

obeikan.com

المسرات

وليملأ الروح القدس حياتكم بالأفراح المقدسة.

تلغرافيا: حكيم أسعدغبريال و جمال يوسف فهمي، حكروب الجبل / أسوان

وليزيد الرب حياتكم نعمة.

obeikan.com

(48)

..ولما طالت فترة مرضي بعض الشيء، أعطت نادية السيارة "البيجو" الأجرة لسائق آخر، واعتذرت بلطف، وهي تقول إنها لا تستطيع أن تأخذ السيارة من السائق الجديد دون سبب مقنع، وكادت تقيم لي حفلة رفت مثل التي أقامها لي "المصنع"، وهو يشردني إلى الرحاب بلطف، وتقريبا كانت ستنادي نفس "الشيف" الأبيض النظيف، ليمنحني علبة حلوى كرتونية ملفوفة في السلوفان اللامع، وأنا أنزل من عندها خائبا، صرت أفكر إلى أين أذهب؟!! وخصوصا أنني مشتاق للخارج بعد فترة كمون استمرت ما يربو من أسبوعين كاملين وأكثر، إلى الأستاذ "أنسي" مثلا، لا، لا أستطيع، فالرجل ينتظر ردي بخصوص مسألة ابنته، وأنا حتى الآن بغير رد شاف، لم أصل إلى قرار قاطع بعد، ويمضغ أفكاري التردد والمراوحة بين القبول والرفض، وبرغم هذا أحس بوحشة غامضة تجاه "بسمة"..

..طيب إلى محسن، محسن بعيد، هناك في "المحمودية"، ومنذ مدة ذهبت إليه مرتين متتاليتين ولم يفتح لي الباب، كان "مسعود" قد قال لي كلاما مبتسرا عن حالته، فانشغلت عليه، وعندما ذهبت إليه لم يفتح لي، في المرتين كنت أشعر بحركة خافتة داخل الشقة، على

ما يبدو كان لا يريد أحدا، وتجاهل إلحاحي في الدخول ومقابلته، أنا متأكد أن محسن كان بداخل بيته في المرتين، لكنه كان يرفض أن يقابلني، في المرة الأولى سمعت دبيب أقدام سريع، يحاول صاحبه أن يجعله غير مسموع، ورأيت عدسة العين السحرية الموضوعة على الباب، وهي تظلم تماما للحظات، ولم يتم فتح الباب، وعادت نفس الخطوات الحريصة، من حيث جاءت، وظللت أرن الجرس وأقرع بيدي على الباب لمدة كبيرة ولم يفتح أحد، في المرة الثانية حدث نفس الشيء من محسن، كنت قلقا عليه منذ أن رأيته ذلك اليوم وهو واقف بجوار صندوق القمامة وغير مبال بالليل البارد والطقس السيئ، لذلك عزمت على زيارته، لكنه طردني بصمت، لم أغضب كثيرا من محسن، وعذرته، عليّ مساعدته وقبوله حتى يعبر أحزانه..

..من جراء هذا خشيت أن أضرب مشوارا طويلا إليه، ليقابلني في نهاية الأمر بنفس التجاهل الذي حدث سابقا..

..أذن إليّ "عبد الوهاب السماك" ذلك الصديق القديم الذي كان ضلعا مهما في شلتنا التي انفرطت مع الأيام، يرحم الأيام يا عبد الوهاب، طلعت لي زوجته وقالت إنه في "بحيرة ناصر" منذ يومين، ولم يرجع بعد..

..استبعدت جرجس تماما من رأسي..

..ولماذا لم أفكر في "مسعود" من البداية، توغلت في حنايا الجبل، حتى وصلت، طرقت الباب، لم يتأخر وفتح سريعا وكأنه ينتظرني أو ينتظر ضيفا آخر، وطرح لي رأسه من حافة الباب ونظر لي بتمعن، كان

متذمرا من قبل أن يراني، وأطياف من الحزن قابعة في ملامح وجهه، ولحيته الكثة التي لم يحلقها بعد، منحته مظهرا مكفهرا وناقما، رحب بي ببرود، وأدخلني، سألته عن أمه فعرفت أنها مريضة ونائمة، ولوحده قال:

- لولا أمي كان زماني غرت من هنا...

- مالك يا مسعود!!

- زهقت يا أخي وعاوز أهج من البلد كلها..

- وتهج على فين المرة دي، اليونان برضه...

- يونان إيه بلا نجاسة، المرة دي ناوي على السعودية بإذن ألله عز وجل..

-. آه ...!!

-..ححاول أشوف حل في مشكلة الوالدة، واطلع على السعودية..

- آه، حل!!

- في دار جديدة للمسنين فتحت في أطلس..

- آآآه، المسنين، آه، جميل، جميل...

-. بيقولوا إنها دار ممتازة...

- دار ممتازة آآه، إنت باين عليك يا مسعود فيه حد شخ في دماغك!!

- وإنت مالك بيا يا أخي ماتسبني في حالي...

..وتغاضيت عن خشونته معي، واستدرجته في نزهة، خرج معي ممتعضا، لم يكن خروجا بصحبتي بقدر ما كان نوعا من التخلص مني، هكذا شعرت، ربنا يسامحني، الشكوك لعينة حين تنتاب الشخص، من عندها تبدأ تأويلات خبيثة قد تطيح بعلاقة راسخة، وتضر بأحاسيس شفيفة، ربنا يسامحني على شكي في مسعود..

..كنت أريد أن أفتح معه موضوع "بسمة"، وماذا أقرر، كنت مرتبكا وأريد أن يدلني أحد، لكن حالته المزاجية المقفلة جعلتني أتراجع، وحاولت أن أرفه عنه كربه فعرضت عليه مترددا "سينما الصداقة"، وبعد رفض، وتردد ومراوغة، أخيرا تساهل معي ووافقني، قطعت تذكرتين ودخلنا إلى الفيلم الكوميدي، ولم تفلح مواقف و"إفيهات" أبطال الفيلم في التسرية عنه أو إضحاكه، قبل أن نصل إلى منتصف الفيلم عرض على مغادرة صالة العرض مرات عدة، وكنت أشده من يده بقوة حتى أعيده إلى المقعد ثانية، في المرة الأخيرة، وقف بغتة وخطى خطوات واسعة بعيدا عني ولم أستطع أن أثنيه، وخضعت لرغبته وشاركته المغادرة، يبدو أن حيل صناع الفيلم لم تنجح في إضحاكه، وظل جاف المزاج ولم يجارِ الأحداث الفكاهية الخفيفة، كان مفصولا عنا وعن الممثلين، ومتذمرا ومالا ومتزمتا لأبعد الحدود..

..وكان منذ قديم الزمان، في مدينتنا الصغيرة خمس دور عرض سينمائي(سينما بدر ـــ سينما ابو شوك - سينما الصداقة - سينما قصر الثقافة - سينما مصنع كيما - هذا بخلاف بعض دور العرض المؤقتة غير الثابتة، مثل سنيما صحاري).

..جميعهم قفل أبوابه منذ سنين فيما عدا سينما "الصداقة" بميدان المحطة، تلك هي دار العرض الوحيدة الماثلة في أفق الميدان كبهجة تأبى الانـزواء مثل أخواتها، وبمفردها صارت تكافح وبعناد بطولي، إغـراءات استثمارية أكثر ربحا، وتلك "السينما تفرض على نفسها أيضا مكافحة تقييما أخلاقيا أصوليا، راح يصفها كأداة لنشر الفجور والفسوق في المدينة،

..وأول دار عرض تهاوت منهارة، بعد أن أصيبت بواحد من الخياريين السابقين، هي سينما "بدر" التي انشأت في أوخر الستينيات تقريبا، هي سقطت خائرة في منتصف الثمانينيات، وصار سقوطها كبشارة قادمة من بعيد تعلن عن بدء غلق منافذ الفرح والتفكير والمرح، ومهدت "سينما بدر" باستسلامها هذا وتحولها إلى خرابة كبيرة موحشة، لدخولنا في عصر من البخل والخشونة، إنه عهد جديد صارت فيه الغلظة هي العامل البطولي، الذي يعتدي أول ما يعتدي، على بهجتنا، ويفتك متعمدا على كل أمر ينير العقل والمشاعر..

..وتوالى من بعد إغلاق سينما "بدر" إغلاق بقية دور العرض، ومن الثمانينيات إلى الآن كان الفتك بدور العرض ناجحا وحاسما، وكانت التسعينيات تمثل ذروة هذا الفتك المبين "لسينماتنا" الجميلة، التي طالما عالجت أروحنا بكثير من السعادة ونحن صغار، وطالما أيضا أدخلتنا في جدلية وجدانية وفكرية ونحن كبار..

وظلت سينما "الصداقة" صامدة، تنظر إلى أخواتها القتلى، فتصر على أن تثأر لنفسها، وكانت تنتقم لنفسها، فقط بالاستمرار.

obeikan.com

..لذلك بتنا أنا والصحاب، نشجعها من وقت إلى آخر لتقف في وجه الظلام الذي يريد أن يقعد على كراسيها، ويجعل من خيوط العنكبوت أحد متفرجيها الدائمين..

..كنا نلم بعضنا من حين لآخر وندخلها ونحن نمارس نفس الفرح القديم، حين كنا عيالا صغارا..

هذا المساء اصطحبت "مسعود" إلى سينما "الصداقة"، وشاهدنا فيلما لأحد نجوم الكوميديا الجدد، والذين أطلقت عليهم الصحافة في ذلك الوقت، مسمى "المضحكين الجدد"، كان "مسعود" يتلقى باردا تلك النكات و"الإفيهات" التي كان يقذفها أبطال الفيلم في وجوهنا بفجاجة، كنت أراه وأنا جالس على المقعد المجاور، وهو يرمي برأسه إلى الوراء بعنف معترضا مستخفا بما يحدث فوق الشاشة، وكنت أرنو له مستغربا من تلك المغالاة في الاعتراض والغضب، في حين كنت أتابع الفيلم، وأنا أتذكر أبطال السينما السابقين لهذا الجيل، وكيف أصبح الصباح فوجدوا أنفسهم عاطلين بلا بطولة يقومون بها تجاه الجماهير، بل صاروا غير مرغوب فيهم تقريبا، وحيطان دور العرض الكبيرة، لم تعد ترحب بظهورهم فوقها، وهم الذين صالوا وجالوا منذ سنين في كل دور العرض المنتشرة في البلاد، وهل هذا التحويل والتبديل في لعب أدوار البطولة، كان يعد مطلبا جماهيريا ملحا؟! أم جاء مصادفة، مثل أمور أخرى كثيرة تحدث عفويا وبالصدفة، وبلا أدنى تخطيط!! أم هناك تفاصيل ودقائق مختفية ولا نعرفها، وتدخل فيها عوامل الاقتصاد، والسياسة، والحراك الاجتماعي؟!!

..أم تلك الفترة الزمنية الراهنة التي نحيا في رحابها، فيها من التداخل والخلط والاشتباك وعدم الروية، ما يتيح لأي أحد لأن ينهض ويقوم فارضا نفسه على الجماهير، طالما هناك "ميديا" إعلامية إعلانية جوفاء تسانده، بدءا من صناعة الفكر والسياسة، ونهاية بالفيديو كليب الغنائي والسينما..

..ولدهشتي بدأت أفلامهم تحقق أعلى إيرادات في تاريخ السينما، ودخل إلى جيوب المنتجين أرباح لم يكن ليحلموا بإحصائها أو تحصيلها في يوم من الأيام..

لماذا انفجرت الفكاهة الساذجة، هكذا بين الناس ولاقت قبولا منقطع النظير؟!! لماذا أقبل الناس على النكات وهي في صورها الجديدة الملونة؟ هل لأن الأغلبية أقلعت عن صنع النكات وتبادلها فيما بينهم؟ هل لأن ما هو موجود في حياة الناس من كآبة مزمنة، جعلهم يقبلون على مثل هذا النوع من الفن المسلوق، والمقدم في شكل وجبات سريعة، مخففة ومنقاة من أي شيء يوجع الدماغ، ويحض على التفكير؟!! فأنت صرت ترتاد السينما، لمدة تقترب من الساعتين، لتنسى كل ما كان ينغص عليك يومك، ويقهرك، أنت ستدخل إلى السينما لتعيش حالة من النسيان المقصود، والمدرب عليه منذ سنين، فأنت تناسيت حلمك القديم، وتطلعاتك المشروعة، واغترابك في مكان يشبه وطنك..

..وفي مثل هاتين الساعتين ستتناسى أيضا أسرك وحصارك ودفنك في شيء يشبه التنقيب المضني عن لقمة العيش، صار البحث عما يسد الرمق هدفا مؤرقا وعذابا لكثيرين، في تلك الأيام الصعبة، أن تعيش مستورا أنت ومن معك، شيء يشبه مخاطرة تغتصب يومك كاملا..

..أنا يا جماعة أتكلم عن السواد الأعظم من الناس هنا، في هذا المكان، ولا أتكلم عن مجتمع النخبة، أو"شيكولاتة "المجتمع، الذين ارتاحوا من تبعات ما أقول، وسندوا أنفسهم بالمشاريع الربحية الضخمة أو بالمراكز الوظيفية الفوقية التي تضمن لهم نفوذا ودخولا لا تناسب فعلهم فوق الأرض..

..أم الناس تاقوا للتغيير الذي دائما لا يحدث، فثأروا لأنفسهم، في قاعات السينما ثأروا لأنفسهم، وراحوا ينكلون "بالنجوم" القدامى الذين هرأهم الزمن، وأصابهم بالخرف، راح الناس مصرين يسقطون من فوق الحوائط العالية، أبطالا مكثوا في الواقع وفي خيالهم، أكثر مما ينبغي!!

..وهم حين ساعدوا المتفكهين الجدد، على الصعود إلى صولجان الحكم السينمائي، لم يكن هذا عشقا، وإقبالا منهم نحو الأبطال الوافدين من الأركان المظلمة، بقدر ما كان ذلك الفعل مجرد هتاف بالرفض ضد الذين كانوا ماكثين علي الحيطان المضيئة كقدر كئيب، ولم يتنازلوا عن إلحاحهم في مطاردة الناس بصورهم المضيئة ومواضيعهم المعتادة، وداموا موجودين كإشارة إخفاق مقيم، ورتابة مملة، ولم يمنحوا أكفاء آخرين فرصة ليتسلموا الإشارة منهم، ليسقطوا في نهاية الأمر سقوطا ثوريا..

..ليصبح في نهاية الأمر الثأر بمثابة ثأرين..

..الثأر الأول كان موجها إلى نجوم أخذوا البطولة كإرث مملوك لهم..

..الثأر الثاني كان عبارة عن عملية تعويضية تعبر عن احتياج الناس

لوقوع نفس الشيء في الواقع، ولأنه لم يتم فوق الأرض، أقامت الجماهير ثورة بديلة في قاعات العرض الواسعة..

..الجماهير ثاروا ضد أبطال سينمائيين عجائز مغلوب على أمرهم ولا يشبهونهم في شيء..

..وانقلب الوضع فتحول الممثلون إلى جماهير تتفرج على ما يحدث، لهم، وتحولت الجماهير الغفيرة، إلى ممثلين عتاة، يمثلون ويؤدون دورا يحبونه، ويتمنون أن يقوموا به في مكان آخر، أوسع وأرحب وأجمل، هو الحياة ذاتها.

..هي إذن قد تكون ثورة حقيقة، ضد كل ما يحض الجماهير، ويدفعهم إلى النسيان..

..هي إذن ثورة حقيقية موجهة إلى كل العلل والأسباب التي تدفع الجماهير إلى النسيان، نسيان همومهم وأوجاعهم ومراراتهم، تلك الهموم والأوجاع والمرارات التي تدفعهم من حين لآخر إلى ارتياد سينما سطحية هشة، حتى ينسوا، إنهم يسكرون بالضحك الفج المبرح..

..هي ثورة تعويضية، ثورة بديلة، ثورة حصلت واندلعت بداخل صالات العرض، صالات العرض فقط..

ولما خرجنا قبل نهاية الفيلم بثلث ساعة تقريبا، تمشينا معا إلى مقهى أم كلثوم، وأنا أخاطبه بأفكاري الكثيرة تجاه الفيلم وصّناعه، لم يهتم بما أقول، أشعل سيجارة ورمى بدخانها نحوي، وقال كلمات قليلة، صدمتني وجعلت شكوكي تحوم حوله، منذ فترة وأنا ألحظ "مسعود"

وهو يتحور، ويتشكل، في ماهية لم ترحني.

- كله فسق وفجور؟!!

- الفن، فسق وفجور يا "مسعود"، أنت جرالك إيه، مالك!!

-..وده فن ده،!!

- أيوه ممكن نتكلم في الموضوع من زاوية تانية!

-، زاوية تانية!! متتفلسفش ورحمة أبوك!

- أصلك أنت كده دخلت الحرام والحلال في الموضوع بدون داعي؟!

- الحرام والحلال لازم نخليه مقياس لكل حياتنا يا أستاذ..

- .. مش ممكن..

وصدمني "مسعود" بأفكاره الجديدة، وانكشف أمامي، ولم أصدق، وراح ينظر للأمور بعين واحدة، وكنا ندخل في جدال، ونخرج منه ونحن على حافة التشاجر، أحتد معي وخاطبني بطريقة "الدعاة الجدد"، الذين توغلوا في المحطات الفضائية، ونشروا نوعا مختلفا من التزمت والتشدد، نوع فيه الكثير من النعومة والأناقة، لكنه يسعى متخفيا في نفس الطريق الذي يسلكه "الأصوليون" والمتطرفون، هؤلاء المؤمنون بالعنف، ونصب العداء مع الآخر، وظهرت على "مسعود" علامات حقد موجهة إلى مناح عدة في الحياة لم أعهدها فيه من قبل، بدءا من السينما ونهاية بالصحف والكتب التي كنا نقرأها معا، ولم أصدق، وأسرعت مناقشا، محاولا إرجاعه، ولم أفلح، كان الزمام قد أفلت، الإلحاح اليومي يا جماعة، وانسحاب العقول المضيئة من

الساحة أفقدني صديقي الغالي مسعود، ذلك الهوس المرضي أصابه في الصميم، وصممت على المقاتلة من أجله، وكان يبخسني، ويتبرم من إلحاحي في طرح ما اعتقده وأراه، كان يصّغر ويسخف من حجم ما أقول، بأسلوب أربكني، كأنه ليس بصديق حميم لي، وكأنه يكرهني ويريد إضعاف تماسكي النفسي، هو أنا ناقص يا عم "مسعود"!! وأخذ الأمر بشكل شخصي وكأنه نزال عقلي قائم بيننا، وعليه أن يكسب الجولة بمختلف الطرق، وكيف نسيت وتحولت هكذا يا مسعود؟ وكم نحن ضعفاء أمام نكساتنا!! وكم نحن بؤساء أمام هزائمنا!! ونصير أمام جبروت الواقع قطعة من اللبان، وكنت صادقا جدا في محاولة الدفاع عنه وانتشاله مما توحل فيه، لكنه كان مقتنعا باعتناقاته الجديدة، ومعذبا بها لحد الصدق والندم على حياة ولت بمعاص ارتكبها، وكان ينظر لي في تلك اللحظات بقرف واسع وضيق كبير يوشك أن يجاهر به، ولم يغضبني أنه صار إلى ما صار إليه، بل الذي أغضبني، هو هذا الكره الذي ملأ قلبه تجاه أشياء كثيرة لا تحتاج منه كل هذا البغض، وظل غير موافق على أفكاري وتأويلاتي، واتهمني بأنني غافل وأخيرا بشرني بجهنم التي ستضم العصاة والخطاة والكافرين، ولم أصدق، وظل يكرهني وهو يكلمني بأدبياته المؤخوذة من الكتب التراثية العتيقة، ومن البرامج الدينية، وكان يفعل ذلك عمدا، وبنية مقصودة، "مسعود" لم يعد "مسعود" الذي أعرفه..

..اختفى تماما..

..تبخر..

تبدل كثيرا بعد موت أخته "وداد"، أو كان ماض بانتظام إلى تغييره الجذري، وها موت أخته يدعم فيه هذا التحول، ويجعله حادا ومفاجئا، وغير متوقع..

..ولم يقدم بديلا عما قلت ولم يلغ أفكاري بأفكار جديدة أكثر واقعية، ثم هاجمني محتدا وقالها صادحة، أذهلتني..

- أصلك أنت نصراني ومش حتفهم اللي بقوله..

..ولأول مرة في تاريخ علاقتنا الحميمة، يذكر لي ديانتي، نشأنا أطفالا معا، ثم فتيانا وشبابا، ولم نتطرق لهذا الأمر مرة، لم يكن تجاهلًا أو نسيانا، أو بسبب حساسية الموضوع، أبدا، كنا مرتبطين إنسانيا ببعضنا البعض، ونترك كل ماهو "إلهي" وفقا لاختيار كلُ منا، ولم نبادر بمعارضة أو نقد، أو ترجيح كفة على أخرى، وبحب شاركنا بعضنا في طقوسنا وأعيادنا وأحزاننا وعاداتنا وتقاليدنا، وكثيرا ماذهب معي إلى الكنائس والأديره، وكثيرا ما ذهبت معه إلى الموالد والأضرحة وحفلات "الذكر"، ولم نبادر بنقد، ونتقبل عطاءات كل منا بدهشة وفرح واحترام..

..وها هو يذكرها بتأفف، وكأنها نقيصة في شخصي، وتناسى العمر الجميل الذي عدى، وتجاهل أيامنا معا، وإيماننا العميق بالإنسان، أيا كان اعتقاده، وانكشف قدامي..

..ولم أصدق أنها دنيا تبدل وتغير وتمنح وتمنع وتفصل وتجمع، لم أصدق..

- نصراني..!!

openkan.com

..ياه، صرت متقيحا من الداخل يا مسعود، أصبحت مغلقا على قناعاتك بشكل غريب، ماذا هناك يا صاحب، ربما يكون قد وقع مني خطأ ما ضايقه، أو ربما أكون أدخلته في جدال غير مهيء له، طيب ما أنا غير مهيء أيضا، لكنني أحاول الفرار، أحاول القفز فوق المشاكل المألوفة، ولماذا يدخل إلى هذا المزنق، براحته، الجميع تعب، الكل مؤرق بأحواله، والحس ينقصنا، العماء يطرقنا طرقا، الصمم يلكمنا لكمات قوية، وبدلا من تحاشى الضربات، نفعل العكس، ونوجه خبطاتنا القاسمة إلى آخرين مثلنا مأزومين وبسطاء وعميان وصم أيضا، بدلا من معانقة بعضنا البعض حتى نتكتل ضد هذا الاعتداء الباطش، ترانا نصدر إلي بعضنا الضربات الحاسمة، نفسح المكان للخشونة لتبيت بيننا، منه للّه العماء والصمم ووجع المفاصل، وماكينات التشفية التي تقطّع الأنسجة، التي كانت ممسوكة في بعضها.. وقام ودفع الحساب وقال لي وهو يحاول جاهدا أن يتنازل عن عنفه معي، إنه سيذهب إلى "السايبر" وعرض علي الذهاب معه إن أردت ذلك، كان عرضه لي بمصاحبته إلى "مقهى النت"، الذي يملكه، غير حار ولمجرد المجاملة، ولم يكن جادا فيه، لكن حتى ألطف الأمور بيننا، وحتى أمنح نفسي فرصة أخيرة للدفاع عنه، قبلت عرضه الفاتر، وأوقفنا "تاكسي" وذهبنا إلى "السيل الجديد"، هناك وأول ما دخل مكان عمله، قابل الموظف الذي يدير "السايبر" بشك مبين وتجريح واضح لذمته المالية، وبعد فترة من التفتيش في دفتر "اليومية" راح يتقصى أخبار الجالسين على أجهزة الكمبيوتر، السابحين في بحار شبكة النت العنكبوتية، وتوقف عند أحدهم، ورأيته يحدق بغضب كبير إلى شاشة

obeikan.com

العرض، ثم فاجأ الجميع، ولطم الشخص الجالس وغير منتبه، على وجهه، وأمسك بخناقه، وراح يهزه بشراسة وهو يصرخ عاليا "يا فاجر يا ابن الكلب"، وصلت إليه مبهوتا، محاولا إنقاذ الموقف، كان الفتى قد أستعد للتقاتل ورد الاعتداء المباغت، وأنا أحاول فك الاشتباك جاءت عيني على الشاشة مصادفة، كانت الصفحة تعرض أخبار أهل الفن، وفي ركن من الصفحة توجد فتاة نائمة على بطنها وهي ترتدي المايوه، وتنظر ناحيتي بغنج وإغواء وإثارة، وطاح في المكان، وخبط أجهزة الكبيوتر بكلتا يديه ورجليه، ثم ذهب ثائرا مبرطما، إلى لوحة الكهرباء المعلقة بقرب الباب، وداس على مفتاح أحمر كبير، وقطع التيار، ونزل فوقنا ظلام ثقيل الوزن، عبأني وعبأ المكان بكآبة متوحشة، الفتيان الذين كانوا عما قليل مسافرين في المدن والبلاد، رجعوا من سفرهم مفزوعين وقاموا يتلمسون طريقهم للخروج بصمت، وأنا خلفهم، أحاول أن أتلمس طريقي أيضا في هذا العتم الذي حل بيننا بدون نقاش أو تراجع..

- يله، مع السلامة، من دلوقتي مفيش نت، أنا قفلته خلاص.

(49)

فاطمة سيد العابد

(الشهيرة بأم حسن)

obeikan.com

(50)

(وهذه أقوالي عن الحادث)

..أن يمحو الشخص أحباءه بسهولة وتصميم، ويصنع في محيطهم الثقوب النافذة المميته، ويسيل الدم المسفوك حتى آخر قطرة، أن تأتي الطعنة من الأقربين، وترمح المفاجأة المرة في مساحة العلاقة التي كانت تجمع بينهم، وتتجسد الفاجعة كذكرى أخيرة لا يمكن تعويضها أو استبدالها، إنه أمر من صنف المستحيل ذاته، أمر يستعصي على بلوغ التصديق..

..الذي مات وفنى، لم يعد له فسحة من زمن حتى يستطيع أن يبدل أو يغير في حاصل ذاكرته، إنه أطبق جفنيه على آخر أمر نفذ ضده، فكيف ينسى؟! كيف يمحو ما حصل..

..النسيان عادة الأحياء..

..المحو أداة من أدوات الزمن، والزمن يفقد هيبته حين يجابه الموتى..

..هذا ما وقع، هذا ما حدث بالضبط!

..أمر غريب، ومبهم، ويحتاج لاجتهاد الأيام والسنين، حتى يتم طرقه، وتفتيته وتذويبه في زوايا النفس، تلك النفس الجاهلة، والواقفة علي

obeikan.com

عتبات أبواب، قفلت من زمان..

..ولماذا يكون العقاب الموجه دائما إلى الآخر الذي يخصني ويعارضني، هو المحو والحذف؟!! وهل لأن همي وإيماني بجملة القيم العقيمة بداخلي، يكون أكبر من حبي واحترامي وتعاطفي لذلك البني آدم الواقف قبالتي!! أم لآنني خائب الوجدان، وعقلي مريض، لا أقدر ان أنتج بديلا عن تلك القيم الجاهزة، المتحجرة، لذلك تراني فجأة فجرت قسوتي غير المحدودة، في صدر من أخطأ..

..ومن أنا أو أنت أو هو أو هي، لنعاقب الناس؟!!

..أمر غريب ومبهم حقا، ويحتاج إلى جهد من الروح حتى يتم حله، وتكسير الجزء المسنن والناشف فيه..

..يعني ممكن أن يكون السبب مثلا، مثلا، مثلا..

إن ذلك الماحي والحاذف، ماهو إلا محض واحد غلبان يبحث عن حل سريع، واحد غلبان جدا وعنيف، وحين يواجه مشكلة ما، لا يجد مفرا من التفتيش في أروقته الداخلية، وإخراج أوراقه الصفراء القديمة، ومطابقة، الورق مع ما يقابله من أحداث، ولا يفكر، عندها يبدأ في تطبيق الحكمة بحزافيرها، عندها يبدأ في تطبيق قانون الأوراق المتخمرة ببكتيريا الزمن، ينفذ القانون بالتفصيل، ولا يبالي بالقانون الأكبر، قانون الزمن، ومتطلبات الوجود، فالحل السريع لجوعك الإنساني المهاجم، هو أن تبحث عن وجبة جاهزة، وجبة معدة سلفا، كان قد طبخها لنفسه شخص غيرك في قديم الزمان ثم مضى، إذن يا جماعة، نحن نسطو علي غيرنا، نمد ذراعنا نحو الماضي ونسرق

بكل بجاحة إنجاز غيرنا، نسرق بكل ألم، أشياء لا تخصنا، من له أذن فليسمع، ومن له عين مفتوحة وليس بأعمى، فليرى إذن، ومن له عقل قابل للإستدارة والتجاوز، فليذهب إلى الأمام، ولا يفعل مثلما فعل الشاب الحكروبي الغر، الذي نظر إلى الوراء وسرق من أجل الشرف والنظافة والعار، أشياء معرفية لا تخصة، هذا الشاب الذي اتكأ على حائط من الأعوام القديمة، القديمة، ونظر بعمق إلى أعماقه الخافتة الإنارة، وجاء من دهاليزه بجملة من الأوراق المتخمرة، وقرأ ماذا تقول صفحة (22) - مثلا - من قانون العقاب، قرأ ونفذ، ثم نفذ، نفذ بمزاج عالي، نفذ وهو يخدم مشيئة الله، وهو يقبض علي يقين لا تراجع ولا استسلام أمامه، ثم نام سابحا حتى الصباح في دماء أمه، ولم يفكر..

..إنه ولد، ولماذا نلف وندور، أنه حسن ابن أم حسن..

..ولد فطم على الشقاء الطويل والكد، وعلى اعتناق ذلك الصواب الذي يتخيله، ومستمسكا بذات الحكم التي تناقلها عن أجداده القدامى..

..صحى في الصباح، غسل وجهه وتناول سيجارة وكوبا من الشاي ولقمة ناشفة كان يبلها في كوب الشاي الخفيف، ذلك الشاي الذي صنعته له أمه، أمه التي سيقتلها في تمام الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل القادم، وهي الخدومة في عطائها له، كانت مقدرة لتعب ولدها طوال النهار بعد أن ترك العمل معها في "الغرزة" وامتهن كار المعمار، أم حسن وبعد موت زوجها "الضمراني" لم تكن ترغب إلا أن تحب "حسن" لا اكثر ولا أقل، هو ابنها وأخوها الصغير وزوجها

الكبير الشهم، كانت تمسح له حذاءه من غبار تعب النهار الماضي، كانت تحيك له فتقا في القميص، ذلك القميص الذي لم تعتقد للحظة وهو بين حجرها تحيكه، أنه سوف يشرب من دمائها بعد ساعات قليلة، وكانت تعد له كيسا به شرائح من البطاطس المقلية ووقطع مخللة من الباذنجان، وكسرة من الخبز..

أم حسن وحتى وإن كانت قد أحبت جرجس القبطي، فهذا لم يعني أنها أزاحت ابنها من قلبها، من صميم قلبها، ولو كانت عاقرت الرجال قديما من أجل الخبز، هي أيضا لم تتنازل عن حسن، كانت تضاجع الجائعين للحمها وفي نفس الوقت عينها على ولدها وهو يحبو أسفلها، وكانت لن تتوانى لحظة، عن دفع من يركب فوقها، وإسقاطه بغلظة إن داهم "حسن" خطر ما، هذه ملحوظة للعلم فقط، نود أن نلفت بها نظر الباردين ومتكلسي القلوب..

..المهم..

.. وهي تودعه على الباب، تفرغت لتجهيز نظرة وداع كبيرة ودعاء أكبر حجما من المسافة التي باعدت بينهما، توقفت علي عتبة الباب وتابعته وهو منطلق إلى رزقه الصباحي، وبرغم دنسها القديم استطاعت أن تباركه وأن تحنن قلب السماء عليه لتحرسه من الأخطار والمداهمات، ولما نجحت في مهمتها، دخلت وحيدة إلى شؤون اليوم الجديد.

(وقدمت المباحث الجنائية إلى النيابة، دوافع جديدة للقتل)..

..الولد "حسن"، ولأنه يبحث عن بهجة منسية في هذا الليل القابض على أرواح العباد، ذهب إلى أصحابه بعد أن أنهي عمله عند الغروب، طوال

النهار القائظ كان يضع ما يقدر من "جبس وأسمنت وزلط ورمل" على حيطان الناس، وعندما أظلمت الدنيا، نزل من فوق السقالة، وتشطف، ولبس هدومه النظيفة، وحذاءه، وانصرف سعيدا بالجنيهات التي أخذها من المقاول، نظير عمل الأسبوع الفائت، كان مبسوطا بالفلوس التي ستمسح بعضا من كآبة، كانت محلقة في أركان بيتهم الفقير، هذا الولد كان يحب أن ينسى مواضيع تؤرق رجولته البكر، ولأنه كان يتكئ دائما على تراث ممتد من الأقوال والحكم الجاهزة، لم يفكر، كان وهو في روعة هذا النسيان لا يخشى شيئا، فحينما، يصادفه، يصادمة، يفاجئه شيء ما، لا يقلق، وسريعا ما يمد يده إلى الماضي ويسرق منه ما يشاء من حلول، حلول لا تخصه، ولم يفكر..

(هكذا حكى أصحابه أطرافا من القصة)..

..قال لأصحابه لازم أنسى في هذه الليلة، وكان بالطبع يقصد تاريخ أمه القديم وموضوعها الجديد مع جرجس النقاش، لازم، ولازم أنفض من نفسي شقاء الأسبوع الفائت، ماذا تسوى الدنيا من غير أصحاب، هم أصحابه، أصحاب مدربون على النسيان مثله، وخطرون في حرفنتهم، وإصرارهم على اصطياد بهجة بمقاس خمر رديء، وماذا سيحدث لو تعاطى معهم القليل من الخمر الرخيصة، فغدا موافق يوم الجمعة، يعني يوم إجازته الأسبوعية، يعني سيذهب عند الظهر للصلاة، يعني سيستغفر ربه على هذا الخطأ الصغير، وماله لو هز رأسه بثمالة، اعتادت أن تجيئة في كل ليلة "خميس"، كان يفعلها كل ليلة "خميس" مع أصحابه الشقيانين الخطرين، ومن غير أن يضر أحدا، ومن غير أن تفتح أي سيرة للشرف، أو العيب، أو العار كما الليلة..

في غرزة فقيرة معزولة على شط النيل اجتمعوا، وفضوا الزجاجات الملفوفة بورق الجرائد، وشيكارات الأسمنت والجبس، واستعدوا، وجاءت الأكواب..

..الثمالة بمصالحتها التي تعقدها بين البدن المتعب والروح المشتاقة للانطلاق، لم تعد تكفي، تلك الثمالة الطيبة لم تعد كافية لإثارتهم، كبير هؤلاء الصنايعية المتعبين الشقيانين، اقترح عليهم القمار تكميلا لهذا الفرح، كلهم قابضين رواتبهم في تلك الليلة، كلهم معهم فلوس، فلوس لا تناسب أسبوعا كاملا من العناء والتعب، لكن مبسوطة والحمد لله، مستورة والشكر لباسط الأرض ورافع السماء..

..والولد كجاهل مازال، والولد في بدء رجولته مازال، كان يكافح رغبة المشاركة معهم، وفشل، نزل إلى الحلقة الغشيمة وهو يمني نفسه بمضاعفة الإيراد الذي قبضه توا من المقاول الكبير..

(قال الرجل الذي خسر راتبه الأسبوعي في لعب القمار، ما يلي:)..

.."حسن" المدرب على إرهاقه منذ نعومة أظافره، والذي حصل على أكثر من نصف معارفه بنفسه، والمطمئن لجملة من الحكم القديمة تسكنه، وتحميه لو سقط في تجربة، ذلك الولد لم يكن غشيما، لم يكن صيدا هينا للذكور الكبار، بل كان فالحا وناصحا، وكسب، وخسر، وكسب وخسر، مثل الدنيا كانت هذه اللعبة، تعطي وتأخذ، تعطيه ثم تأتي سريعا وفي لمحة بصر تأخذ منه ما كسب، كان يشكر ربه علنا كلما ربح، كان يطلب من الرحمن قليلا من مكسب، حتى يقدر في الغد، في يوم إجازته، أن يحل أكبر قدر من المسائل المؤجلة، الملحة، من

تلك المشاكل إنه سيرمي بالإيراد في حجر أمه ويدعوها لترك العمل بالغرزة، وكلما كانت الفلوس التي كسبها كثيرة، كلما استطاع إقناع أمه بغلق الغرزة..

..كسب الولد، كسب، كسب ولم يخسر بعد، الرجل الكبير الخشن هاج وماج، من ذلك العفريت، هو جاره في السكن، يعامله بتعاطف، كأخ أصغر له، لكن أن تصل الأمور إلى إضاعة حصيلة أسبوع كامل من الكد، هنا تضيع المشاعر الرهيفة، هنا يصبح الغضب تعبيرا عن رغبة البقاء، البقاء لأسبوع آخر جديد، وكيف يعيش هذا الرجل الثور، هو وأسرته بعد أن أخذ منه هذا الولد العفريت، إيراد أسبوع كامل من العمل المضني، كيف يقبل بأن يبدد أياما من التعلق فوق السقالات العالية الخطرة، كيف يسمح للقدر ذاته، بأن يفقده حيطانا كامله بناها بالطوب الأحمر، يعني يبني للناس الحيطان ويعليها لمدة أسبوع، هكذا، بدون مقابل، وكيف يعيش أيام الأسبوع المقبل.

..كل هذا يذهب هكذا هباء!! وكلما أراد أن يسترجع خسارته، يخسر من جديد، ولعب الحظ الماكر لعبته مع الصحاب المكدودين..

..و"حسن" يضحك وتتسع أمامه مساحة الحلول التي سينفذها في الغد، لأمه ولنفسه أيضا، أعتقد الولد أن الموضوع انتهى، وسوف يمر على خير، ولم يعرف أن الداهية تنتظره هناك، والشر الأعمى، يهندس له مؤامرة الفتك المحكمة، كان يضحك سعيدا بسرقة أشياء غيره، هي أشياء لا تخصه، تماما، مثلها مثل حفنة من الحكم والأمثال والأقوال كان يؤمن بها برغم أنها ملك لأشخاص آخرين في عصور قديمة، وانخرط في أحلامه الصغيرة وأصر على أن يكمل الشوط لآخره،

واستمسك بانتصاره الأخير الوحيد، هذا..

..ولم يرض بالتنازل والرجوع إلى حدوده الضيقة، وفرد صدره للدنيا، وتعامل مع الصباح القادم بكثير من الاستهانة..

(زوجة الرجل الخشن تحكي للبوليس وهي تبكي جارتها الطيبة)..

..وكان الرجل الخشن الهائج يحب هذا الولد كابن، كأخ أصغر له، كعريس مستقبلى لابنته التي بدأت تشب قدامه، ويبحث لها عن عريس ابن حلال مناسب، ومن غير "حسن" الذي شب أمام عينيه ويعرف عنه كل كبيرة وصغيرة، من غيره ينفع زوجا لابنته، وحتى وإن كان سمعة أمه يشوبها التلوث والشك، فما ذنب حسن في ذلك، يكفي أن بدايته مبشرة كرجل، فهو يعرف كيف يأتي بالقرش من فم السبع، وأيضا لمح في أعماقه إلى جانب الرجولة والشهامة، تلك الحكم الكبيرة القديمة المتراصة في صدره بغير ترتيب أو نظام، وشاهد أيضا تبعا لما رأى هذه الأورق القديمة المتخمرة، وهل سيلقى رجلا لابنته أفضل من حسن.

..فلتذهب كل تلك المعاني السابقة إلى الهاوية، "الآن" نفسه يجب أن يعاش، وكيف يعاش بعد أن خسر عرق الأيام، أمام غريم كان قد استهزأ به حين أقعى أمامه ليلعب القمار..

..الرجل أراد استرداد فلوسه بشيء آخر غير اللعب..

..وظهر العنف كمؤامرة تريد أن تهلك مجموعة من التعبانين طوال اليوم، ونفضت الرؤوس، الثمالة التي دفعوا فيها كثيرا حتى يحصلوا

عليها، واستفاقت الأذرع والأيادي والعضلات من الاسترخاء، وعادت لتواصل دورها المقدر، وتهيأت الأبدان للالتحام والتشاجر..

..كان الولد تنقصه أشياء، أشياء تحتاج إلى نار الأيام لكي تنضج، لكنه كان مستندا ومطمئنا لأوراقه ومعارفه وحكمه المتخمرة في صدره، وكل هذا لم ينقذه من التحرش والتبدل الذي وقع الآن..

(ووكيل النيابة يضيف من عنده بعض الافتراضات..)..

..برغم الاحتياج المعشش في أركان البيت كالعنكبوت السام، كان الولد قويا، ولأنه يتعامل مع الرمل والأسمنت والجبس والزلط، انفتحت عضلاته سريعا بدم شاب فائر، رد ضربة الرجل على خده، بضربتين، بركلتين، بسقوط كامل على الأرض، بافتراء الجاهلين، والرجل الخشن الذي كان يحب الولد كعريس لابنته الشابه، كان قد سقط مهزوما، هذا الرجل لم يجد إلا الكلام، الكلام الحر الواسع السهل، وحسن أصبح طولا بعرض وعنف الجاهلين، والرجل بارك على الأرض ومن حوله أصدقاء الجبل، يحمونه من بطش الولد المثقف بجهل عريض، كان الكلام هو الأداة الثأرية الوحيدة الباقية للضحية الغارقة في دمها، وتذكر أشياء كان قد تغاضى عنها وهو يخطط لمستقبل ابنته الشحيحة الجمال، عايره بأمة التي تذهب الي بيته في غيابه و تطلب من امرأته، عيارا من الزيت تارة، وعيارا من "الكيروسين" تارة أخرى، عايره بأمه العاهرة القديمة، وعلاقتها مع القبطي القح "جرجس النقاش"، وأمده بأخبار جديدة من سيرتها، فهي تذهب أيضا إلى الطلبة المغتربين الذين يسكنون الجبل، تغسل، وتمسح، وتطبخ لهم، ويا عالم ماذا

يحدث في غرف الطلبة الذين بدأوا يظهرون في أوصال "الحكروب" كسكان جدد للعمارات العالية الجديدة.

..هنا ألقى الولد بكل المال الذي كان معه، ألقاه على أرض الغرزة وبصق على الرجل، وألقى أيضا وفق ما ألقى، حبه المعتل لأمه، ونسى كيف كانت تلك المرأة تدللّه برغم الفقر، وتحميه من شرور "الحكروب"، وتنتظره حتى يكبر ليعوضها عن أبيه، أبيه الضمراني الذي قتله قديما رجال "جمعة الأعور"، ذبحوه كالنعجة ورموه في ترعة كيما وفروا، حين قتل، كان "حسن" لا يزال قطعة لحم صغيرة على كتف أمه..

..وهو صاعد إلى أطراف الجبل قابلته العمارات الجديدة، وبعض من الطلبة العائدين إلى سكنهم، فتأكد من صدق كلام الرجل، ولم يفكر في شيء إلا العار الذي جاءه من أمه، ونسي حنانها المستديم عليه..

..لم يسأل نفسه!! فقط بحث عن وجبة جاهزة تسد رمق غليانه ومهانته، مد يده إلى الماضي وأخرج منه شيئا لا يخصه وقرأه، وفهمه عن ظهر قلب، صفحة "العار" تقول ببنط كبير وواضح، سفك الدماء البريئة، تكون المقابل العادل لغسل العار، وتلك الصفحة الصفراء القديمة لم تكلمه عن التروى، والتحقق من رقبة الضحية قبل الشروع في ذبحها، لم تفتح له سيرة عن العفو عند المقدرة، إن كانت تلك الخطيئة قد وقعت بالفعل، إنها أمه، تلك الأحكام لم تفتح له سيرة عن السمو، والتسامح النبيل ضد أخطاء صغار البشر الضعفاء..

..وهو صاعد أخرج مجددا، من صدرة بعض الأوراق المصابة ببكتريا

openkan.com

التخمر، بالضبط أخرج صفحة الشرف، قرأها بينه وبين نفسه سريعا، وجدها تنص على القتل، تقول له أقتل، أقتل، أذهب إلى ذبح أمك ولا تؤجل أو تخجل..

(خيال واسع بخصوص القضية، لكنه ربما يكون قد وقع)..

..ركل باب البيت برجله، دخل مثل تيار شيطاني، أزاح أمه جانبا، كانت قد قفلت الغرزة من بدري، لكنها ساهرة لتعد له عشاءه، كانت من حين لحين تتعلق بالطاقة الصغيرة، التي تعلو فراشها وتنظر للحارة، وتستطلع الطريق، وتسأل نفسها، "لماذا "حسن" يتأخر كل ليلة خميس هكذا ويأتي في أنصاف الليالي، هل هذا الشقي يلعب بذيله، كانت تخاف عليه وتترقب مجيئة، ثم تذهب إلى باب البيت وتفتحه وتتوقف منتظرة، تتعب، تروح إلى فراشها، تقلق، تذهب إلى الطاقة العالية وتفنس، ولأن جارتها أيضا قلقة على زوجها الخشن، تقابل الاثنتان على باب كل منهما، وراحت كل امرأة تطمئن الأخرى على الرجل الذي يخصها..

..زوجة الرجل الخشن، قبل أن تدخل لتنام، ذكرتها بأن "حسن" يعرف الله، وكل جمعة يذهب للصلاة، في الزاوية التي أنشأها أحد الصالحين الراجعين لتوهم من خارج البلاد، كلماتها أحدثت راحة في صدر الأم، عددت في بالها خصال ابنها الطيبة، وكيف هو صار رجلا يحبها ويحميها من غدر الأيام الآتية..

..اطمأنت فدخلت وتمددت على الكنبة، كانت نائمة نوما حقيقيا، كان نهارا طويلا ومكررا وكئيبا، هزمت الشتاء وقلقها ونامت، تقريبا كانت

obeikan.com

تحلم بـ"حسن" ومستقبله مع ابنة جارهم السمراء، ولم تعرف أنها لن ترى نور الصباح ثانية، وأن النهار الذي هربت منه، كان أقل في قسوته من قلب ابنها "حسن"، لم تعرف هذا فنامت بعمق..

..لم ينظر، لم يتحقق من وجودها حتى، وكأن القتل دستور يتم تنفيذه على القانعين النائمين، تخطى الغرفة الوحيدة بالبيت وهو متأكد من أن طريدته موجودة بها، وذهب إلى ركن المطبخ..

..تقريبا هذا ما حدث..

..تقريبا هذا ما حدث بالضبط، وفق ما تخيلته..

..وذهب عازما وماسكا بأهدافه، إلى ركن الأواني ذهب، إلى ركن الطبخ ذهب، الحلل المكعومة الحواشي، والأطباق الألومنيوم الفارغة، ركل بقدمه هذا وتلك، وتطايرت المواعين في فضاء البيت ومعها بعض الأرغفة الجافة، ضرب كل شيء بقدميه، طبق "المسقعة" انكب على الأرض الصلبة أيضا..

..كانت ليلة صلبة وباردة كجزء مهم من "الحكروب"..

(لا مانع من دخول المجاز، في صميم هذا القتل الذي وقع...)..

..وكانت السكين قابعة في الركن لوحدها..

..هي معوجة، وصدأة من قلة الاستعمال..

..ونصلها قصير، وغير حادة كما ينبغي..

..وتتعب أي أحد سوف يذبح بها..

..تتعبه للآخر، ولا تسلمه ليد النهاية بطلاقة..

..وتدخل الموت إلى ضحيتها ببطء يعذب..

..وتجعل قتيلها يغتاظ من تلكؤها الممل، وبرودها الطويل..

..ومعوجة..

..وصدأة من قلة الاستعمال، ويبدو أنها لم تقتل أحدا من قبل!!

..وكأنها لم تمارس شهوة الذبح ضد أحد..

..السكين ساكنة كانت في ركنها، وكذكرعقرب، مختبئ في أحد الجحور، وينتظر القادم ليعطيه نقيع سمه..

..و "حسن" لم يتنازل، أو يتهاون، هجم على "أمه" وأخرجها من نصف أحلامها التي كانت تحلمها لأجله، لم تستطع إكمال أحلامها في تلك الليلة القاسية، وأمسكها من شعرها الخشن، وشد رأسها إلى أن تهيأت الرقبة أسفله، وبعجلة وجنون مرر فوقها حد السكين لمرات عدة، وكان يردد جملة محددة مبتورة الحروف، " شرفي يا مرا يا فاجرة، شرفي يا فاجرة "..

..وحين خذله حد السكين ولم يذبح كما ينبغي، لم يستفق أو يرجع أو يفكر، وظل عاقا سفاحا بدرجة ابن وحيد جاهل، واختار مسلكا آخر للقتل والإنهاء، مسلكا أكثر حسما وسهولة، كان يود أن يطلع برأس أمه ويدور بها في أزقة وحواري وشوارع "الحكروب"، ليعلن براءته من العار الذي اقترفته، قديمه وجديده، هي مجرد امرأة فقط، وها هو قد تخلص من الرحم ورابطته..

..وهي لم تصحُ من حلمها بعد، هي كانت تحلم حلما يخص "حسن"، فها هي تراه وقد تزوج ابنة الجيران وأنجب، هي لم تستيقظ من حلمها بعد..

..وهي تنفض أولاده وبناته من رأسها، أو بالأصح من حلمها، وهي تنزل عياله الوهميين من فوق كتفيها؟ كان "حسن" قد طعنها في الصدر تماما..

..وهي تتنازل مرغمة عن مستقبله الذي كانت تخطط له بتفاؤل، كان الولد قد ناولها الطعنة الثانية، فجاءت مباشرة في القلب الذي أحبه..

..والأم الذبيحة صرخت، وخرجت مجبرة من حلم جميل يخص "حسن" وزوجته وعياله المقبلين، بالكاد خرجت من نصف الحلم الطويل المبهج، لتدخل إلى كابوسها الخاص الذي صنعه لها "حسن"، سكتت، سكتت من الفزع وفداحة المفاجأة الكبيرة..

..أم حسن أردات في تلك اللحظة أن تموت بالفعل، هي أرادت أن تموت في مثل هذا الوقت بالذات..

..بصراحة لم يحرمها الولد من أمنية رخص ثمنها هذه الأيام، وتباع على قارعة الطريق، وفي المواصلات العامة والمسارح، وفي دور العبادة والعبارات والطائرات والمستشفيات والسفن والقطارات..

..الصراحة الولد لم يتأخر، لم يتأخر..

..ولأن ليل الشتاء هاجم بقسوة على البيوت والعمارات والحواري..

..ولأن أطراف الجبل، يكون بها الليل والشتاء والعزلة بمثابة مخاطرة

غير مأمونة..

..لم يحس بهما أحد ما، قاتلا كان، أو مقتولا، ولم يتطاول أحد من الناس على هذا الليل الكبير والبرد..

..ولم تصل الصرخة الوحيدة النهائية، الصادرة من الأم إلى أحد..

..وتقريبا لم يسمع بتلك التأوهات الختامية أحد من الناس..

..فقط كان الرب شايف وسامع ومطلع..

..فقط السماء العالية القادرة على فك هذا الاشتباك والخلط..

..فقط السماء العالية فوق كل البيوت، القادرة على معالجة هذا الألم الكبير..

..والولد لأنه شقيان طوال النهار، ولأنه بذل مجهودا في كل هذا القتل الذي حصل، سقط على الأرض منهكا..

..سقط منهارا في بركة الدم الواسعة بملابسه ونام، نام حتى الفجر كما حكى فيما بعد..

..ولأنهما كنقطة طفيلية من الحياة لم يحس بهما شخص، ولم يسأل عنهما شخص،

..وماتت أم حسن بسهولة ويسر وسلاسة..

..وحسن لم يفكر..

(عودة سالمة إلى مجريات الأمور الحاصلة)..

..كانت بمثابة غزوة فاشلة، ثم جاء التقهقر التكتيكي والعودة من "الخزان" والنزول بجوار جامع "الطابية" الكبير، الجامع كعادته فوق الهضبة الصخرية العالية، نافورة من نور قوي، يطرد ظلام المساء من حوله، ويصدح بصوت الصلاة، بجواره توقفت السيارة ونزلت منكسرا، وخرجت من بين زحام "موقف سيارات الأجرة"، وأنا ألعق جراحي القديمة التي أنكأها الخال "صالح"..

..تحت إلحاح أمي ذهبت إلى الخال "صالح" هذه المرة كان أكثر حدة وفجرا، تلقيت الحدة بحدة والإهانة بإهانة، فطردني من البيت وكاد أن يبلغ عني الشرطة، أسرعت هاربا بعد أن بادلته السباب بالسباب والبصاق بمثله والتم علينا الناس، أعلنها صريحة في وجهي، قال إن أمي ليس لها شبر واحد في ملكية بيت أبيه، ووضح لي أيضا أن البيت مكتوبا باسم جدتي وهي باعته له بناء على توكيل منها..

..وهذا الرجل الغبي مازال يسرق مني بعض الأشياء، استغل جدتي المخرفة وزوّر في الحقائق ورمى فوق الأرض مزيدا من الملح والفساد، لم أرغب في أن أخبر أمي حتى أجد حلا قانونيا لتلك المشكلة، ولما وصلت "الحكروب" اكتملت فجيعتي بخبر مقتل "أم حسن"، هزني النبأ هزا عنيفا، بل زلزلني من أعماقي، "أم حسن" تلك الرفيقة القديمة قتلت!!، قتلت بيد ابنها "حسن"!!، وانتابني خوف عظيم من الجبل والدنيا وما فيها، ولأول مرة أفكر صادقا في سفر حقيقي، سفر نهائي وبغير رجوع، وكنت قد قررت الركض في الجهات بغير هدي، وكان المشي بدون نهاية علاجا لهذا الليل البارد المخيم على الجميع.. من الحكروب إلى محطة "السيل الجديد" إلى "الشيخ هارون"، ونزولا

إلى منطقة "البشارية" و"المصنع الآلي" والدخول إلى سوق الخميس القديم، شارع "باترس ليمومبا"، بمفردي أمشي، أتجول في الأماكن والشوارع العتيقة بلا هدف..

..أخيرا الكورنيش، عند النيل وقفت طويلا، ودخنت كل ما أملك من تبغ وقررت المشي ثانيا وثالثا ورابعا.. جنينة فريال، كنيسة الملاك، مبنى التليفزيون، مقبرة العقاد، مصنع الغازات، بركة الدماس، شارع السلخانة، المدينة الصناعية، شارع كسر الحجر، كوكا، الشونة القديمة، أمام النيل توقفت متعبا للمرة الثانية، مازال النيل يزحف هادئا في مجرى التاريخ، بصيرورة الخالدين يشق طريقه الوعر بين الصخور الجرانيتية، حاضنا أسراره وأحاجيه وتمائمه في قاعه الأسود العميق، ولم يكن خائفا ومرتبكا مثلي، النيل لم يكن قلقا في تلك اللحظة، ويسبح نحو رحلة العطاء مصرا، ولا يكبد نفسه، مثلي، عناء البحث عن إجابات، يمنح ذاته بلا مقابل، بلا تجادل أو كلام مهين، إنه يترفع عن الخوض في أمور قد تخرجه من برنامج الأبدية الذي أعده لنفسه منذ آلاف السنين، هو يبذل نفسه عنا بصمت ولم يبرح ساحة الصراع بعد، سيدنا النيل لم يأخذ إجازة ليوم واحد، واستمر قابعا بين الضفاف وهو ينفذ خطة الخير بدون صخب أو صياح، إنه النيل أيها الناس، إنه سيدنا الماء العظيم....

..والكثبان الرملية في البر الغربي مفروشة ببيوت "النوبيين"، القباب الطينية تنهض في الأفق وتخلق في نفسي بعض الألفة، والأضواء الخافتة ترتعش هناك فوق التلال، وتأتيني محاولة أن تفتح ثقوبا نافذة في هذا الليل الثقيل، وكنت أريد أن أسافر بلا عودة، أريد أن أمشي

طويلا أوأسافر مع النيل إلى الرحاب البعيدة..

..ولم أقدر، وهزمتني المشاوير، وردتني المسافات مجبرا إلى "الحكروب"..

في صباح اليوم التالي عرفنا أن جرجس النقاش لما سمع بالخبر خاف على نفسه، وهرب من الحكروب ولم نعرف مكانه للآن..

..وبتراخ ونعومة أنسج خيوط القصة كاملة في دماغي، والفقرات المفقودةً، كنت أكملها من خيالي تقريبا، ووفقا لمعرفتي للناس هنا، مشاعر القتل والقتلة تجسدا في داخلي، كنت أحاول أن أتلمس كل هذا بيدي، كنت أعرف الولد من بعيد لبعيد، كان مثل "جرجس" يسكن الأطراف الوعرة من الجبل، حتى الحكروب فيه تراتب طبقي مقيت، إنه ترتيب الفقر داخل الفقر، فكلما كانت حاجة الناس وعوزتهم أشد ضراوة من غيرهم، أسرع وألقاهم الحكروب إلى قمته، بادر وبعث بهم إلى أطرافه الوعرة الأشد صحراوية وقحطا، وكنت أنا وبيتنا في منتصف الحكروب بالضبط، وجاهدت أنا وأمي لكي لا نرتاد صعودا جديدا، وهنا النزول قيمة، النزول الي تحت يمثل قدر من ثراء وراحة، وكنت أجاهد حتى أخفض بيتنا قليلا، وانصرفت السنون ولم أقدر ولم يتزحزح موطننا سنتيمترا عما هو عليه الآن، وكلما كان فقر الإنسان واضحا أرسله الجبل إلى الأعالي البعيدة، القمة هنا لعنة، وعلامة على الخسارة ورفض الأرض لك، أخيرا قتلت قصة العشق التي جمعت بين جرجس وأم حسن، قتلت بيد أقرب المقربين، وتنفس الجبل بارتياح، وجاهدت حتى أستطيع النوم هازما رغبة المشي المبرح الطويل التي انتابتني، ومؤجلا لفكرة السفر.

(51)

..في اثنين مايو، سنة ألف وتسعمائة وثلاث وتسعين، تم إنجاز فعلا جميلا للعائلة، ثم توالت الإنجازات الأخرى، ففي هذا التاريخ أدخلت أمي المياه النقية إلى بيتنا ورحمتني من جلب المياه من الحنفية الكبيرة أسفل سفح الجبل، وفي سنة ألف وتسعمائة وخمس وتسعين حطت في ركن من الصالة ثلاجة كهربائية (8) قدم، أما في ستة وتسعين ميلادية فقد جاءت بالبوتاجاز المسطح، وفي سنة ألف وتسعمائة وسبع وتسعين، نجحت في شراء تليفزيون مستعمل (14) بوصة ملون، وبعد هذا التاريخ بسنتين، أهدانا "مرتضى" "دشا" كاملا بملحقاته، بالتقسيط المريح، كانت تلك تواريخ لا يمكن أن ينساها أي فرد من العائلة، أن تشرب ماء نقيا ونظيفا وصاقع في عز الحر، أن تطهو الطبيخ سريعا ودون ضجة، أن ترى الناس أمامك ومتشات الكرة طبيعي والأخبار الكونية وكأنها تحدث بقربك، كلها أشياء لا تحتمل، كلها أشياء لا تطاق من فرط جمالها، كلها أحداث تترك آثارها البارزة في الذاكرة، ما هذا يا عم، ما تلك البغددة والرفاهية المحلقة حولنا!!، ما كل هذا التوفيق يا جماعة، وفسرت أمي كل شيء بجملة يتيمة، "إنه رضاء الرب علينا"، وكانت أمي تنظر إلى كل تلك الإنجازات الكبيرة المشرقة ولا تمارس مثلنا أي سعادة، كانت عادية في حياتها معنا،

كان شيئ واحد سيسعدها أكثر من حنفية المياه والثلاجة والبوتاجاز والتليفزيون والريسيفر بملحقاته الفضائية، حاجة واحدة سوف تجعلها تبحر بغير أمان في بحر من الفرح، شيء واحد سوف يجعلها تمارس سعادة خطرة، أن ترى البنت في بيت العدل، فقط حين يهل علينا ابن الحلال، ويهم بأخذ "صبحية" إلى بيته، هذا هو الأمر الواحد الذي قد يطير بأمي من فوق الأرض من شدة السعادة، إنه الشيء الوحيد الذي يجعلها تطير إلى السماء العالية، وقد لا تعود..

..وتم أخيرا هذا الإنجاز، ففي 8 /9 / 2001 ميلادية أمسك بتلابيبنا الفرح الكبير، في ذلك التاريخ بالضبط تزوجت أختي الصغرى "صبحية" من واحد اسمه "مقبل"، أمي قد تقبل موت أبي، وفناء أخيها "وصفي" الغالي على قلبينا، وتقبل نقص جسدي ومعاناتي وحيرتي وآلامي الكثيرة، تحتمل مكر العمر الطويل، لكنها لا تقدر علي احتمال عنوسة ابنتها..

وهي في دكانها وتبيع الخير للناس، كانت تضربها علي حين غفلة مشكلة البنت "صبحية"، التي لامست بأطراف أصابعها منطقة العنوسة الخطرة، وأوشكت البنت أن تتوغل في ذلك المصير المجهول..

..وأي أسرة يكون في وسطها أنثى عانس ذلك هو الهم الكبير، ويزيد الهم حين تكون تلك الأسرة جنوبية، ومع أن العشرين أو الخمسة والعشرين عاما لا يمثلون إعلانا وافيا بأن صاحبته، فاتها الحظ والتوفيق، لكن حين تلج البنت هذه السن يستبد القلق بناس العائلة الكبار، والذي يجسد هذا الهم، هم الأقارب والجيران، وكل من

كان له صلة بتلك العائلة التي بوسطها عانس، قدر من العار الخبيء توجهه العيون الغريبة والقريبة لتلك البنت وناسها، وتموت البهجة في مخيلتهم وهم يبحثون عن حل، ويعتريهم الشعور بالفضيحة، لا لشيء إلا لتأخر موعد حضور العريس إلى ابنتهم التي همت بخطى شجاعة نحو ما بعد سن العشرين..

..والكارثة الحقيقية تكمن، حين تتجرأ البنت وتخطو بمفردها ودون مشورة أحد إلى سن الثلاثين، هنا يكون البكاء والشعور بالعار والمعايرة، وضرب الكفوف بالكفوف، وترتكب الأفاعيل القهرية ضد البنت، وكل شيء يكون معمولا حسابه في مثل هذا الموضوع، فيما عدا صاحبة القدر الأكبر من الهم، وهي العانس، فيتم تدبير التصاريف لرفع هذا العار من فوق ظهر العائلة بدون مشورتها..

..لذلك فمن الممكن أن تسلم البنت بعد تعدي سن معينة، إلى أول ذكر يجيئها، حتى وإن كان هذا الذكر ولكبر سنه قد أستأصل البروستاتة منذ فترة، وركب طقما كاملا من الأسنان الصناعية، ويعاني من ضيق حاد في التنفس، أو أنه حين أتى لطلب يد العانس، كان قد أتى بأحفاده ليخطبوا له البنت/ الفضيحة، وربما – وهذا الأفدح – قد تسلم العانس إلى يد أول شائعة تسرع لطلب القران بها، فيتم تصديقها والتصديق عليها من ناس العائلة الكبار، ويتم التخطيط لتوقيع عقاب فاتك بإنسانيتها..

..وكانت أمي تضع كل تلك الاعتبارات الخطرة في دماغها، وهي تمارس وحدتها في دكانها، أو وهي في إحدى زوايا البيت ومنكبة على

تقشير البطاطس، أو حياكة رتق في قطعة ملابس قديمة..

..فيما مضى كنت أجدها، تدخل عليّ مقتحمة خلوتي إن كنت بغرفتي نائما وتيقظني بلجاجة وتأخذني من يدي ونطلع قاصدين أحد الحلول الغيبية..

..وإذا كنت خارج البيت، تفرش خرقة من القماش علي عتبة الباب وتجلس في انتظاري، وتظل واضعة يدها أسفل ذقنها وتبعث عيونها في مشوار قصير إلى ناصية الحارة وتترقب عودتي وهي تشتعل بصبر لا تريده، وحين أهل من ناصية الحارة المظلمة، أجدها تميل بجزعها إلى الأمام وتمط عنقها وتدقق فيّ بنظرها القليل الباقي، لتتأكد من مجيئي حقا، وكنت أتأثر من أجلها، فأسرع وأحاول إنقاذها من شكها وريبتها، فأرسل لها صوتي من بعيد وأقصد أن أجعله عاليا ممطوطا حتى أعطيها مدة كافية لتتحقق من نبراتي وتطمئن.. "أيوه يامه، أنا جمال"، وقبل أن تتحامل بتلكؤ على عظم قديم، أوشك على التلف، تلم من أسفلها، السجادة القماشية، وهي في نصف انحناءة، وتنفضها جيدا من تراب الأرض، وتكمل وقوفها بمعاونة يدي والحائط وتواجهني..

..ومن هذا الانتظار، والسهر في ليل "الحكروب" المريب أدرك، إنها سوف تعدني وتحمسني لخوض رحلة جديدة في الصباح الباكر من أجل حل مشكلة "صبحية"..

..البارحة تم المراد وتحنن الغيب لطلباتها، وأخذ ابن الحلال شقيقتي "صبحية" إلى بيته فعضت الغبطة قلب أمي بشدة..

..دجاجات أمي من حولي، وتشاكس بعضها البعض وتقأقئ وهي

تضرب الأرض بمناقيرها الصفراء بحثا عن الرزق، والحمام يهدل، وهو في أعشاشه الصغيرة "بالعشة" المواجهة لفرن الخبيز، وكنت جالسا أسفل "الكافورة"، التي صارت بلا أفرع خضراء تقريبا، ومن قت لآخر أهش الدجاج حين يقترب من مجلسي، تراها هل ترمي بالأوراق والظلال الوارفة فيما هو قادم!! عشرة طويلة بيننا وبينها وحياة تساوي أعمارنا، كانت الشجرة العجوز تقاوم الموت وهي واقفة، الجزع العفي مازال منتصبا، ومصلوبا في الفراغ وطالعا إلى السماء بتحد، ويوزع أفرعه الناشفة القليلة هنا وهناك بحياء، وألمح هناك في الأفرعٍ البعيدة العالية بعض براعم خضراء طرية وهي تتمسك بأخر نقطة للحياة، ثم أرنو إلى السماء البعيدة وأراقب سجادة من النجوم المضيئة مفروشة فوقي، فتأتيني راحة تهدهدني، كنت فرحا من أجل أمي، تزوجت صبحية، وتحقق نصر صغير لنا، وأمي التي هدها التعب، كانت بجوار الحنفية، تغسل أواني العرس الذي انقضى، وانفض صخبه، بعد أن دخل العروسان إلى بيتهما أخيرا، سمعتها تغني بصوتها الرخيم، أغنية تعتني بالسعادة التي تقبل على الإنسان فجأة فتبدل حاله إلى الأحسن، كانت "الأغنية" طويلة ومبهجة، وتدعو للتفاؤل، وتمجد الفرح، إلى أن جاء السطر الأخير، فوجدت أمي تعرج عن طريق البهجة فجأة وتترك الأغنية السابقة وتدخل إلى "عدودة" حزينة تتكلم عن الموت، وذكرى الأحباب الذين مضوا إلى خاتمتهم، وأتى بكاؤها المعهود، وأصاب أحشائي بالتشنج المباغت، وتمكنت أمي في لحظات محدودة من صنع جنازة صغيرة متقنة، وتدفقت منها نهنهات حنونة عالية أزعجتني وأزعجت الدجاج، وترحمت على الوالد، وعلى الخال "وصفي، وعلى كل من مات ولم يشاركنا مناسبة زفاف البنت الأخيرة..

..ثم قالت لي: "قربت يا جمال" وبكت، وهي مستمرة في غسل المواعين، وفهمت من كلامها، أن كل هذه البهجة التى قدمت إلينا أخيرا، ما هي إلا تبشير بقربها من خط النهاية الحاسم، واتهمتني بأنني، أعرقل انصرافها وراحتها الأبدية القادمة، لماذا يا امرأة، لماذا؟ وكيف نفسر الفرح بأنه نبأ وبشارة بالنهاية!! وبأي يقين تؤمنين يا حنون، بأن الوجع العميق الخارق ما هو إلا تميمة، وحجاب ضد الفناء!! وكيف حين نرتاح قليلا نموت يا امرأة؟ الحق الحق أقول لك يا قديرة بين النساء، إنه عسير على من أعطونا هذا الفهم، أن يجدوا غفرانا في عين الرب، صعب على الذي لوثنا بفكرة المغادرة والصعود والسفر، أن يجلس في نعيم اللّه، كيف إذن حينما نبتهج، نستعد لمقابلة الغياب،؟ من أصابك يا طيبة بتلك الثقافة، من؟!!

(فقالت الآتي، وهي لا تزال تنظف الحلل الألومنيوم الكبيرة، بالصابون وماء الصنبور الجاري)..

يا جمال، أحتاج يا ولدي لأن أموت، لكل واحد مهمة فوق الأرض يجب أن يؤديها، لكل واحد من الناس وردية ينبغي أن يسهر ويكد من أجل إكمالها للآخر، وهناك شقاء ملضوم في عمر أيامنا، وينبغي أن نذوقه، وأنا يا كتفي وسندي الوحيد في هذا العالم، قد شربت حتى شبعت، فساعدني يا ولد كي أروح لأبيك هناك في الخفاء، أنا أنهيت الهزيع الأكبر من الليل الكئيب، وأوشكت على إنهاءورديتي المضنية، أنت فقط الباقي الآن من نصيبي، والمفروض أن أتممك وأساعدك لتستلمورديتك بدلا عني، لماذا يا حبيبي تعطل سفري إلى السماء، أنت تكره الخير لي؟ كلهن يا عين أمك دخلن إلى بيت "العدل"، وأنت لا تفعل

مثلهن، ومنطلق في الجهات كسهم حائر لا يستقر في إصابة، وها هو البيت قد صار واسعا علينا، فلماذا يا ضناي لا تأتي بواحدة بنت ناس أفاضل وتضعها معنا في البيت، وتضع بذورك في تربتها، وتشعل النور في ظلام غرفتها السرية، حتى يصير لك ولد يشبهك، وتتمتع بنسلك الحلال في هذه الدنيا؟ عجل يا ولدي بقرارك ولا تحمل هما لشيء فأنت كتفي الذي استندت عليه مرة تلو أخرى، أنت يا كبد أمك، عملت الكثير من أجلنا، وكيف لا أساندك؟!! ومن غيرك شاركني في سقطات المحن الكثيرة التي اعتل بها العمر الطويل، من أجل خاطري يا نور عيني لا تطيل أيامي فوق الأرض ولا تعطل انصرافي، وانصرني على كومة العظم واللحم هذه، وخلصني يا ولدي المبارك، من شيخوختي، من أجلي يا جمال اسمح لي أن استريح يا حبيبي، هات حليلة حلوة تحبها، وأنثر ضياءها هنا في البيت حتى تنير حياتك من جديد، ومن بعدي كيف ستعيش لوحدك، ولماذا تتركني أصعد، وأنا أحمل همك، وهم عزلتك تلك، أنسى ابنة خالك "صالح" التي خانتك بالهجر غير الرحيم، وتخير من النساء، بنت جميلة، قبل أن يسرق الزمن شبابك..

..وفكرت وفكرت..

..ثم عرضت عليها "بسمة" الجميلة المتألمة بالصمم الكبير، وأخبرتها بعاهتها، فصاحت في وجهي وهي تمسح دموعها، ورفضت قاطعة، أن يتزوج ابنها الوحيد من فتاة طرشاء، لا تسمع، ترفض حتى ولو كانت بسمة ملكة جمال، ومن عائلة محترمة كما أقول..

- أنت بتقول إيه؟!!، تصوم، تصوم، وتفطر على واحده طرشة..

- بس بنت كويسة يامه، وبعدين ما أنا زيها، وكمان أكتر منه..

- تقصد إيه يا واد؟!!

- أقصد أني، ولا بلاش يامه..

- وتتفاهموا مع بعض إزاي؟ ولا عيالك يمكن يطلعوا طرش زيها!!

..ولم أكن أتوقع من تلك المتسامحة، قسوة بهذا الحجم، ورفض أمي جعلني اتجه عكس رغبتها، موقفها المتصلب هذا، دفعني لأمشي سريعا باتجاه بسمة، لا أعرف هل هو من باب التعاطف، والتكتل مع "بسمة" وأمثالي من الناقصين بعاهاتهم، أم هو تعاطف مع نفسي شخصيا، ومحاولة باللحاق بآخر قطار بالنسبة لي!! والحيرة في العثور على إجابة ردتني لذات النقطة التي لم أبارحها منذ لحظة أن فاتحني "الأستاذ أنسي" في الموضوع..

..كنت أتدبر الأمر صامتا، انظرا إلى المتسع السماوي فوقي وأرمي من فمي بسحب صغيرة من الدخان، أيقظني من شرودي، خبط قوي مدو، على باب البيت، ألقيت بعقب السيجارة جانبا وقمت مفزوعا، من أسفل شجرة الكافور واتجهت مسرعا إلى الباب، قبل أن أصل كانت الضلفتان قد انفتحتا عنوة، وانكشف ما خلفهما من عنف، انهمر سريعا بداخل صالة البيت جيش قليل العدد من المخبرين والعساكر وهم يشرعون السلاح أمامهم بتراخ، وأعقبهم أحد الضباط وهو يجعر بصوته الحاد العجول، وكنت أحاول إسكات صراخ أمي التي صعقت بهذا الهجوم المباغت، جاءني صوته السريع الغاضب ورطمني رطما..."، إنت جمال يوسف فهمي؟! إنت جمال؟!! مش حاسألك تاني!!" ونهشوني من

obeikan.com

أسفل إبطي، وطلعوا بي إلى الحارة، التي كانت قد ازدحمت بالجيران والفضوليين..

- أيوه ...!!

- هاتوه...

..وضعوا الحديد في يدي ورموني بغلظة في صندوق العربة مع آخرين، وكان نداء أمي يتعالى في ليل الحكروب، ويأتيني مشوها بالحزن والحيرة، وفتحت ثغرة بين أجساد العساكر والمخبرين الذي تعلقوا بمؤخرة السيارة لحراستنا، ورأيت هناك في الضوء الخفيف، جسم أمي النحيف، وهو يبتعد، كانت تجلس على الأرض ثم تقوم متعبة، ثم تتابع الجلوس لتقوم ثانية وتتلوى، وتأخذ من الأرض ترابا ناعما وتضعه على رأسها وهي تفجر غناءها المكلوم في هذا الليل الذي حط حلكته بيننا، وكانت وتبحث عن نجدة، ووحيدة في كل هذا البرد والصخر المحيط، وتابعت العربة انزالقها من أعلى الجبل بسرعة وإصرار، كنا نرتج وتتصادم أجسامنا ببعضنا تارة، وتارة أخرى نرتطم بجسم الصندوق الحديدي، ولما عافرت وانثنيت وانفردت ثم أخرجت الموبايل وشرعت بالاتصال بـ"محسن راتب" كنا لتونا قد غادرنا الجبل، وشرعنا في الابتعاد والذهاب إلى حيث لا أدري، الطنين وصل لمنتهاه ولم يرد على مكالمتي، ومثله فعل مسعود الذي أسرع وأغلق الخط حاسما، كنت أتوقع هذا من الاثنين، لكنني تعمدت المحاولة..

..وماذا أنتظر من واحد انتشر خبره في المدينة، بعدما أصبحت هوايته المفضلة، صيد الكلاب الضالة، حكى لي "مسعود" منذ فترة،

obeikan.com

أنه رأى "محسن" وهو يعدو ليلا خلف الكلاب، ويقتلها بالحجارة، ولم أصدق، لكنني تذكرت الكلب الميت الذي رأيته مكوما بجواره، حينما قابلته صدفة في المنطقة النائية علي الكورنيش وبجوار صندوق القمامة، وربطت الحكايتين ببعضهما، وانحزت لتصديق ماقاله "مسعود " وسعيت مهتما بالأمر لأتحقق منه، ولما ذهبت إليه في أحد الليالي ولم يفتح الباب كالعادة، واصطنع عدم وجوده بالبيت، تربصت له وانتظرته حتى خرج بكيسه الأسود المعتاد وظللت أتبعه وهو يجول هادئا في ليل "المحمودية"، إلى أن وجدته يقصد أحد صناديق القمامة، الملتف حوله الكلاب الليلية، وجدته ماهرا في القتل، يمسك بنصف قالب "الطوب الأحمر"، ويقترب من مجموعة المشردين وهم ملهيون في البحث عن غنيمة وسط النفايات، ثم يتخير ضحيته بدقة، ويصوب الحجر بقوة وسرعة خارقة إلى رأس الكلب مباشرة، فيسقط مضرجا بدمائه مستغربا من هذا المعتوه الذي اهتم بأمره لحد القتل، في تلك الليلة رأيته وهو يرتكب جناية الفتك في حق ثلاثة كلاب، ظل يتنقل من صندوق، إلى آخر بحمية، ونشوة أعيتني، كنت أراقبة حزينا، وأنا أكاد أن أجن غير مصدق، وإن طاشت الضربة وهربت الطريدة، يظل يغمغم كثيرا بكلام لا أسمعه، ضربة واحدة طاشت في تلك الليلة، وثلاثة جاءوا في مكانهم المميت، وإن كانت الضربة غير قاضية، وأصابت الطريدة إصابة غير بليغة، يستعيد "نصف القالب" سريعا، ويركض خلفها كفهد بري ويتابع عمله بفتوة تتجاوز الحد الطبيعي، ثم يلقم الرأس الحيواني الدائخ بقذفة الموت فتأتي هذه المرة في مكانها وكما أراد بالضبط، ويتمدد القتيل محتضرا، ويستمر محسن يتابع تلك

اللحظات الأخيرة من عمر الكلب، بمتعة وحبور واطمئنان غريب..

..ماذا أنتظر من قاتل الكلاب الضالة، صديقي القديم الذي تسرب مني إلى الرحاب وأوشك على الجنون..!!

وماذا أنتظر من مسعود؟!!، ماذا منه أنتظر؟ هذا مسعود الذي سافر أيضا إلى الجهة الأخرى من العالم، الجهة الأكثر برودة والفاردة كل ما تستطيع من مساحات الانفصال، ماذا منه أرجو أو أنتظر؟!!

..والعربة تسير، والموبايل في يدي، العسكر تقريبا لا يمنعونني من إجراء اتصال بأي أحد، والمشوار إلى "قسم الشرطة" أو النيابة، ها هو يقترب من نهايته، ولا بد، أن أستعين بأحد ليعاونني على الخروج من تلك المصيبة المداهمة، والتي لا أعرف إلى الآن سبب حصولها لي، ولماذا تم القبض عليّ؟!

..والوقت يسير مثله مثل السيارة، والموبايل في يدي، ولا مانع من الاتصال، لكن بمن؟ ومن يطمئنني على الست الوالدة، هل تراها سافرت الآن وتركتني بمفردي في هذه الدنيا؟ تركتني وتسافر، تلك المرأة، وأنا ممسوك بين يدي العسكر، أخاف على تلك الوحيدة، أخاف على أمي..

..والموبايل تحت ذقني، وأفكر في حالي، والعربة تسرع في الشوارع الخافتة الإنارة، والأفكار ترمح حائرة في الدماغ المقفلة وترمي بنارها ودخانها في كوني الداخلي، لا، لا، لا ينفع الأستاذ "أنسي"، أولا الرجل مريض، بداء الشرايين، ثانيا، أنا لم أرد عليه إلى الآن بخصوص الموضوع المفتوح بيننا، موضوع بسمة، طيب واللّه بسمة وحشاني،

وأشتهيها بحمية هذه الأيام، البارحة مارست عادة جنسية رائعة عليها، بسمة في هذه الأيام وبرغم كل شيء، صارت بطلة لعادتي الجنسية الخالدة، ولو كان هذا حبا، هل هو حب جسدي شهواني فقط؟، وماله الجسد!! ولماذا نبخس من قيمته، "بسمة" تملك جسدا ما أروعه، ولماذا هي تكون قد ظلمت لو اقتنت رجلا يحترم جسمها ويفجر طاقاته، ما الظلم لي أو لها في ذلك؟ ألم أكن أقول قديما لـ"هالة" حين أكون محتاجا لأن ألمس حبك، دعيني أمسك جسدك بين يدي ولا تمنعيني"، الجسد أول بوابة للحب يا جماعة،

..أنا محتار يا رب الناس، وغائمة الدنيا من حولي..

..أتصل بجرجس النقاش وأقول له تعال ألحقني يا جرجس؟، أو روح شوف أمي أحسن تكون صعدت..

– أنت تصدق أنك بني آدم حمار!! بقى أنا أعمل كده!! أتصل بجرجس!!!

– وماله مش صاحبك من زمان؟ ووكلين وشاربين ومحششين ونسوان مع بعض!!

– ..ياد ده كان زمان، انسى...

– ليه يا عم المتأثر..

– يا كتكوت، ده يمكن جرجس هو السبب في اللي أنا فيه دلوقت،

– أنت بتقول إيه؟!! جرجس!! مش ممكن، وليه يعمل كده؟

– يا ابني مش واخد عليك إيصال أمانة..

obeikan.com

- وممكن يكون قدمه للنيابة..

- أنا بأضرب الموضوع في دماغي ومش لاقي سبب تاني للقبض عليّ..

- تكون ياد يا جمال عملت حاجة كده ولا كده؟

- هأهأها، ده أنا يا جدع مشكلتي أني ما بعملش أيتها حاجة في الدنيا الوسخة دي..

- أنت متأكد يا جيمي؟

- يا حبيبي أنا ماشي تحت الحيط، انسى..

- بس معقول جرجس يعمل كده؟

- ياخويا كل حاجة ممكن ومعقول دلوقت..

- بس أنت زودتها معاه قوي..

- صدقني كنت ناوي أسدد فلوسه في أقرب فرصة لما أصرف مكافأة نهاية الخدمة بالمصنع، بس زي ما أنت عارف كل ما أروح البنك علشان أصرف الشيك يقولولي الرصيد ما يسمحش، استنى شوية، وأهو بقالنا سنة ونص على الحال ده!!

- يا راجل سنتين مدوخ الراجل وراك، مبلغ تافه زي ده يقعد عليك المدة دي كلها ومتسددهوش..

- وحتى ياخي لو مسددتهوش، يبلغ عني يا جمال!!

- والله يا جمال دي حاجة تحير..

- أنا بقول يا واد يا جيمي يمكن تكون ظالمه..

- فعلا ممكن تكون ظالمه ياد يا جمال، متتسرعش..

- كلامك مظبوط بلاش نسابق الأحداث.

..وحذفت من أرصدتي القديمة جرجس أيضا، وعبد الوهاب لا يملك أن يأتيني فهو أيضا تم القبض عليه منذ أيام بعدما وقف وقفة احتجاجية، هو ورفاقه الصيادون، أمام مبنى المحافظة، ولا أعرف هل تم الإفراج عنه أم تم ترحيله من أسوان نفسها، مصيبة وحلت على رأس عبد الوهاب، تم رفته هو ورفقاؤه من بحيرة ناصر!!

...ومن الباقي إذن، من؟ "مقبل"!! مقبل، لا يزال في شهر العسل، ثم هو لم يندمج بعد في عائلتنا الصغيرة، وأنه لشيء محرج إن الواحد يتعرى أمامه فجأة، وهو في بدء العلاقة، وربما يعطي الموضوع أكثر من حقه، ويؤثر هذا على علاقته بشقيقتي "صبحية"، لتبدأ المشاكل تدب فيما بينهما، وأكون أنا السبب..

..طيب مرتضى..

..هو الباقي..

..مرتضي، هو القادر...

..مرتضى، هو الباسط..

..وقدام أشباهي يحقق معجزة الحل..

..مرتضى، هو المعز..

..كان موظفا صغيرا في الإسكان، وكان يعمل بعد الظهر "كهربائيا" ليحسن دخله..

..مرتضى، لا بد أن يسطع في عهد الخيانة والارتشاء والفساد...

..وصار محتكرا لتجارة الأجهزة الكهربائية، وأخيرا دخل بتوسع على "الدشات" و"المحمول "و"أجهزة الكمبيوتر" والعقارات وحديد التسليح .. من أين جاءه هذا؟!!

..هو يليق بمثل تلك المواقف، له نفوذه وسلطانه ومعارفه الواصلون، وهو ما يصدق أن يخدمني ليهدأ في داخلي عفريت الانتقام والتنكيل به، أنا عارف..

– وبعد ده كله تقول لي أتصل بمرتضى يا أبو جيمي، الفاسد، المرتشي!!

– أمال حتعمل إيه في المصيبة دي يا كابتن جمال، ده مرتضى..

..هو الباقي..

..مرتضى، هو الباطش..

..مرتضى، هو الخالد، ونحن الزائلين..

.مرتضى، هو ال–، ، ، ،

قطر الحبايب ع المحطة واقف ×××× ناس بتطلع وناس بتنزل...

ربك ع الضماير مطلع وشايف ×××× وبين النهار والليل بيفصل

الحياة أيد بتغزل وإيد بتوصل ×××× والموت سكينة حامية بتقطع وتعزل

(52)

يا جمال، هؤلاء الذين ساوموك على طيبتك القديمة، هم في الحقيقة جعلوا منك شخصا فاترا، وجعلوني صراعك السري المعتق، قم يا مقاتل وانفخ الروعة في روحك من جديد وامنحني فرصة كي أدعمك، من قال إنك غنيمة سهلة لتلك الحرب الطاحنة التي تدور، قد أحتاج حقا لأن أكرهك بقوة تماثل شوقي في الفكاك منك، أنت عجزي واضطرابي الشامل، هل تصدق؟ من قال إننا صيد سهل وغيمه قريبة؟ من أفهمك هذا فاستسلمت وقعدت هناك في "الحكروب" منتظرا للحظة السبي القادمة، النهائية؟ من أفهمك هذا يا طيب، وحط في روحك مرض الهزيمة، لمن تكرس تراث الامتثال المؤدب هذا، ولمن ستعطيه بعد أن أخذته من أبيك، الرجل الميكانيكي الصالح، إلى متى ستظل بعض انتظار ممل .. اسمح لي أن أكرهك قليلا حتى أجد الأعذار الجديدة لنفسي كي أحبك من جديد بصدق، ينبغي لي أن أتبرأ منك كذنب كبير، إلى متى ستتحصن بي، وأتحصن بك والثبات دوما بيننا والسكات، أنت تستمرئ عذاباتك لدرجة الرتابة، نعم صار الوقت معتما، نعم صار شكل الحياة رتيبا كدقات ساعة تالفة، من منحنا إيقاعنا الركيك هذا، وأخذ منا أرجوحة الانقذاف إلى غير المتوقع!

كسرّ وهشّم واسحق المألوف والمعتاد فينا واستغني عن الرتابة قليلا، منذ وقت طويل، وأنت تفكر في كل الصحاب، محسن، مسعود، عبد الوهاب، جرجس، الأستاذ أنسي، أم حسن، ثم بسمة، إنها الألم الناعم المحير الذي جاءك أخيرا متربصا بك، وتفكر أيضا في أشياء أخرى كثيرة، وساكن قاع غرفتك الطينية، أنت تستعمل بيتك كفلك نجاة أخير، إلى متى ستظل تفكر وتفكر وتفكر، يا رجل يا مفكر تحرك إذن، ساعدني لأجسد جزءا من أفكارك تلك، دعني أحطها فوق أرض الواقع الزلقة، أترك رأسك لبعض الوقت وترجل بتوءدة هكذا، بص وشوفني ماذا سأفعل؟!!

..أنا - أقصد أنت - نعم أنت مشغول ببحثك عن أمانك الخاص، تفعل هذا بتخاذل، تلتف حول ذاتك وتلوذ بتلافيف نفسك وتمكث، في وقت أصبح فيه المكوث ذريعة أكيدة ومبررا قويا للقضاء عليك، أنا أبغضك الآن لدرجة الفرار منك! أنا أكرهك بنصاعة كافية، أنا أكرهني بوضوح كامل!! من يحررني منك؟ من يقسمنا لاثنين بالتساوي، ليروح الركن الخانع فينا إلى واحد منا وليخلص الآخر- أنت /أنا- صرنا كتوأمين ملتصقين من دماغيهما، وكل رأس في اتجاه مغاير، وكل رأس يريد اتخاذ قرار مختلف، وكل جسد منهما يريد اتجاه، شوهت رغبتي بثقلك الكئيب، كبلت اشتياقي للمخاطرة يا نصفي الطيب لحد البياض، أنت نصاعة غير خانعة لأي ذرة من وساخة، يا عذوبتي المضلة ويأسي الثقيل، صدقني أنا بعض قسوة، بعض بأس مهم لأمثالك الخانعين البسطاء، وها هو عبد الوهاب السماك البسيط فعلها، لم رجاله وذهب هناك ووقف هاتفا محتجا على خذلانه طوال الفترة الماضية، وقف

معتصما بضعفه وهز أركان البناء الكالح الكبير، وصار مبرأ الذمة قدام عياله، وزملائه من الصيادين المكافحين، هم حفنة من صيادي السمك، فعلها بذوق وشجاعة، وأنت ترفضني، في حين أن اختلاطنا معا يجعلنا حالة حمضية مهمة، و دفقة أفكار متفجرة بالمعاني، إلي الآن ترفض!! يعني لا توجد فائدة فيك، نحن مشوار أبدا لن يتم، إذن ليس من المحتم أن نظل ملاصقين لبعضنا البعض، ليس بالضرورة أن نظل معا، أطلقني من جوفك، ألفظني من أعماقك، أنت لست باردا أو ساخنا، أنت فاتر، ولا أتحملك..

obeikan.com

(53)

نبذة مختصرة عن الحادث

من ناحية أخرى تجري أجهزة الأمن المعنية، بحثها المكثف، عن الجاني، وقد علم مندوبنا والجريدة ماثلة للطبع، أن التحقيقات الأولى للنيابة، قد توصلت لبعض الخيوط التي ستقود إلى القاتل، وشكوك رجال البحث الجنائي تتجه قوية إلى ابن القتيلة، وخصوصا أن الجريمة ومن خلال الملابسات التي تم جمعها، يمكن اعتبارها إحدى جرائم الشرف، وذكر السيد المقدم (هاني أحمد القاضي) المشرف على القضية بالمباحث الجنائية، أن نتيجة فريق البحث وشهادة الطب الشرعي والأدلة الجنائية وشهادة الشهود قد تحسم الشكوك تجاه الابن الهارب (حسن الضمراني عبد المولى)، ومن أقوال شهود العيان، إنه ليلة وقوع الجريمة، اندلع نزاع حاد بين (حسن) ووالدته (القتيلة)، بعد أن وجدها في وضع مخل مع أحد الأشخاص كما أدلى بعض الشهود، وتردد أيضا أن(حسن) كان دائم الخلاف مع والدته بسبب سوء سلوكها، ويبدو أن النيابة وجدت في تلك الأقوال، دليلا قويا علي ارتكاب (حسن) لجريمته الشنعاء، وسنوافيكم بالجديد في طبعاتنا القادمة ..

تحقيق: عادل الطيب.

obeikan.com

(54)

..فعلها جرجس منذ فترة، قدم الورقة للنيابة وراحت الإجراءات الأمنية تتخذ مجراها بتلكؤ حتى أكملت التفافها حولي وأخيرا قبضوا عليّ، وأصبح الحل الوحيد هو أن أدفع الدين الذي في رقبتي واتعاب المحاماه أيضا، وها جرجس يولي هاربا خوفا من قصاص قد يطوله، ومن يعرف، فربما "حسن" يتعقبه محاولا قتله، وهل سيكون أغلى من أمه؟، مسكين جرجس..

..مع الأسف الذي أنقذني من دهاليز الحبس المقبضة، كان زوج شقيقتي، "مرتضى" جاءني في اليوم التالي وأنهى الموضوع بسهولة مفرطة، ودفع للمحامي الذي يخص جرجس كل ما طلب من جنيهات، وفك الحديد من حول معصمي وحررني، اتصلت به أمي، ولم يتأخر الرجل، وجاءني عازما على تخليصي من الأمر الذي أحدق، شكرا له، ولأمي..

..وخرجت معه من سراي النيابة ظهرا، كان راكنا سيارته الفخمة في بداية شارع "كسر الحجر" القريب من مبنى المحكمة الابتدائية وسراي النيابة، تمشينا إلى السيارة معا وركبت معه مطيعا لأكمل فعله الجميل معي، وهو يقود السيارة بهدوء، كان يكلمني بود، وكنت أنظر

للناس والمحال والمقاهي والعمارات وهي تتراجع سريعا خلفنا، كان لا يعجبه وضعي الحالي، ومتضايقا من نمط حياتي وراح ينصحني وهو يعرض عليّ خبراته ونجاحاته المتتالية، وعرض عليّ أن يساعدني، كان يساومني في هذه اللحظة بصبر، وكنت أفكر في كلامه مليا، وأنا أتذكر الصحاب الذين سافروا والآخرين الذين يستعدون بدورهم للسفر، الجميع ذهبوا بعيدا وتركوني، محسن، مسعود، جرجس، عبد الوهاب، ومن قبلهم صلاح، والخال وصفي ثم هالة، وبقيت أنا ومرتضى في سيارة كبيرة رشيقه يقودها هو بنفسه ولا أعرف إلى أين يأخذني، كنا غريمين في حالة هدنة مؤقتة، وكنت مهزوما، وكان يحاول استثمار حالتي المزرية، ولم أنطق، ورائحة النتانة تفوح من ثيابي، مد يده بسيجارة فأخذتها مشتاقا للتدخين، وبدأ الدخان الكثيف المنطلق من صدري يصنع حاجزا وهميا بيننا، وكان يقود السيارة باقتدار، ولا يعتني بالطريق بقدر ما كان يعتني بالنظر لي وهو يحاول أن يمنع تأففه من الظهور الصريح، وعرض عليّ أن أعمل معه في إدارة مشاريعه الكثيرة، وطلب مني أن أحدد الراتب الذي يرضيني، وحاول أن يفهمني أننا نعيش فترة ازدهار كبيرة، وأن المعنيين بالأمر يشجعون القطاع الخاص بكل ما يستطيعون، وقالها صريحة: "خلاص يا جمال القطاع العام انتهى، جرب القطاع الخاص بقى"، أنزلني عند "الكوبري" وقبل أن يستأنف سيره دعاني لأن أفكر في الأمر جيدا، ووعدته بذلك، كنت مطيعا، ودخلت إلى "الحكروب" بتثاقل، وبدأت في الصعود إلى بيتنا..

..لما أنهت أمي عدودتها القصيرة، طلعت من صدرها برفق، وذهبت بخطواتها المتأنية لتعد لي ملابسي لأستحم، كنت متسخا وأحتاج للماء،

وملهوفا للنظافة، ولما خرجت منتشيا من الحمام أنيقا بحبيبات الماء العالقة بشعري وجلدي، جلست على الأريكة ونظرت حولي بشوق، كان كل شيء في مكانه ولم يتغير بعد، إنها ليلة واحدة قضيتها بالحبس، وماذا سيتغير فيها، وكانت أمي تسألني عن أحوالي وكيف تصرفت في الليلة الماضية، وكنت أجيبها بعدم اكتراث وأنا أمسك بيدي السليمة ريموت "الريسفير" وأقلب القنوات تباعا..

– يا ولدي أنت اللي حتتجوز، عجباك أتوكل على الله..

وجاءتني أمي بالشاي ومالت عليّ بحنو وأخبرتني بأنها لا تمانع إن كنت أريد بسمة..

..لم أجبها، وتوقفت أمام واحدة من المحطات منتبها للذي يحدث..

..وكأنه فيلم أمريكي جبار، خارق الإنتاج، ولم أصدق أنه واقع، كانت الطائرات تأتي سريعة وتنغرس بسرعتها القصوى في البرجين الشاهقين تاركة خلفها ما لا يمكن تصوره من النيران والأدخنة، وكنت أظن أنه فيلم أمريكي حديث، وبعد دقائق عرفت أنها الحقيقة، ثم سقط البرجان مخلفين وراءهما سحابة مهولة من الغبار الأسود الثقيل، وكان الفزع في عيون الناس الناجين الفارين من هذا الفعل الخرافي، يصلني، ويصيبني بأقوى منه أيضا، ولم أصدق.

في الليل وبعد أن تأكد خبر القتل الكبير الذي وقع، لم أعرف ماذا أفعل، ولم أستطع أن أكمل مشاهدة الأخبار، ولم أقدرعلى الاقتراب من النوم، وتذكرت الأستاذ "أنسي"، جاء أوان تخطي حالة الحرج التي بيننا، يجب أن أنحي موضوع بسمة جانبا وأتكلم كثيرا معه بخصوص

أشياء أخرى بدأت تصحو في أعماقي، قلق وارتياب وأسئلة بحجم الجحيم الذي حصل، محتاج لصوته وحكمته الآن، ومن باقي لي غيره هو والست الوالدة، مستوجبا أن أحافظ عليه وأستمتع بصداقته أكبر وقت ممكن، ومن يقدر أن يتصدى لمثل ما يحدث غيره، أريده أن يرشدني ويفهمني ما تلك الدنيا، ما هذا العالم، ما هو الإنسان بالضبط وماذا يريد؟!

..بعد فترة من الطنين المنتظم البطيء، جاءني صوت زوجته، كان حزينا، وأكملت بصوتها الباكي رتوشا مهمة في هذا الفيلم الكبير الذي يحدث حولي، مات الأستاذ "أنسي" منذ ثلاثة أيام، سكت قلبه المريض للأبد، مات وهو ينتظر ردي، وها هو يحقق وعده لي بالموت، منذ أيام أخبرني أنه سيصعد، وها هو يحقق أنباءه ليجعلني أصدقها، وأيقنت أنه كان بريئا من تهمة العار التي طبخوها له في "المصلحة"، الآن تأكدت من نظافته، بعد أن حقق وعده لي ومات، وتنبأ بميعاد صعوده، كأحد الصديقين العظام، ومات، بل صعد، سافر إلى الأعالي..

..وجلست بمفردي في الغرفة، ثم طالعت التلفاز مرارا لأتابع ما يجري، ورجعت للغرفة، ولم أجد مفرا من العبث بأشيائي القديمة، أتيت بأكياسي المعلقة في الحائط وأفرغتها على السرير، وظللت أتفحص محتوياتها لمساحة كبيرة من الوقت..

..وأشرطة تسيجيل مقطوعة لأم كلثوم وعبد الحليم وفيروز ونجاة، زجاجة عطر فارغة، بكر لازق "منتهي"، أوراق صفراء مطبقة، كروت شحن مدفوعة الأجر مقدما، الكثير من كروت الشحن، أوراق جرائد مقصوصة بعناية وصفراء، طلب إجازة مقدمة لإدارة شؤون

العاملين، السيد الأستاذ / فتحي كمال أبـو الحمد، تحية طيبة، وبعد/ أرجو من سيادتكم التكرم بمنحي إجازة تغيب عن العمل من يوم 10/2/1996 حتى يوم 17/2/1996 وذلك لعقد قران شقيقتي الوسطى، ولكم جزيل الشكر، مفردات مرتب / تشهد الشركة المصرية لتسويق الأسماك / مصنع الثلج / قسم التشفية، بأن راتب السيد /جمال يوسف فهمي كالآتي :- استحقاقات / أجر أساسي 340، الإضافات/ زيادات 63، بدلات 54، الاستقطاعات / تأمين صحي / 7،5 /قسط استبدال /صفر/قسط نفقة /صفر/ إجمالي الاستحقاقات / 457 - إجمالي الاستقطاعات /7،5، صورة وحيدة للأستاذ "أنسي"، مفك تست ألماني مكسور، وزجاجة حقن يونيتكتام فارغة، علبة مضاد حيوي "500" واسع المجال، انتهت صلاحيتها، صلاح، مسعود، محسن راتب وزوجته وداد، مقبل يضع دبلة الخطوبة في أصبع صبحية، والاثنين في الكوشة وأنا بينهما وأبتسم بفرح، أمي وبجوارها يوسف وتضع ذراعها على كتفه، قلم جاف معدني من غير أنبوبة، مشط، فرشة أسنان، حقن بلاستيكية تم استعمالها، صور، صور، أوراق قديمة، ولاعة رنسون تالفة، ساعة أورينت مكسورة، أستيكة متوسطة الحجم، نصفها بني خشن، والنصف الآخر أزرق ناعم، قفل بدون مفتاح، عدد من المفاتيح في سلسلة محكمة، شاحن نوكيا لا يعمل، "توكة" حزام يبرز منها رأس نسر، قماطة صغيرة ملفوفة حول بعضها، وحين فتحتها برفق وجدتٌ ما بدخلها قد تفتت، تفتت تماما..

..أعدت كل شيء إلى الأكياس ثانية وعلقتها في مكانها، وخلعت ثيابي وتمددت عاريا في الفراش، كنت منهكا والألم مقبل نحوي وبادئ في

دخولي من الكتف الأيسر، ولا أصدق.. وكانت لوحة المرحوم "صلاح" معلقة كالمعتاد أمامي..

..كنت في مكاني بالضبط ولم أبارحه..

..سنين مرت ولم أترك مكاني، ولوني كالح..

..ومغروسا في كتلة الجبل الأنثى..

..ويميل جسدي، لأن يكون قطعة من الصخر، وأمسك هالة بعزم.

..وهالة ملفوفة بشعرها المسترسل حول يدي، وتحاول الفكاك مني، وتلمس حافة السماء بأناملها الرقيقة..

..والسماء أوشكت أن تنفتح لتنهي هذا الألم الكبير الحادث بيننا..

..وكنا ثلاثة، أنا وهالة والحكروب..

..وكنت أبله في دنيا ضيقة..

..ومثل نافورة لحم نيئ تقذف إلى المتسع السماوي..

..ونصنع معا مؤامرة هروب كبيرة..

..وأعذب هالة بإمساكي لها بكفي الكبير..

..وهالة تعذبني بالصعود إلى فوق..

..إلى النجدة السماوية المبتغاة..

..والحكروب يعذب كلينا بجسمه الحجري الناشف..

..وينقل عدواه إلينا مصرا على أن يلاحقنا..

obeikan.com

..ولوني الزيتي كالح كصخر، وفاتر...

..وألواني ليست بالساخنة، أو الباردة، فقط فاتر، ومضبب، وكالح..

..وأمسك في هالة ببله، ومتجها إليها بحمق لا يمكن الشفاء منه..

..وبرغم هذا الصخب والزحام والخلط، مازلت وحيدا وبدون محاولة تخصني..

..وأحتاج لأحد أن يفهّمني ويتسامح مع بلهي..

..وغير مصدق أنها ذاهبة إلى أهدافها..

..وفي عزلة كاملة وعتم يكاد أن يكون كاملا..

..والزيت يسيح من حولي برخاء اللون الأسود ودرجاته..

..وغير مصدق أنني أبله، وأنها عازمة على الذهاب النهائي..

..ولا أصدق..

..ولا أصدق أنها متاهة كبيرة، تشابه دنيا صغيرة ..

..ولا أصدق أنها عالم كبير ومتسع للغواية، لا أصدق...

18 مارس 2008

عصام راسم فهي.

obeikan.com

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com